



مركز دراسات الدكتوراه
الإنسان والمجال في العالم المتوسطي
تكوين الدكتوراه
الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا المجتمع والبيئة

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان

منهج الحوار من خلال السيرة النبوية

إشراف الأستاذ:
د. محمد المغراوي
د. عبد الرزاق الجاي

إعداد الطالب الباحث :
محمد بن حمو

الموسم الجامعي: 1440/1441هـ الموافق لـ: 2019 / 2020م.

بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأستاذ عبد الرزاق الجاي
(مشرف ثان)

الأستاذ محمد المغراوي
(الأستاذ المشرف)

الأستاذ
(عضو اللجنة)

الأستاذ
(رئيس اللجنة)

الأستاذ
(عضو اللجنة)

الأستاذ
(عضو اللجنة)

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد إمام
الأولين والآخرين. وبعد،

"لا يشكر الله من لا يشكر الناس" حديث شريف

فهذا بحثي لنيل شهادة الدكتوراه، قد بلغ الآن مداه، وفاح في شهر الربيع
شذاه، وذلك أولا وأخيرا بفضل عون الملك الوهاب سبحانه، لا يخيب ولا
يضيع من توكل عليه ورجا إحسانه. ثم بفضل إشراف أستاذنا الدكتور محمد
المغراوي الذي لم نَعْدِمُ منه لِيَن جانب، ولم نلمس منه تقصيرا في القيام
بالواجب. فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأثابه على ذلك جزيل العطاء.

والشكر موصول لمشرفي الدكتور عبد الرزاق الجاي، فلم يَأُلْ جهدا في النصح
والتوجيه، تذليلا للعقبات، وتشجيعا على المتابعة والاستمرار.

دون أن أنسى شكر المنسق البيداغوجي الدكتور مولاي العربي بوسلهام على
خدماته الجليلة، وتوصياته المفيدة.

الإهداء

إلى من علّمني أن الله يُحِبُّ وَيُحِبُّ، وأن محبته سبحانه مقرونة بمحبة رسوله
والمؤمنين، إلى من علّمني أن ذكر الله هو صقال القلوب من الذنوب إذا رَأَتْ،
وجلاء الهموم من الصدور إذا ضاقت، إلى من علّمني أن الصدق هو مَنَاطُ
قَبُولِ الأعمال، ومعراج الوصول إلى الْوَلِيِّ الْمُتَعَالِ. رحم الله من أوليائه سَلَفَهُمْ
وَحَلَفَهُمْ، وَحَشَرْنَا عَلَى سُوءِ حَالِنَا مَعَهُمْ.

إلى الوالدين الكريمين الذين هما السبب في الإيجاد، وأهل الفضل التام في التربية
والإسعاد، رحم الله والدي الحبيب، وأنعم على الوالدة الحانية بمزيد صحة
وعافية وطول عمر، أَشْتَمُّ عند رجليها عَبَقُ الْجِنَانِ، وَأَنَالُ ببرها وطاعتها رضى
الرحمن.

إلى إخوتي وأخواتي، من شد الله بهم عضدي وأزري، وشرح بهم في وقت الضيق
صدري، وجعلهم إخوة في الإيمان بعد أخوة الطين، وقوى بهم في نفس الآن
آصرة القرابة والدين.

إلى الزوجة الودود، من بها سُمُوُ بِناء البيت وقَوَامُه، وكمالُ هناءِ العيش ونجاته،
الصابرة الشاكرة، أبقاها الله لنا قُرَّةَ عَيْنٍ، وحفظها من كل عيب وشَيْن.

إلى أبنائي الأعزاء، زينة الدنيا وبهجتها، وذخر الآخرة وفرحتها، رب أصلح لي
في ذريتي إني تُبْتُ إليك.

إلى جميع الأحباب والأصدقاء، العُدَّة في الشدة، والأنس في الوحدة، أهل
الخدمة والعطاء، ومعدن الصدق والوفاء.

إلى أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرج الله في أقرب الآجال كربها، وفك
من أسر الاستعباد قيدها.

أهدي هذا العمل المتواضع، أسأل الله القبول، ومن حسن عطائه المأمول.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه.

المقدمة

تعكس السيرة النبوية الجانب التطبيقي النموذجي لسلوك الإنسان المسلم، والنموذج في التربية والبناء، باعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم يشكل الكمال البشري في التنزيل لآيات الوحي، وقد وجهنا الله عز وجل إلى اقتفاء أثره، والسير على خطاه، لنيل الصلاح الدنيوي، في أبعاده الإنسانية الفردية أو الجماعية، مقترنا بالفلاح الأخروي.

ولا تتحقق معاني العبودية الحققة لله عز وجل إلا بالسعي الحثيث لتحقيق المطلبين معا، الصلاح الدنيوي والفلاح الأخروي، سعيا متوازنا، لا يخل بشروط الفهم، وشروط التنزيل، فهما سليما للنقل الصحيح، وإعمالا للعقل المتنور بالعلم في ملابسات السياق. وعملا دؤوبا لتربية رجال ونساء استوعبوا المرحلة وأعدوا من إراداتهم ما يحيل العقبات فرصا للبلاغ.

إن الإفصاح بالحجة، والإبانة عن منهج الإسلام الشامل، أضحي مطلباً ملحاً، لتحقيق السعادة في الدارين، لأن العي في التبليغ والخرق في الإفهام أحد أسباب تخوف الكثير وجفائهم عن مبادئه وقيمه.

وكما شكل الحوار أود التأسيس، ينبغي أن يبقى مرتكز البناء، وأساس التجديد. حوار نستنبط معالمه العامة من القرآن الكريم، ونستجلي تطبيقاته العملية والتفصيلية في السنة والسيرة النبويتين. فلا مرأ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان المحاور الذي خاطب القريب والبعيد، والذي ربى وبنى الشخصية المسلمة، فأثمرت تربيته نماذج بشرية سرت فيهم معاني الصحة وتجلت فيهم أخلاقه وسلوكياته، واستطاع هذا البناء الإنساني الذي شكله الصحابة الكرام إتمام المنهج

الحواري النبوي الذي أثمر اتساع الرقعة الإسلامية التي ساد فيها السلم والتعايش الإنساني رغم الاختلاف الديني والاجتماعي والعرقى.

وليبيان مسألة الحوار في السيرة النبوية يأتي موضوع الأطروحة: منهج الحوار من خلال السيرة النبوية لأجل البحث واكتشاف المعاني والمفاهيم التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسان والمجتمع المسلمين في علاقته مع الآخر القريب أو البعيد.

ولعل من نافلة الكلام أن أشير إلى أن مفهوم الحوار، في الوقت الراهن، وبمختلف أبعاده، من أكثر المفاهيم شيوعاً منذ العقود الأخيرة من القرن المنصرم، وذلك بسبب ما اكتسبه من إشعاع في عصرنا الملبد بغيوم الأزمات والصراعات السياسية والاجتماعية والدينية والعرقية. فغداً في هذا العصر سلوكاً حضارياً مرغوباً فيه لتأسيسه على منظومة من القيم الكونية، يأتي في طليعتها قبول التعددية والاختلاف، وتحقيق التعايش والتعاون بين الأمم والشعوب.

وإن المتأمل ليجد أن الأصل في الإسلام، كتاباً وسنة، وفي الموروث الثقافي والحضاري، هو الحوار؛ بما هو تجاوب يقتضي رحابة الصدر، وسماحة النفس، ورجاحة العقل، التي تتطلب التعامل المتحضر الراقي مع الأفكار والآراء جميعاً...

ثقافة الحوار، إذن، بهذا المفهوم ضرورة حياتية على المستوى الشخصي، والديني، والسياسي، والاجتماعي والعالمي على أساس مبدأ الموضوعية والإنصاف والعدل وصولاً إلى الحقيقة.

ولذلك كان القرآن الكريم في تاريخ الإسلام وحياة المسلمين، ولا يزال، المدرسة التي انطلق منها النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام، عملاً بالأساليب المتنوعة للحوار التي احتواها وبالأفق الواسع الذي ارتضاه منهجاً لهذا الحوار، باعتباره الإطار العام للخط الإسلامي الذي يجسد وصول الحوار إلى هدفه الطبيعي في الحركة التاريخية للحياة والإيمان.

إن القرآن الكريم يعد بحق كتاب حوار، عرض المبادئ التي يبشر بها كلها في مواقف حوارية مستمرة يتجلى فيها الحلم الرباني، بدء من الحوار مع الملائكة والأنبياء المقربين وانتهاء بالحوار مع إبليس الملعون، مروراً بالحوار مع كافة الملل والنحل، والآيات في هذا السياق كثيرة. فجاءت التربية النبوية لترجم هذا المبدأ المكين، والمنهج القويم في شتى صور الحياة، ومع مختلف أصناف الناس.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهمية اختيار موضوع "منهج الحوار من خلال السيرة النبوية"؛ في البحث عن الأبعاد الوجدانية الروحية لمعاني المصطلح والقيم المرتبطة به، وتحليلاتها عبر مقامات تربية المصحوب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لصحابته، ولأتمته من بعده. وأفقها في سياق الوفاء لأمانة التبليغ المستمرة في زمن التشويه الإعلامي المصبوب صبا على رؤوس العباد في كل البلاد. يأتي اختيار الموضوع لدوافع ذاتية وأخرى موضوعية.

1- الدوافع الذاتية تتجلى في:

- ابتغاء مرضاة الله تعالى من خلال الإسهام في خدمة كتابه العزيز وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

- الرغبة في استكمال التكوين في مجال الحوار والتواصل مع الآخر ابتداء من بحث الماستر: الحوار الإسلامي المسيحي؛ نماذج من موضوعاته وتاريخه، إلى بحث الدكتوراه في الحوار من خلال السيرة النبوية التي تعد التنزيل العملي التطبيقي لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

2 - أما الدوافع الموضوعية فيمكن إجمالها في:

- أن الحوار النبوي هو الأسلوب الناجع الذي يمكن من خلاله معالجة المشاكل المجتمعية.

- أن الضرورة العلائقية مع الآخر تقتضي البحث عن منهج في الحوار النبوي لأجل اعتماده في إقامة الحوار.

- حاجة العصر الحالي لبناء الإنسان على قيم التشارك والتعارف والحوار قبل بناء حضارة مادية فارغة من رحمة قلبية "الإيمان" وحكمة عقلية "العلم".

- نقل السيرة النبوية من تراث تقليدي مقتصر على الخطابة والوعظ والإرشاد، إلى علم مبني على قواعد منهجية وتربوية منفتحة على جميع العلوم والحضارات، تكون فيه مفتاحا لبناء الأجيال والشعوب متشربة معانيها وروحها ومقصدها الرباني.

إشكالية البحث :

يتأسس البحث على إشكال محوري نوجزه في الآتي: " ما هي الأسس الروحية والسلوكية لمنهج الحوار في السيرة النبوية؟ وما سبل استثمار هذا المنهج في الإجابة عن إشكالات العصر في بعدها الاجتماعي والسياسي والتربوي؟

ويتفرع عن هذا الاشكال أسئلة فرعية أذكرها اختصارا في الآتي:

أولا: هل يمكن أن نتحدث عن منهج حوار في السيرة النبوية؟

ثانيا: ما الأبعاد الروحية لمعاني الحوار والقيم المرتبطة به، وتحليلاتها في سيرة الأسوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لصحابته؟

ثالثا: هل هناك نماذج مشرقة من تاريخ الإسلام وقَّت للنهج النبوي حالا ومقالا؛
فجمعت بروحانيتهما على الحق قلوب الخلق من مختلف الأعراق والثقافات؟

رابعا: ما هي مبادئ السلوك المعاصر على خطى النهج النبوي في الحوار؛ روحا وسمتا؟
خامسا: ما هي نتائج المنهج النبوي الحواري المحتملة على مستوى هداية الناس إلى نور
الإسلام تبرئة للذمة؟

سادسا: كيف يستثمر المنهج النبوي في الحوار لتصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام
ونبيه وتاريخه لدى الآخر المختلف دينيا وحضاريا؟

أهداف البحث:

- رصد أسس الحوار والمنهج الحواري القرآني.
- بيان تجليات المنهج الحواري في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وامتداداته.
- إبراز واجهات أعمال النهج الحواري في واقعنا الاجتماعي، الأسري، التربوي والتعليمي - الإرشادي.
- الإسهام في إحياء المنهج النبوي في مختلف مجالات الاستخلاف الإنساني استشرافا
لمستقبل يسود فيه هذا المنهج كما كان في عهده صلى الله عليه وسلم.

الدراسات السابقة:

- منهج السنة النبوية في التربية النفسية، حسين محمد حسين، رسالة دكتوراه طبعتها دار السلام بالقاهرة .
- المنهج العملي لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في العهد المدني من خلال صحيح مسلم، السيد عبد السلام السيد موسى، رسالة دكتوراه، الأزهر، 2003م.
- المنهج النبوي في التعامل مع الخطأ السلوكي في حالة السلم: دراسة تأصيلية موضوعية، سامي باسم علي عمور، دكتوراه 2013م.
- معالم المنهج النبوي في اتخاذ القرارات وتطبيقها الإدارة التربوية، محمد بن مشبب ابن سلمان آل كاسي القحطاني، دكتوراه، أم القرى، 1424هـ.
- منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التربية العلمية للصحابة رضي الله عنهم، خالد السعيد السيد سليمان، دكتوراه، الأزهر، 2009م.

الخطوات المنهجية:

يفرض تناول العلمي للموضوع الاستعانة بجملة من الإجراءات والمبادئ والقواعد

منها:

- 1 تحديد المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالموضوع.
- 2 رصد مواطن الحوار من السنة النبوية وتصنيفها.
- 3 مناقشة هذه القضايا في إطارها التصنيفي.
- 4 استخلاص النتائج ذات الأهمية والقيمة العلمية.
- 5 توخي الدقة والموضوعية في التحليل والمناقشة والاستخلاص.
- 6 احترام المنهجية العلمية في التعامل مع المصادر والمراجع.
- 7 المحافظة على النسق العام للبحث بتفادي الاستطراد المخل بالبناء المنهجي .

المناهج المستعملة في البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة أساسا على المنهج التحليلي، واستعنت ببعض قواعد ومبادئ وأدوات المنهج الوصفي في معالجة بعض قضاياها¹ من خلال عرض نقول بعض المهتمين بدراسة السيرة النبوية قديما وحديثا، وعرض الشواهد القرآنية والنبوية في السياقات المناسبة لدراسة منهج الحوار النبوي نظريا وإعمالا. وقد اخترت المنهج التحليلي الذي يقوم على دراسة الإشكالات

¹ من المبادئ المسلم بها في مناهج البحث العلمي والتربوي أنه يمكن توظيف أكثر من منهج في حل إشكال البحث على أن يحدد الباحث المنهج الرئيس المعتمد وغيره من المناهج المكملة. يقول رشدي فكار: «وكمبدأ عام، من الخطأ تصور استعمال منهجي على مستوى أحادي، فالمناهج بطبيعتها تتكامل متعددة ومتنوعة، على أساس أن يكون هناك منهج سائد في التصور العام لمخطط البحث وتصميمه. فكار رشدي، لمحات عن منهجية الحوار والتحدي الإعجازي للإسلام في هذا العصر، مكتبة وهبة، ط:1، القاهرة، 1402هـ/1982م، ص: 34.

العلمية المختلفة، تفكيكا أو تركيبا أو تقويما¹، لتناسبه مع مجال البحث، وخدمته لإشكاله وقضاياه، إذ يقوم على ثلاثة مبادئ وهي: التفسير (التفكيك) والنقد (التقويم) ثم الاستنباط (التركيب)، وهي في مجملها مسعفة للإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه. وعطفا على ذلك، وظفت مبدأ التفسير في تفكيك القضايا المركبة في البحث من قبيل تفكيك المنهج الحوارى الى مجالات وظيفية، والاشتغال عليها بيانا وتفكيكا وتحليلا، كما اعتمدت ذات المبدأ في رسم أفق استثمار المنهج النبوى في معالجة القضايا المعاصرة. وانتقلت إلى المنهج التاريخى بجرد الوقائع والأحداث التاريخية وذلك بجمع الأدلة والتعليق عليها وتحليلها استنادا إلى أسس منهجية وعلمية. وأعملت مبدأ الاستنباط² في الاجتهاد لاستخلاص المبادئ والقيم والمهارات المميزة للمنهج الحوارى النبوى. ثم توسلت بمبدأ النقد العلمى في نقد واقع الحوار في مجالاتنا التربوية والاجتماعية والسياسية المعاصرة، ونقد التناول الجزئى لسيرة المصطفى صلى الله عليهم وسلم، بدل اعتمادها بوصفها نهجا نسقيا متكاملا شاملا لمختلف مجالات الاستخلاف.

خطة البحث :

استوجبت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وباين، كل باب اشتمل على فصول تضمنت مباحث، وخاتمة بالإضافة إلى لائحة المصادر والمراجع وفق هذا التفصيل:

المقدمة: وفيها بيان لأهمية الموضوع، وطرح لإشكاله المركزى، مع ذكر دوافع البحث، وصعوباته المرصودة، والدراسات السابقة والمنهج المعتمد في مقارنته.

¹ من مقتضيات المنهج التحليلي أنه إذا «إذا كان الإشكال تركيبية منغلقة، قام المنهج التحليلي بتفكيكها، وإرجاع العناصر إلى أصولها. أما إذا كان الإشكال عناصر مشتتة، فإن المنهج يقوم بدراسة طبيعتها ووظائفها، ليركب منها نظرية ما أو أصولا ما أو قواعد معينة». الأنصارى، فريد. أبحاث البحث في العلوم الشرعية، ص: 119.

² المقصود بالاستنباط هنا مطلق الاجتهاد، القائم على بذل الجهد في البحث أو التعليم أو في غيرهما.

لقد قسمت هذا البحث إلى بابين أساسيين: خصصت الأول للحديث عن الأسس الروحية السلوكية للحوار النبوي، وذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: كان الهدف منه تعريف الحوار وضبط مفهومه وتمييزه عن مصطلحات أخرى مشاكلة له وقريبة من معناه، فحددت لكل واحد حدوده وخصائصه وما يتميز به عن الآخر، هذا في المبحث الأول، أما في المبحث الثاني فأبرزت فيه الأسس الروحية للحوار النبوي وقمت بمجرد مجموعة من الخصال والآداب السلوكية التي يتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء حوارهِ مع الناس وحتى مع من يخالفه، فجمعتها في مبحث ثانٍ مرتبة على حسب الأولوية والأهمية. وبعد ذلك تحدثت عن الآداب السلوكية للحوار النبوي على شكل مطالب تنتظم تحت المبحث الثالث.

في الفصل الثاني: الذي عنوانه بالخطاب القرآني مؤسس لمنهج الحوار النبوي، مقسماً على ثلاثة مباحث: الأول تناولت فيه الأساليب الحوارية في القرآن الكريم، فمثلت لذلك بنماذج حوارية للأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وأقوال المفسرين واستنباطاتهم، والثاني خصصته للحديث عن مبادئ الحوار في القرآن الكريم والسيرة النبوية، لأختم بمبحث خاص بالشواهد القرآنية للحوارات النبوية.

أما الفصل الثالث: الذي جاء تحت عنوان الأسس الأثافي للحوار النبوي، فقد تم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث: الأول تناولت فيه الأسس العقدية للحوار النبوي، حيث كان الهدف الأكبر لحواراته صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والمبحث الثاني مثلت فيه لهذا الاتجاه العام لحوارات الأنبياء مع أقوامهم والحضور القوي لتوحيد الله تعالى، بل كان أولى الأولويات. ثم تناولت في المبحث الثالث الأسس التعليمية التوجيهية للحوار النبوي من خلال تعليمه وإرشاده للصحابة رضي الله عنهم.

وفي الفصل الرابع الذي جاء تحت عنوان: أسس الحوار النبوي في المجال التربوي والتعليمي. قسمته إلى ثلاثة مباحث: الأول: بينت فيه مظاهر الحوار النبوي في المجال التربوي. والثاني: مثلت فيه للحوار النبوي في المجال التعليمي. والثالث: تحدثت فيه عن الحوار مدخلا لفتق المهارات في محافل العلم.

فيما يخص الباب الثاني: أبعاد الحوار النبوي الاجتماعية والسياسية والإنسانية، مقسما إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: تحدثت فيه عن الحوار النبوي وبناء الإنسان والأسرة، مقسما إلى مباحث كذلك: الأول: تناولت فيه حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. والثاني: ضربت فيه أمثلة لحوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأبناء والأحفاد. أما الثالث: فمثلت فيه لنماذج من حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الخدم.

بالنسبة للفصل الثاني: الذي عنونته بالحوار النبوي مع الأصحاب والصحابيات وأبنائهم. فقد تم تقسيمه كذلك إلى مباحث: الأول: أبرزت فيه حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأصحاب ونماذج من تلك الحوارات مع ما تمثله من صور راقية في آدابها وأسلوبها. والثاني: استحضرت فيه أيضا نماذج من حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابييات رضي الله عنهن. وفي المبحث الثالث: استحضرت فيه بعض حوارات النبي صلى الله عليه وسلم مع أبناء الصحابة.

وفي الفصل الثالث الذي جاء تحت عنوان: الحوار مع الملوك والقادة وأهل الديانات السماوية. فقد تناولته أيضا في ثلاث مباحث: الأول: الحوار مع الملوك والقادة، وهم ملوك الامبراطوريات والدول التي كانت مجاورة للجزيرة العربية خاصة الرومانية والفارسية، أما المبحث الثاني، فتناولت فيه حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الديانة اليهودية، إذ كانت الفترة

المدنية بحكم احتكاك المسلمين وتجاورهم مع اليهود، غنية بالحوارات بين المسلمين واليهود في مسائل عدة، وفي المبحث الثالث: مثلت فيه لنماذج من حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الديانة النصرانية، فالقرآن الكريم غني بالحوار مع أهل الكتاب، وفي السيرة النبوية كذلك أمثلة ناصعة له.

وختمت هذا الباب بالفصل الرابع الذي كان الغرض منه إبراز قيمة المشترك والعمران الإنساني في الحوار النبوي، وتم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث: تناولت في الأول القيم في الحوار النبوي من أجل بناء مشترك إنساني. لأنقل بعده للحديث عن مقاصد الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني وذلك في المبحث الثاني. وبعده تحدثت عن منهج الحوار النبوي وبناء العمران الإنساني.

وفي الخاتمة حاولت جمع أهم خلاصات هذه الرسالة، وتوصيات البحث، التي في مجملها تدعو إلى إعادة الاعتبار للحوار ومأسسته للتواصل مع المجتمعات الأخرى، من أجل خدمة الإنسان، وحفظ حقوقه الأساسية، بغض النظر عن دينه أو عرقه أو لغته، فالتعاون من أجل هذا الهدف، هو البديل الوحيد عن الصراع الذي يتخبط اليوم، في حروب وفوارق لا تحصى لبناء عمران إنساني أساسه الرحمة والمحبة والسلام والأمان.

الشكل المعتمد في الإحالة:

اعتمدت في الإحالة على الترتيب التالي:

- بالنسبة للقرآن التزمت بالرسم العثماني برواية ورش عن نافع، فأذكر اسم السورة ثم رقم الآية.

- بالنسبة للمراجع والمصادر، إذا ذكر الكتاب أول مرة، أذكر اسم المؤلف، ثم المصدر أو المرجع، اسم المحقق أو المترجم إذا وجد، دار النشر، الطبعة، السنة ثم الصفحة.

- أما إذا ذكر نفس الكتاب مرة أخرى فأكتفي بذكر اسمه واسم المؤلف والصفحة.

بعض الرموز المستعملة في الإحالة :

- د.ط: دون طبعة.

- د.ت: دون سنة طبع.

الباب الأول:

الأسس الروحية السلوكية للحوار النبوي

الباب الأول:

الأسس الروحية السلوكية للحوار النبوي

الفصل الأول: مفهوم الحوار وأسس الروحية والسلوكية.

الفصل الثاني: الخطاب القرآني مؤسس لمنهج الحوار النبوي.

الفصل الثالث: الأسس العقدية والتربوية للحوار النبوي.

الفصل الرابع: أسس الحوار النبوي في المجال التربوي والتعليمي.

تمهيد:

لقد بعث الله تعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم "داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا"، فأمره أن "أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بَالْتِ هِيَ أَحْسَنُ"¹، فكان عليه الصلاة والسلام مثالا يقتدى في هداية الناس بالحسنى، يميل إليه كل قلب سليم خال من غي أو حسد أو كبر، ولم يكن أسلوبه في الحوار مع الناس وحده ما يؤثر فيهم، فقد عرفوه صادقا أميناً، يتصف بكل المحامد، فكان أبعد ما يتصور عنه أن يصدر عنه ما تنفر منه الطباع السليمة من قول أو فعل، فلذلك لم يكن ليكره أحدا على اعتناق ما جاء به وإن تيقن أنه الحق الذي ليس من دونه إلا الضلال، ولكن كان يسلك سبيل الإقناع والحوار والدعوة بالتي هي أحسن: "بِمَسْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَسْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ"²، وكم جاء القرآن الكريم يسليه في حزنه وتهممه بمن لم يؤمن به شفقة عليهم من المصير المخزي يوم القيامة، قال الله تعالى في كتابه العزيز: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَسَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ

¹ سورة النحل، الآية: 125.

² سورة الكهف، الآية: 29.

تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ¹، وقال تعالى: "فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسْرَاتٍ"².

إن المستقرئ لكتاب الله تعالى وسنة نبيه يتجلى فيه هذا الأسلوب الحوارى فى دعوته للناس، ضاربا المثل فى ذلك بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وكذلك فى أسلوب عرضه للحقائق التى لا يمكن لكل متأمل إلا أن يخضع أمامها، أو فى إبطال ما عليه المشركون من عبادة ما لا ينفع ولا يضر ولا يسمع نداء المستغيثين...

وهنا تكمن قوة الخطاب القرآنى التى سنحاول التفصيل فيها من خلال هذين البابين، لتتضح مكانة الحوار فى الشريعة الإسلامية، وأساليبه المتعددة، ومحاولين الوقوف عند نماذج مختلفة له من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، وتوظيفه فى دعوته، متحليا فى ذلك بأكمل الصفات ومحامدا للأخلاق، فغدا بحق نموذجا فريدا فى فن الحوار والتواصل، وإن الدارس لسيرته العطرة ليكتشف عظمة هذه الرسالة ورحمتها بالخلق، وتحضرها فى تواصلها مع الناس كافة، فالإسلام يقدر الإنسان ويجله، ويجعل له حرمة فى نفسه وماله وعرضه، فلا يجوز النيل فى الأعراض تحت أى مبرر، وإن من أولى الحقوق التى حفظها ديننا الحنيف لبني البشر، الحق فى التفكير واختيار ما يؤمنون به، لأن الأخلاق والمكارم لا يمكن أن تأتى بالإكراه، بل بالحوار البناء، فى جو هادئ

¹ سورة يونس، الآية: 99.

² سورة فاطر، الآية: 8.

يحتزم فيه الطرفان بعضهما البعض، ويقدر الواحد منهما الآخر، وينصت إليه بأدب واهتمام، لذلك كانت سيرة الرسول العطرة نبراسا في هذا المجال، فما من أدب إلا وتجدده صلى الله عليه وسلم حاثا عليه، مطبقا له في أجمل صوره، مبرزا له في كمال ذوقه، ولا غرو أن يكون هذا الأسلوب الأخاذ هو سر إيمان الناس به وانتشار رسالته في كل أصقاع الأرض بسرعة لم تكن لرسالة قبله، كما أن هذا الأسلوب الأخلاقي المتفرد هو ما جعل قوة أعدائه تتحطم أمام الفطرة الإنسانية، فلا يجدون ما يقاومون به هذا النموذج الفريد إلا أن يصدوا عنه الناس ويمنعوهم من الاستماع إليه، ويجعلوا أيديهم في آذانهم وكلهم يقين على أنه الحق، وإنما أنكروه جحودا واستكبارا، لكن قوة الأخلاق وسلاح المبادئ لا يمكن هزيمتهما بالافتراءات الكاذبة، فكم حاولوا وصفه بالساحر تارة، وبالمجنون تارة أخرى، دون أن يزيد ذلك إلا في مصداقيته والإقبال على رسالته من كل الأصناف، فقد آذوه وأصحابه في مكة بشتى أنواع الأذى، وحاصروه في المدينة حصارا مريرا زلزلت فيه قلوب واضطربت لأجله نفوس، ثم حاربوه حرب استئصال دون جدوى، فبقيت رسالة السلام خفاقة في كل أصقاع الأرض، حاملة ندائها الخالد للناس كافة، ليسمعوا الصرخة الخالدة التي لا يحدها حد، ولا يحجبها أحد.

الفصل الأول:

مفهوم الحوار وأسس الروحية والسلوكية.

المبحث الأول: الحوار وتمييزه عن مصطلحات مشابهة.

المبحث الثاني: الأسس الروحية للحوار النبوي.

المبحث الثالث: الأسس السلوكية للحوار النبوي.

سأقوم في هذا الفصل بتعريف الحوار وتمييزه عن بعض المصطلحات المشابهة له، مع ذكر بعض من آدابه الروحية والسلوكية التي يجب على المحاور التزامها والتخلق بها:

المبحث الأول: الحوار وتمييزه عن مصطلحات مشابهة.

المطلب الأول: تعريف الحوار لغة واصطلاحاً.

يشير التعريف اللغوي لمادة "ح و ر" إلى معان عدة يمكن إجمالها فيما يلي:

● الرجوع إلى الشيء أو عن الشيء:

قال ابن منظور: "الخور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه حورا ومحاراً ومحارة وحؤورا: رجع عنه وإليه؛ وقول العجاج:

في بئر لا حور سرى وما شعر

أراد: في بئر لا حؤور، فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها؛ قال الأزهري: ولا صلة في قوله؛ قال الفراء: لا قائمة في هذا البيت صحيحة، أراد في بئر ماء لا يحير عليه شيئاً. الجوهري: حار يحور حورا وحؤورا رجع. وفي الحديث:

من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه: أي رجع إليه ما نسب إليه؛ ومنه حديث أمنا عائشة رضي الله عنها: فغسلتها ثم أجففتها ثم أحرقتها إليه؛ ومنه حديث بعض السلف: لو عيرت رجلاً بالرضع لخشيت أن يحور بي داؤه: أي يكون علي مرجعه. وكل شيء تغير من حال إلى حال، فقد حار يحور حورا؛

قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وحارت الغصة تحور: انحدرت كأنها رجعت من موضعها، وأحارها صاحبها؛

قال جرير: ونبتت غسان ابن واهصة الخصى ... يلجلج مني مضغة لا يحيرها.

وَأَنشُدِ الْأَزْهَرِي:

وتلك لعمرى غصة لا أحيـرها¹.

ومن معانيه أيضاً:

●مراجعة الكلام:

قال الزمخشري في هذا المعنى: "حاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار، وكلمته فما رد عليّ محورة، وما أحرار جواباً أي ما رجع. قال الأخطل: هلا ربت فتسأل الأطلالا ... ولقد سألت فما أحرن سؤالاً"². ولفظ المحاورة كان مستعملاً عند عرب الجاهلية بمعناه المعروف اليوم، وقد ورد في معلقة عنتره قوله عن فرسه:

فازورّ من وقع القنا بلبّانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمّم

لو كان يدري ما المحاورَةُ اشتكى ولكن لو علم الكلامَ مكلميّ³

والمعنى المشترك بين هذه المعاني اللغوية هو المراجعة بين شيئين، سواء كان بين حالتين مختلفتين أو لشيء بين طرفين.

أما تعريفه من حيث الاصطلاح فنورد:

أن الأصل اللغوي وقسماً من استعمالات المادة اللغوية يدلان على أن معنى الحوار أن هناك أقوالاً تدور بين طرفين، ولا بدّ لها أن تبدأ من طرف فتنتقل إلى طرف آخر، ثم تحور - ترجع - إلى الأول، وهكذا تقع المحاورة والتحاور.

¹ محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، م.4، دار صادر، ط. 1، بيروت، د.ت، ص: 217.

² محمود بن عمر الزمخشري جار الله أبو القاسم، أساس البلاغة، م.1، دار الكتب العلمية، ط.1، 1419هـ/1998، ص: 221.

³ ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مادة حور.

والمعنى الذي يدخل ضمن المفهوم الاصطلاحي من المعاني المتقدمة هو: الحوار والمحاورة والتحاور بمعنى المرادة في الكلام، وهو يدل - في الأصل - على وجود طرفين - فردين أو أكثر - في مواجهة، يريد كل منهما إثبات رؤيته أو وجهة نظره حقاً كانت أم باطلاً، هذا الأصل في الحوار، ولكن المصطلح يتسع ليشمل أشياء كثيرة غير هذا، فليس بالضرورة في الحوار أن يكون بين طرفين متعارضين، إنما قد يكون بين أطراف متحدة أو متقاربة في المنهج والرؤية، وذلك لحل قضية أو مسألة أو تعلّم أو استخبار.. إلخ، وهذا كله يعود إلى المحاورة والمرادة في الكلام¹.

المطلب الثاني: تمييز الحوار عن مصطلحات مشابهة.

لقد سمحت طبيعة الإسلام المنفتحة على الآخر بظهور فن يعنى بالجدال، فصار علما قائما بذاته له قواعده وأصوله الخاصة به، وله رجاله ومختصون فيه، شأنه شأن باقي العلوم من فقه وأصول وتفسير وغير ذلك. كما أن طبيعة الشريعة التي شرعت أبواب الإجتهد ساهمت بظهور مدارس مختلفة داخل الحقل الإسلامي، اختلفوا اختلافا كثيرا في الفروع نظرا لاختلافهم في قواعد الترجيح عند تعارض النصوص تعارضا ظاهرا أو خافيا، وبسبب اختلافهم أيضا في ترتيب الأدلة والعلاقة بينها وغير ذلك مما هو مبسوط في كتبهم ومؤلفاتهم.

وقد عرف علماء المسلمين هذا الفن بالمناظرة وتوطدت قواعده وأصوله بعد ظهور المذاهب الفقهية الأربعة التي سعى أصحابها إلى إظهار صحة آرائه واجتهاداته، كما وفرت التعددية التي كانت في بلاد المسلمين مناخا لتطور فن الحوار والمناظرة خصوصا بين أتباع الديانات المختلفة، فكان من علماء المسلمين من عرف بقوة في الجدل والمناظرة، حتى أصبح ذلك مما يحلي به أهل التراجع لمثل هذه القامات.

¹ السيد علي خضر، الحوار في السيرة النبوية، منشورات المركز العالمي للتعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم، د.ط،

وإذا كان موضوعنا في هذا البحث هو الحوار، فثمة مصطلحات لصيقة به لا تكاد تنفك عنه، وأولها المناظرة التي تبوّأت في تراث العلوم مكانة مرموقة، إذ فيها تتجلى قواعد الحوار بآدابه وأصوله

1-الفرق بين الحوار والمناظرة:

- المناظرة لغة :

"التناظر : هو التواضع في الأمر ، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره ، وناظره من المناظرة، والنظير المثل ، وفلان نظيرك ، أي مثلك والمناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتياه"¹.

- المناظرة اصطلاحاً:

عرفها الجرجاني رحمه الله بقوله : "هي النظر بالبصيرة من الجانبين ، في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب"².

ويرى الأملعي أن المناظرة "هي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله و إبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق"³.

وعرفها الميداني بقوله : "هي المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه، تخالف وجهة نظر الفريق الآخر فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره"⁴.

¹ ابن منظور، لسان العرب، م.5، ص: 215.

² الجرجاني، معجم التعريفات، ص: 232.

³ زاهر عوض الأملعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، دار المكتبة، ط.1، 1399هـ، ص 25.

⁴ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، د ط ، 1414 هـ. 1993 م، ص: 371.

فالمقصود إذا من المناظرة هو الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت أنظار المتناقشين فيه¹.

وهكذا يتبين أن المناظرة محاورة من أجل الوصول إلى الصواب ، ولهذا كان الاشتراط فيها التقارب بين المتناظرين في العلم والفهم.

إذن هناك توافق بين الحوار والمناظرة إذ أن المناظرة نوع من أنواع الحوار، فالمناظرة مشتقة في أصل اللغة من النظر أو من النظر ولكن عند الرجوع إلى تعريف المناظرة يتضح أنها تعتمد على الدقة العلمية، والشروط المنطقية، أكثر من اعتماد الحوار على ذلك².

فالحوار اذا هو ذلك العلم الذي يبحث عن أحوال المتخاصمين، يكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما .ولذلك يمكن القول إن الحوار غير المناظرة، التي تقوم على وجود التضاد بين المتناظرين، للاستدلال على إثبات أمر يتخاصمان فيه نفياً أو إيجاباً بغية الوصول إلى الصواب³.

2- الفرق بين الحوار والجدال:

- الجدل لغة:

"يقال جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته ، ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام وجادله أي خاصمه"⁴

¹ محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، ط.1، 1934م، ص: 5.

² بسام داود عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة، ط.1، 1418هـ، ص: 105.

³ المرجع نفسه، ص: 21.

⁴ لسان العرب، م.11، ص: 105.

فأصل كلمة الجدال: من الجدل، وهو شدة الفتك، فالجديل الزمام، والمجدول من آدم ، إذا الجدل في اللغة تدل على القوة والشدة ويقصد بالجدل شدة الخصومة. والجدال من الإبل الذي قوي ومشى مع أمه، والأجدل الصقر ورجل جدل إذا كان قوي الخصام¹.

عرف الجرجاني الجدال بأنه: "عبارة عن مرء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"².

- الجدال اصطلاحاً:

يرى الجرجاني أن الجدال في الاصطلاح هو "دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة"³.

وقال الراغب: "الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله"⁴.

وقال أبو حامد الغزالي: "وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقّصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه"⁵.

وقال حاجي خليفة في تعريفه: "هو علم باحث عن الطرق التي يُقتدر بها على إبرام ونقض، وهو من فروع علم النظر، ومبني لعلم الخلاف مأخوذ من الجدال الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنه خصّ بالعلوم الدينية"⁶.

¹ لسان العرب، م. 11، ص: 103.

² التعريفات للجرجاني، ص: 75.

³ المرجع السابق، ص: 74.

⁴ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: 1 - 1412 هـ ص: 89.

⁵ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، م. 3، مكتبة الإيمان بالمنصورة، 1417 هـ - 1996 م، ص: 168.

⁶ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، م. 1، المكتبة الفيصلية، د. ط، مكة المكرمة د. ت، ص: 579.

وقال في تعريف آخر: "عبارة عن مرأ يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"¹، "والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال"².

وقد يكون الجدل بالحسنى حيث قال تعالى "وَجَدِلْهُمْ بِالتَّيِّهِ أَحْسَنَ"³ وقد يكون بالباطل، قال تعالى: "وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ"⁴، ولذلك قسم العلماء الجدل إلى ممدوح ومذموم، وذلك بحسب الغاية منه ، وبحسب أسلوبه، وما يؤدي إليه، "فالجدل الممدوح هو الذي يهدف إلى إحقاق الحق ونصرتة ، ويكون بأسلوب صحيح مناسب، ويؤدي إلى خير، أما الجدل المذموم فهو الذي لا يهدف إلى ذلك ولم يسلم أسلوبه، ولا يؤدي إلى خير"⁵.

فالجدل إذا في الاصطلاح هو حوار كلامي يعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه، واستمسكه بوجهة نظره، ويتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته أو من خلال الأدلة التي ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه⁶.

والجدل الاصطلاحي: هو دفع خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة⁷. أما المجادلة: في اصطلاح المناطقة هي المنازعة، لا لإظهار الحق بل لإلزام الخصم⁸.

¹ المرجع نفسه، ص 75.

² محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، ص: 5.

³ سورة النحل، الآية: 125.

⁴ سورة غافر، الآية: 5.

⁵ محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط.3، بيروت، 1995م، ص: 264.

⁶ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ص: 371.

⁷ التعريفات، ص: 106.

⁸ يحيى الزمزمي، الحوار آدابه وضوابطه، دار التراث والتربية، ط 1، 1441هـ، ص: 23.

فالحوار والجدال يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين لكنهما يفترقا بعد ذلك. أما الجدال فهو على الأغلب الرد في الخصومة وما يتصل بذلك، ولكن في إطار التخاصم في الكلام، فالجدال والمجادلة والجدل، كل ذلك ينحو منحى الخصومة ولو بمعنى العناد والتمسك بالرأي والتعصب له¹.

وفي القرآن ما يدل على هذا الفرق، فقد ورد لفظ الجدل في القرآن الكريم تسعة وعشرين مرة كلها في سياق الذم، إلا في ثلاثة مواضع وهي:

- قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بَالِغِ هَيْأَتِهِ أَحْسَنَ"².

- وقوله تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ هِيَ أَحْسَنُ"³.

- وقوله تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا"⁴.

"فالجدل لم يؤمر به ولم يمدح في القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما قيد بالحسنى كما في قوله تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ هِيَ أَحْسَنُ"، وقوله عز وجل: "وَجَادِلْهُمْ بَالِغِ هَيْأَتِهِ أَحْسَنُ"⁵.

فثمة إذا قواسم مشتركة وفروق ظاهرة بين التحوار والجدال، فالتحوار مراجعة الكلام بين طرفين أو أطراف للوصول إلى الحقيقة أو التعلم أو التذكير.. إلخ، دون إشعار بخصومة، أما

¹ الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار، ط.4، 1416 هـ، ص:14.

² سورة النحل، الآية: 125.

³ سورة العنكبوت، الآية: 46.

⁴ سورة المجادلة، الآية: 1.

⁵ خالد القاسم، الحوار مع أهل الكتاب، دار المسلم، د.ط، 1414 هـ، ص: 105.

الجدال فهو مشعر بالخصومة غالباً لارتباطه بمعاني الشدة والقوة، وهي إذا دخلت الحوار حولته إلى جدال أو حجاج أو مرء، وبذلك فالحوار أعظم من الجدل. وقد استعمل القرآن المصطلحين في الآية الأولى من سورة المجادلة، فكان حديث المرأة مع النبي صلى الله عليه وسلم بشأن زوجها "جدالاً" لأنها أشعرت بخصومة بينها وبين زوجها، ولكن لم تكن لها خصومة مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان ما بينهما تحاوراً لا مجادلة¹.

- أنواع الجدال:

يمكن تقسيم الجدال في القرآن الكريم حسب أهدافه وأخلاقه إلى نوعين:

- الجدال المحمود:

وهو الجدال الواقع من المؤمنين لأغراض متنوعة، وهو جدال لا يراد منه إبطال الحق أو مدافعته كما هو الحال مع الكفار المجادلين، ولكنه جدال يتخذ صوراً أخرى متنوعة، ونكتفي بمثال واحد من قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة يبشرونه بسلام عليم، ويخبرونه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط.. فتأخذه الرحمة والرفقة اللتين عُرف بهما عليه الصلاة والسلام في تاريخه الطويل، إن إبراهيم الحليم الأواه المنيب يريد من ربه أن يُنظر قوم لوط نظرة لعلمهم يؤمنون، ولكن الله تعالى أعلى وأعلم، ولهذا منع صفيه وخليله من الخوض في المسألة، فالأمر قد قضي " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٤﴾ يَتْلُو آيَاتِهِمْ فَأَخْرَجَهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتٍ مِنْ حِينِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ " ².

¹ السيد علي خضر، الحوار في السيرة النبوية، ص: 26.

² سورة هود، الآية: 73-74-75.

- الجدل المذموم:

وهو الغالب على استعمال الجدل والجدال في القرآن أن يكون في أمر مكروه؛ لأن فيه مغالبة الحق بالباطل، ولهذا يُسند الفعل في هذه الأحوال إلى الكفار، ومنه:

"وَيَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ"¹. "مَا يُجْدِلُ
وَجَاءَ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا"².

قال الزمخشري: "المراد: الجدل بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله... أما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها وردّ أهل الزيغ بها وعنهما فأعظم جهاد في سبيل الله"³.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا اللون من الجدل كما في الحديث عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ
فَوْمٌ خَصِمُونَ"⁴ "5".

3- الفرق بين الحوار والمناقشة :

النقش في اللغة معناه : المحاسبة والاستقصاء ومنه الحديث: "من نوقش الحساب هلك" ومعناه أيضا النقش والنزع. وقد جاء في الحديث: "إذا شيك فلا انتقش" أي فلا

¹ سورة الكهف، الآية: 56.

² سورة غافر، الآية: 4.

³ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع د. ت.

⁴ سورة الزخرف، الآية: 58.

⁵ رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزخرف. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

نزعت منه أما معنى المناقشة في الاصطلاح : هي نوع من التحوار بين شخصين أو طرفين ولكنها تقوم على أساس استقصاء الحساب وتعرية الأخطاء وإحصائها، ويكون هذا الاستقصاء في العادة لمصلحة أحد الطرفين فقط، الذي يستقصي محصيا على الطرف الآخر.

المطلب الثالث: مفهوم المنهج لغة واصطلاحاً.

- المنهج في اللغة:

بنتبع المفهوم اللغوي للمنهج تاريخياً، نجد أنّ ما سطره الأولون ظل يتكرر في كتابات اللاحقين مع توضيحاتٍ قليلة. فابن فارس قرّر أنّ النون والهاء والجيم أصلان متباينان:

- الأول: النهج، الطّريق. ونَهَجَ لي الأمر: أَوْضَحَهُ. وهو مُسْتَقِيمُ الْمُنْهَاجِ. والمنْهَجُ: الطريق أيضاً، والجمع المناهج.

- والآخر: الانقطاع¹.

ولعل ما يهمنا في بحثنا هو الأصل الأول، أي الطريق.

وعند ابن منظور نقراً: طريقٌ نَهَجٌ: بَيَّنَّ واضِحٌ. وَمَنْهَجُ الطريق: وَضَحُهُ. والمنْهَاجُ: كَالْمَنْهَجِ².

يُضِيفُ ابن منظور، إذن، فيقول بأن المنهج هو طريقٌ بَيَّنَّ واضِحٌ.

وجاء الفيروز آبادي ليكرر المعاني نفسها التي جاء بها ابن منظور، حيث قال: "النهج: الطريق الواضح، كالمَنْهَجِ والمنْهَاجِ... وأنْهَجَ: وَضَحَ وَأَوْضَحَ... والطريق: سلكه. واستنهج الطريق: صار نَهْجاً..."¹

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1979م، (نهج)، ج 5، ص 361.

² ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 383.

وفي المعاجم الحديثة نجد الأمر نفسه، فنقرأ، مثلاً، عند بعضهم: "نَهَج" الطريق نَهَجاً ونَهْجاً: وضح واستبان. ويقال: نَهَج أمره. ونَهَج الطريق: بينه، وسلكه. و"المنهاج": الطريق الواضح.²

نخلصُ إلى أن المنهج في اللغة هو ذلك الطريق البين الواضح، الذي يسلكه السالك فلا يتيه. وأنَّ المنهج والمنهج والمنهاج، كلها تأتي بالمعنى ذاته.

- المنهج في الاصطلاح:

ليس من اليسير الظفرُ بتعريفٍ اصطلاحِيٍّ للمنهج عند المتقدمين من علماء المسلمين، ذلك أنَّ معظمهم استعمل مفهوم المنهاج الوارد في قوله تعالى: "ولكل جعلنا منكم شِرةً ومنهاجاً"³. وهم يستعملون المنهج والمنهاج بالمعنى نفسه، إذ لا تنافي بين التعريف العام للفظ المنهج ولفظ المنهاج. نقرأ عند الكفوي: المنهاج: الطريقُ الواضح، وعن ابن عباس: "الشِّرْعَةُ ما ورد به القرآن، والمنهاج ما ورد به السنة"⁴. والنهج: هو في الاستعمال: الوجه الواضح الذي جرى عليه الاستعمال.⁵

فمفهوم المنهج في الشرع غير بعيدٍ عن معناه في اللغة، أي الطريق الواضح البين، مع إضافةٍ معتبرة؛ وهي تخصيص ذلك الطريق بالطريق الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، ط 8، بيروت، 1426هـ / 2005م، (النَّهَجُ)، ص: 208.

² مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 1425هـ / 2004م، (نَهَجَ)، ص: 957.

³ سورة المائدة: الآية: 48.

⁴ أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في اصطلاحات الفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1419هـ / 1998م، (المنهاج)، ص: 523.

⁵ المصدر نفسه، ص: 913.

وقد استعارت العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية في القرنين الأخيرين مفهوم المنهج، وأعطاه كل تخصص من تخصصاتها حمولة تتوافق مع خصوصية ذلك التخصص، وهكذا صرنا نجد المنهج العلمي التجريبي؛ المبني على الملاحظة والفرضيات والتحقق بالتجارب العلمية... والمنهج الفلسفي؛ الذي يُحيل على جملة قوانين توصل الفيلسوف إلى الحقيقة. ومن المناهج الكثيرة المعتمدة في العلوم الإنسانية، نذكر المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستنباطي، والمنهج التاريخي، والمنهج المقارن...

المبحث الثاني: الأسس الروحية للحوار النبوي.

لقد سيج الإسلام الحوار بمنظومة أخلاق روحية قلبية تحفظه من العبث وتسيجه عن كل ما من شأنه تحريفه عن رسالته النبيلة في التواصل العاطفي بين الناس والتعارف بينهم والالتقاء فيما هو مشترك بينهم، ولم تكن الحوارات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة سوى صورة ناصعة لهذا المنهج القويم الذي شرعه الله تعالى للناس. حتى تنبني العلاقة على أسس روحية عملا بالحديث الشريف: "الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر فيها اختلف"¹ حتى يبقى للتواصل البناء مجال، يؤسّس للاحترام المتبادل بين مختلف الأجناس على اختلاف دياناتهم وثقافتهم وعاداتهم.

ومن هذه الصفات الروحية القلبية التي يجب على المحاور التحلي بها:

المطلب الأول: الإخلاص وصدق النية.

لا بد من توفر حسن النية وسلامة القصد والإخلاص لله تعالى في الحوار، وأن يكون الحوار بنية تبليغ رسالة الله تعالى وهداية الناس لخالقهم وكشف الحجب عن أبصارهم لتظهر لهم الحقيقة كاملة دون غبش، ولا ينبغي أن يكون في ذلك حظ للنفس فتسعى للانتصار على

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجنّدة.

الطرف الآخر للتلذذ بالظهور عليه، فما كان ذلك سبيل الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم ولا المصلحين الصادقين مع ربهم، بل كانوا يرجون بذلك الأجر والثوبة والتقرب من ربهم عز وجل. وليس هذا بمطلب سهل المنال، فكم مجادل بدعوى نصرته الدين وليس له من دعواه شيء، وإنما انقياد للنفس وتأليه لها على حساب المخالفين.

ومسألة النية مسألة فقلية تحتاج إلى تدريب دائم واستحضار مراقبة الله تعالى في كل الأحوال، ولذلك كان المحدثون رحمهم الله تعالى يفتتحون مصنفاتهم بحديث "إنما الأعمال بالنيات" كما صنع البخاري في صحيحه فيما رواه سيدنا عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دينا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"¹.

قال ابن بطال: "وإنما قدم البخاري، رحمه الله، حديث إنما الأعمال بالنيات في أول كتابه، ليعلم أنه قصد في تأليفه وجه الله عز وجل، ففائدة هذا المعنى، أن يكون تنبيهًا لكل من قرأ كتابه، أن يقصد به وجه الله تعالى كما قصده البخاري في تأليفه وجعل هذا الحديث في أول كتابه عوضًا من الخطبة التي يبدأ بها المؤلفون، ولقد أحسن العوض من عوض من كلامه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ما ينطق عن الهوى. وقال جماعة من العلماء: إن هذا الحديث ثلث الإسلام، وبه خطب النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى دار الهجرة وشهر الإسلام. وقال أبو عبد الله بن الفخار: إنما ذكر هذا الحديث في هذا الباب، لأنه متعلق بالآية التي في الترجمة، والمعنى الجامع بينهما أن الله، عز وجل، أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإلى الأنبياء قبله أن الأعمال بالنيات، والحجة لذلك قول الله، عز وجل: "وَمَا أُمِرُوا"

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ
وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ^{1 2}.

وهذا كلام الله تعالى يبين لنا كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاور قومه،
دون أن يبالي بتكذيبهم ولا استعلائهم، لأنه لم يكن يقصد إلا وجه الله تعالى قال سبحانه: "
فَلِإِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَكَبَّرُوا مَا
بَصَحِّبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ "³. يقول
الطبري: "يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لقومك المكذبين، الرادين عليك ما أتيتهم به من عند
ربك: ما أسألكم من جُعِلَ على إنذاركم عذاب الله، وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري
إياكم بالإيمان بالله، والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجة لي به. وإنما معنى الكلام: قل لهم: إني لم
أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني، وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى اتباعي لما آخذه منكم. وقوله
"إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ" يقول: ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته، وتبليغكم
رسالته، إلا على الله "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" يقول: والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد
يشهد لي به، وعلى غير ذلك من الأشياء كلها"⁴.

¹ سورة البينة، الآية: 5.

² ابن بطال شرح صحيح البخاري، ج. 1، تحقيق: أبو تيمم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ط. 2، الرياض، 1423هـ،
ص: 32.

³ سورة سبأ، الآية: 46-47.

⁴ الإمام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف - عصام فارس الحرساني، م. 6، مؤسسة
الرسالة، ط. 1، 1415هـ/1993م، ص: 419.

المطلب الثاني: الكلمة الطيبة والقول الحسن.

الكلام صفة المتكلم، وبمقدار ما يكون الكلام محتوياً على شروطه الموضوعية والأخلاقية، بمقدار ما يبلغ هدفه، وينجح صاحبه في التأثير في الآخرين. فالكلام نظام لغوي مكتسب، وكلّما كان الشخص أكثر مهارة في استخدامه، كلّما كان أكثر فاعلية في حوارهِ مع الآخرين.

إنّ أول أهداف الحوار هو الإفصاح والإبانة عن فكرة ما، بأفضل أسلوب ممكن، ولذلك ينبغي مراعاة ما يأتي¹:

- مناسبة الكلام لطبيعة الموقف أو الموضوع.
- مراعاة المستوى المعرفي للمتلقى، فليس من المناسب أن يتحدث عالم لجاهل بكلام فوق مستواه.
- الإفصاح عن الأفكار بأسلوب غير ممل.
- استشعار الثقة بالنفس وامتلاك الشجاعة الأدبية في التعبير.
- الإيجاز من غير إخلال بالمعنى، لأن التكرار يذهب برونق الكلام ويدعو إلى الملل والعزوف عن الاستماع.
- ومن هنا فقد حرص القرآن الكريم على الطريقة التي يجري بها الحوار، وكان كثيراً ما يُوجّه نحو الكلمة الطيبة والقول الحسن. قال تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦١﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٦٣﴾

¹ راشد علي عيسى، مهارات الإتصال، وزارة الشؤون والأوقاف الإسلامية، د.ط، الدوحة، 2004، ص: 97-98.

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ¹.

فالكلمة الطيبة نفحة روحانية تصل ما بين القلوب وتربطها برباط المودة والتآلف. أما
الكلمة الخبيثة فهي معول للهدم والتفريق، يعمل تخريباً في أوصال المجتمع فيهدّد كيانه. والكلمة
الطيبة تزهر في النفس لتتفتّح بأجمل أزهار الخير والحب التي يعبق شذاها فوّاحاً في كلّ زمان
ومكان. والكلمة الخبيثة نتنة الرائحة، تصدر عن بُؤر نفسية عفنة².

وقال تعالى: "وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ
بَيْنَهُمْ"³. وقال: "قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"⁴.

قال ابن كثير: "يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أن يأمر عباد الله
المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم، الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا
ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعل، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو
آدم وذريته، من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بيّنة"⁵.

وعليه فإن الآية تشير إلى مبدأ مهم في أدب الحوار، لتكوين العلاقات الطيبة مع
الآخرين، بحيث تكون الكلمة الطيبة هي الأساس في بناء تلك العلاقات، وتكون عناوين إنسانية

¹ سورة إبراهيم: الآية: 25-29.

² غازي صبحي، آيات قرآنية: ومضات من القرآن الكريم، ج.2، دار الفكر، د.ط، دمشق، د.ت، ص: 99.

³ سورة الإسراء، الآية: 53.

⁴ سورة البقرة، الآية: 83.

⁵ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج.3، دار الفكر، د.ط، بيروت، 1401هـ، ص: 46.

في انفتاح الإنسان على الآخر، لأن القول الحسن في اللفظ والمعنى يفتح القلب، وينعش الروح، ويقوّي الروابط بين الناس¹.

والمتتبع للحوارات التي يزخر بها تراثنا يدرك الأدب الرائع بين المتحاورين في أدق قضايا الإسلام وأحكامه، ويطلع على النماذج المشرقة التي حوّاها ذلك التراث الفكري والمعرفي. ومن هذه النماذج الفاضلة، الحوار المكتوب الذي تم تبادلُه بين عالَمين جليلين من علماء الأئمة هما: إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإمام مصر وعالمها الكبير الليث بن سعد، فعلى الرغم مما اشتملت عليه تلك الرسالتان من عرض لمسائل وأحكام عديدة، فقد جاءت آية مشرقة من آيات الحوار الراقي الذي نحن بحاجة إلى مثله في هذه الأيام، وسنعرض لجزء من هذا الحوار.

يقول الإمام مالك: واعلم -رحمك الله- بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة لما عليه الناس عندنا وبلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك، حقيق بأن تخاف على نفسك .. فانظر رحمك الله فيما كتبتُ لك، واعلم أي أرجو أن لا يكون قد دعاني إلى ما كتبتُ به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك، فأنزل كتابي منزلته، فإنك تعلم أي لم آلك نصحاً.

ويجيب الإمام الليث على هذه الألفاظ الطيبة بمثلها قائلاً: قد أصبت بالذي كتبتُ به من ذلك، ووقع مني بالموقع الذي تحب .. ثم قال: وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا، وقد كنتُ كتبتُ إليك في بعضها فلم تجبني، فتخوفتُ أن تكون استثقلت ذلك فتركْتُ الكتاب إليك في شيء مما أنكرت ... ثم يبين الإمام الليث أنه ثابت على رأيه مخالف في ذلك رأي الإمام مالك في العديد من المسائل والآراء دون مجاملة أو مداراة على حساب الحق، ثم يختم كتابه بقوله: وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وإن نأت الديار فهذه

¹ محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ج. 2، دار الملاك، ط. 2، بيروت، 1419هـ/1998م، ص: 114-115.

منزلتك عندي ورأيك فيه فاستيقنه، ولا تترك الكتابة إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أسرُّ بذلك¹.

المطلب الثالث: الحلم والصبر.

إن الحلم والصبر من أولى الأخلاق التي يجب على المتحاورين الإتصاف بهما، خصوصا إذا كان الطرفان مختلفين ويتبنيان أفكارا متناقضة، وقد ضرب الرسول عليه السلام أنصع مثال في خلقه مع عامة الناس، فكان معروفا بحلمه على الخلق، وصبره على أذاهم وتحمله لجفائهم وقسوتهم.

وقد حث الله تعالى على خلق الصبر ونوه به في أكثر من موضع، قال جل في علاه:
"وَلَمْ يَصْبِرْ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"²

قال ابن عاشور رحمه الله: "وهذه الجملة تفيد بيان مزية المؤمنين الذي تحملوا الأذى من المشركين وصبروا عليه ولم يؤاخذوا به من آمن ممن آذوهم مثل أخت عمر بن الخطاب قبل إسلامه، ومثل صهره سعيد بن زيد فقد قال "لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر"، فكان في صبر سعيد خير دخل به عمر في الإسلام، ومزية المؤمنين الذين يصبرون على ظلم إخوانهم ويغفرون لهم فلا ينتصفون منهم ولا يستعدون عليهم على نحو ما تقدم في مسألة التحلل عند قوله تعالى: فمن عفا وأصلح فأجره على الله"³.

¹ ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج.3، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، د.ط، بيروت، 1973م، ص: 83-88.

² سورة الشورى، الآية: 40.

³ الإمام الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج. 25، سورة الإسراء، الدار التونسية للنشر، د.ط، تونس، 1984، ص: 122.

هكذا كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا تربى على يديه صحابته رضي الله عنهم، فكم واحد أؤذي قبل الهجرة وقبل ظهور الإسلام فلم فآمن من كان يؤذيه، فما حملوا ضغينة ولا نقبوا في الماضي، فقد جب الإيمان ما قبله، ونسخ الإسلام ما صدر من قبله، وهنا تتجلى قوة الشخصية المسلمة وإخلاصها الصادق في غياب حظوظ النفس والانتقام لأجلها.

وقد ضرب الرسول عليه السلام خير مثال في صبره على أذى المشركين: فمن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينما النبي صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور، فقفذه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع"¹.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئاً"².

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حملاً عليه إكاف، تحته قطيفة فديكة، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والمواعدة، باب: طرح جيف المشركين في البحر.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداها الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه.

عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركون وعبداء الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال: فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء -يريد النبي صلى الله عليه وسلم- لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًا فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عباد، فقال: أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا؟ فقال سعد رضي الله عنه: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة أن يتوجوه فيعصّبوه بالعصابة -أي يجعلوه ملكًا عليهم- فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فلذلك فعل به ما رأيت، قال: فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم" ¹.

هذه الأحاديث كلها توضح بجلاء سببا من أسباب استقطاب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم للناس، ومكمن قوته، فلم يكن يفعل مع كل مستفز، بل كان قاصدا في رسالته صابرا في دعوته، لا تزيده السخرية والاستهزاء والتهم التي تكال له من جنون وسحر وافتراء إلا ثباتا وإصرارا على تبليغ دعوة ربه للناس أجمعين.

وقد لخص الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين طريقة الدعوة إلى الله تعالى، فأمر بالتيسير والتبشير ونهى عن التعسير والتنفير، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، رقم: 6254، مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين.

الله عليه وسلم: "يسرّوا ولا تعسرّوا، وبشّروا ولا تنفّروا"¹.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى:

"لما كانت النذارة وهي الإخبار بالشر في ابتداء التعليم توجب النفرة قوبلت البشارة بالتنفير والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حُب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانسباط وكانت عاقبته غالباً بالازدياد بخلاف ضده"².

المطلب الرابع: التواضع.

من أدب الحوار أن يتجنب المحاور الحديث عن نفسه، أو عن أولاده، أو عن أعماله وإنجازاته، لأن شرّ المتحدثين من أثر الحديث عن أحواله وأكثر الكلام عن نفسه، فإن فعل ذلك فإنه يفقد شرط الحوار الناجح. فالحديث الذي يكون مصحوباً بتزكية النفس ومدح الذات يترك انطباعاً سلبياً لدى السامع، يجعله ينفر منه ويزهد في الاستماع إليه. ومن هنا فقد نهى المولى عز وجل عن تزكية النفس؛ فقال: "فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّبِعُونَ"³. قال ابن كثير: "أي لا تمدحوها وتشكروها وتمنّوا بأعمالكم"⁴.

وهذا توجيهٌ للمؤمنين، فالله أعلم بحالهم؛ وهو المطلّع عليهم من أول خلقهم إلى آخر يومهم، فلا حاجة لتزكية النفس رياء وخيلاء، ولا يقولنّ الواحد للآخر: أنا خير منك، وأنا أذكى

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

² أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي - محب الدين الخطيب، دار الكتب السلفية، ط. 1: ج. 1، ص: 163.

³ سورة النجم: الآية: 31.

⁴ تفسير ابن كثير، ج. 4، ص: 258.

منك وأتقى، فإن الأمر لله. ولا يستطيع أحد أن يقطع بنجاته وخلاصه أيّاً كان، فإنه لا يعلم عاقبة الأمور إلا الله¹.

لذلك جاء القرآن الكريم في صيغة المتعجب من حال هؤلاء الذين يُزكّون أنفسهم ويمدحونها وكأنهم ضمنوا رضا الله، وأمنوا مكره، واطمأنوا وأخذوا المواثيق من الله تعالى على أن يدخلهم الجنة. قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ لِلَّهِ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا"². وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن تفضيل النفس على الغير والتفاخر على الآخرين. فقال: "إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا ينبغي أحدٌ على أحد"³.

والإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وينزله منزلة الجاهل الذي ينبغي أن يتعلّم من محدّثه، ويكره من يكون نصف حديثه ذكراً لأمجاده وتعالياً على الآخرين. ومدح النفس غالباً ما يكون نتيجةً للشعور بنقص في الشخصية، وحباً في الظهور والتميز، فإن الذي يثق بقدراته وكفاءته لا يحتاج أن يعلن ذلك على رؤوس الأشهاد. لذا فليس من الأدب أن يُثقل المتحدث على سامعيه بذكر بطولاته وأمجاده.

وقد جاءت أحاديث مختلفة تحت عن التواضع وتحذر من التكبر منها:

- عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا ينبغي أحد على أحد"⁴.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 1401هـ- 1981م، ج26، ص: 15.

² سورة النساء، الآية: 48.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ¹ " .

- عن أنس رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ² .

- عن الأسود بن يزيد قال: سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله يعني: خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة ³ .

- عن أبي رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب. فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتى بكرسي، فقعده عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتهم آخرها ⁴ .

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب: استحباب العفو والتواضع.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب: الاستئذان من أجل البصر.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج.

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب: حديث التعليم في الخطبة.

المبحث الثالث: الأسس السلوكية للحوار النبوي.

وسأتناول في هذا المبحث بعض قواعد وآداب الحوار وأبعادها السلوكية:

المطلب الأول: حسن الاستماع.

إن حسن الاستماع مما ينبغي أن يلتزم في أي حوار حتى ينجح، لأن عدم الإهتمام بالطرف الآخر وما يقوله كاف لهدم أي جسر للتواصل، والإسلام حث على هذا الخلق ورغب فيه، ومن الشواهد التي تأمرنا بحسن الإنصات قوله تعالى: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"¹. قال الرازي: والآية فيها مسائل، وذكر ضمنها:

المسألة الأولى: "الإنصات السكوت والاستماع، يقال: نصت، وأنصت، وانتصت، بمعنى واحد".

المسألة الثانية: "لا شك أن قوله: فاستمعوا له وأنصتوا أمره، وظاهر الأمر للوجوب، فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبا، وللناس فيه أقوال".

القول الأول: وهو قول الحسن وقول أهل الظاهر أنا نجري هذه الآية على عمومها ففي أي موضع قرأ الإنسان القرآن وجب على كل أحد استماعه والسكوت، فعلى هذا القول يجب الإنصات لعابري الطريق، ومعلمي الصبيان"². وقال ابن العربي في أحكام القرآن في تفسيرها: "روى الأئمة: مالك، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة "أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم معي آتفا؟ فقال رجل، نعم، يا رسول الله. فقال: إني أقول: ما لي أنزع القرآن؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله

¹ سورة الأعراف، الآية: 204.

² فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج. 15، ص: 439.

- صلى الله عليه وسلم - فيما جهر فيه رسول الله من الصلوات بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم".

وروى مسلم عن عمران بن حصين قال: "صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا صلاة الظهر أو العصر، فقال: وأيكم قرأ خلفي بسبح اسم ربك الأعلى؟ فقال رجل: أنا. فقال رسول الله: قد علمت أن بعضكم خالجيها".

وروى الترمذي وأبو داود عن عبادة بن الصامت قال: "صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح، فنقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: إني لا أراكم تقرأون وراء إمامكم. قال: قلنا: يا رسول الله؛ إي والله. قال: فلا تفعلوا إلا بأمر القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها"¹

وهذا رسول صلى الله عليه وسلم جاءه عتبة بن ربيعة يحدثه فجلس عليه السلام يستمع إليه بكل احترام، ومن حين لآخر يقول له ويناديه بكنيته: أفرغت يا أبا الوليد:

روى ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة -وكان سيذا- قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا ابن أخي؛ إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا

¹ رواه الترمذي في سننه، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في القراءة خلف الإمام.

الذي يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه. قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم "جَم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، فُرِئَ إِنَّا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ" ¹ ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها؛ فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ².

وهذه القصة كلها دروس في أدب الحوار، نكتفي منها بالذي نحن بصدده، فالرسول عليه السلام لم يحسن الإنصات ويترك المقاطعة فحسب، بل منحه فرصة أخرى لإضافة أي شيء ربما نسيه، أو غفل عنه: "أَوَقَدْ فرغت يا أبا الوليد؟" وهذا خلق رفيع، وأدب جم، يستدعي

¹ سورة فصلت، الآية: 1-4.

² ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، ج1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط.2، 1375هـ، دار الكتاب العربي، ط.3، 1410 هـ، 1990م، ج1، ص: 293.

حُسن إصغاء من الطرف الآخر. ومن حُسن الاستماع أنه إذا كان السامع عالماً بكلام المتحدث، فإنه ليس من الأدب مقاطعته ومداخلته فيه، بغرض الإظهار للآخرين معرفة هذا الحديث والعلم به. قال عطاء بن أبي رباح: إِنَّ الشاب ليحدثني بحديث، فأستمع له كأني لم أسمع، ولقد سمعته قبل أن يولد¹.

وأنشد الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تُشارك في الحديث أهله وإن عرفتَ فرعه وأصله²

ومن حُسن الأدب أيضاً، أنه إذا أشكل على المستمع شيء من كلام محدّثه، فإن عليه أن يصبر حتى الانتهاء من الحديث، ثم يستفهم منه بأدب ولطف وتمهيدٍ حَسَنٍ للاستفهام، ولا يقطع عليه كلامه، فإنّ ذلك مخلٌّ بأدب الاستماع، إلا إذا كان المجلس مجلس دراسة وتعلُّم، فإن له حينئذٍ شأناً آخر، ويحسن فيه السؤال والمناقشة عند تمام الجملة أو المعنى الذي يشرحه المعلِّم، وينبغي أن تكون المناقشة فيه بأدب وكياسة³.

وعلى خلاف هذا الخلق العظيم الذي جاء به الإسلام، فقد كان المشركون لا يتحملون سماع القرآن الكريم ولا حديث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا كما وصفهم القرآن: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ"⁴. قال الزمخشري في تفسيره: قرئ: والغوا فيه، بفتح الغين وضمها. يقال: لغى يلغى، ولغا يلغو. واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا ورفث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا

¹ ابن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عمر القيام، ج2، مؤسسة الرسالة، ط3، 1419هـ/1999م، ص: 118.

² المرجع السابق، ج2، ص: 119.

³ أبو غدة عبد الفتاح، من أدب الإسلام، دار البشائر الإسلامية، ط2، بيروت: لبنان، 1413هـ، ص: 65.

⁴ سورة فصلت، الآية: 26.

له إذا قرئ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهلديان وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضاً¹.

وفي قصة نوح مع قومه قال عليه الصلاة والسلام: "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ"². قال الطبري رحمه الله: يقول جلّ وعزّ: وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحداانيتك، والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك، لتغفر لهم إذا هم فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم إلى ذلك "وَأَسْتَعْشُوا نِيَابَهُمْ" يقول: وتغشوا في ثيابهم، وتغطوا بها لئلا يسمعوا دعائي³

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على استنصات الناس قبل أن يخاطبهم،

فالكلام لغة التواصل بين المتحاورين، وحتى يكون له أثرٌ مفيد ودور في التربية والتعليم والتدريب، لا بدّ من توقّر بعض المهارات والمواصفات في قائله ؛ حتى يبعث على التأثير في النفوس، ويجذب الألباب نحو محتواه. ولذلك تظهر أهمية الإنصات والإصغاء للكلام؛ حتى يصفو ذهن المستمع ليدرك مغزاه ويفهم معناه. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطبّق تلك المهارات في كلامه مع صحابته، فنجدّه يدعوهم أولاً للإنصات والإصغاء، وهو أول درجات الاستجابة والاستفادة والتغيير للأفضل، فعن جرير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع: "استنصت الناس، فقال : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"⁴.

قال ابن حجر العسقلاني شارحاً الحديث: " قال ابن بطال : فيه أنّ الإنصات للعلماء

¹ الكشف: ج3، ص: 452.

² سورة نوح، الآية: 7.

³ تفسير الطبري، ج23، ص: 631.

⁴ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء.

لازم للمتعلّمين؛ لأنّ العلماء ورثة الأنبياء ، كأنه أراد بهذا مناسبة الترجمة للحديث، وذلك أن الخطبة المذكورة كانت في حجة الوداع، والجمع كثير جداً، وكان اجتماعهم لرمي الجمار، وغير ذلك من أمور الحجّ ، وقد قال لهم: "لتأخذوا عني مناسككم"¹، فلما خطبهم ليعلّمهم ، ناسب أن يأمرهم بالإنصات، وقال النووي في شرح الحديث السابق: " قوله صلى الله عليه وسلم: " استَنْصِتِ النَّاسَ"، معناه: مُرِّهم بالإنصات؛ ليسمعوا هذه الأمور المهمة والقواعد التي سأقرّها لكم وأحمّلكموها"².

المطلب الثاني: احترام المحاور وكسب ودّه.

بغض النظر عن الاختلاف في الرأي والتباين في الفكرة، فإن أدب الحوار يقتضي احترام آدمية الإنسان وإنسانيته، ومن الأمور التي تحقق ذلك³:

- اهتمام المحاور بالطرف الآخر من خلال الانتباه لكلامه، وعدم اللجوء إلى تجاهله أو الشرود والانشغال عنه بشخص آخر أو بموضوع آخر؛
- تحاشي تحقير الطرف الآخر، أو اللجوء إلى النقد الشخصي فيما يخص سيرته الفردية أو العائلية؛
- فسح المجال أمام الطرف الآخر للدفاع عن وجهة نظره كاملة، والتعامل مع طروحاته بصدر رحب عن طريق إتاحة الوقت الكافي لعرضها وبيانها.
- وعلى المحاور أن يختار من الألفاظ ما هو محبّب لدى الطرف الآخر، وما يقع في نفسه موقع القبول والتأثير، كأن يناديه باسمه المحبب إليه، أو صفته التي يحبها. كأن يقول لابنه: "يا بني"، ولأبيه "يا أبت"، ولقومه "يا قوم"، ونحو ذلك.

¹ رواه الإمام مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: لتأخذوا مناسككم.

² ابن حجر، فتح الباري، ج3، ص: 217.

³ عبد الكريم الشихلي، أخلاقيات الحوار، دار الشروق، ط1، عمان: 1993م، ص: 69-70.

ويحدثنا القرآن الكريم عن خطاب موسى لفرعون، فيقول: "وَقَالَ مُوسَىٰ يٰهٰرَعُونَ إِنَّنِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعٰلَمِينَ"¹. وأوّل ما يلفت نظرنا في هذا الخطاب أنّ سيدنا موسى عليه السلام نادى فرعون بأحبّ الأسماء إليه، فقال: يا فرعون. وهو الاسم الذي يُشعر فرعون بالقوة والعظمة وعدم الانتقاص من مكانته، وفي ذلك مداراة له، ومراعاة لنفسيته.

ونرى هذا الأسلوب بعينه ماثلاً في منهج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان يخاطب الزعماء بمثل قوله: إلى هرقل عظيم الروم². وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان بالموسم بمنى، يعرض نفسه على القبائل، فجاء إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: "يا بني عبد الله، إنّ الله عز وجل قد أحسن اسم أيّكم"³، يريد أن يتلطف لهم بالكلام. وليس في ذلك تنازل عن المبادئ، ولكنه الأدب في الحوار، والذوق في التعامل مع الآخرين.

ولا بد أن يتسم الحوار بطابع الاعتماد على العقل وتطبيق المقدمات المنطقية السليمة، سواء ما يتعلق بتقديم الفكرة والتدليل عليها، أو ما يتعلق بقبول ما يطرحه الطرف الآخر ما دام أنه قد وصل إليها بالمنطق السليم والحجة القوية.

والحوار في القرآن الكريم يعتمد على العقل والمنطق، ولا يتأثر بأي عامل خارجي كالنبوة والوحي. ولا شك أن الحوار الذي يعتمد على الحجة الواضحة والدليل المنطقي القوي سيؤدي في النهاية إلى الحرية في التفكير، والتخلص من التعصب والانحياز.

وها هو سيدنا إبراهيم عليه السلام في حوار مع الله عز وجل، يقدم نفسه وكأنه متجرد من النبوة، بل من الإيمان: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي الْمَوْتَىٰ قَالَ

¹ سورة الأعراف، الآية: 104 - 105.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

³ ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص: 271.

أَوَلَمْ تُؤْمِسْ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِي لَّيَطْمَيْسَ فَلَيْسَ¹. فإبراهيم -عليه السلام- يريد هنا التحوار ضمن قواعد العقل والمنطق، ويرفض وجود أي مؤثر في الحوار غير العقل².

المطلب الثالث: العفو عن المخطئ.

إن الإنسان في الإسلام لا يتحول بخطيئته إلى شيطان يستحق اللعن والطرده كما يُعامل في كثير من الحضارات الأخرى، بل هو بشر خطاء تَوَّاب رجَّاع إلى ربه لا تنقطع صلته بربه مهما ارتكب من ذنوب، ولا يُطرد من رحمته إلا إذا مات على الكفر. وفيما يأتي موقفان للعفو - مما ليس فيه حدٌ شرعيٌّ - عن المخطئين من المسلمين، ومواقف العفو كثيرة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

1- حوار العفو عن حاطب بن أبي بلتعة:

كان حاطب بن أبي بلتعة من أهل بدر ذوي المكانة الكبيرة بين المسلمين، ولكنه وقع في خطأ كبير هدد أمن المسلمين وهم في طريقهم لفتح مكة المكرمة في العام الثامن للهجرة، حيث حاول إخبار قريش بتوجه المسلمين إليهم، والرجل بشرٌ ليس معصوماً من الخطأ، والأخطاء تقدّر بقدرها، جاء في الحديث عن علي رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه " من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله

¹ سورة البقرة، الآية: 260.

² عبد الستار الهيتي، الحوار: الذات والآخر، سلسلة كتاب الأمة، ع.99، وزارة الأوقاف، د.ط، الدوحة، 2004، ص58-59.

عليه وسلم: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش - يقول كنت حليفا - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق! فقال: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله قوله: " يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّكُمْ ءَوْلِيَاءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ؕ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ؕ إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْبَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنِ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ¹2". لقد أظهر الحوار عن مكنون نفس الرجل، ولو عوقب قبل ذلك لهلك، ولكنه أظهر في حوار النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة موقفه، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالصدق، ومع أنه خطأ جسيم غير متوقع من رجل في مثل هذه المكانة فإن الإسلام دين الرحمة والعفو، وللرجل سابقات في فعل الخير منها مشاركته في غزوة بدر، لهذا كله عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد أخطأ الرجل، وكان يستحق العقوبة، ولكن عفو النبي صلى الله عليه وسلم - بعد إذن الله عز وجل - كان درساً بليغاً لكل القادة.

¹ سورة الممتحنة، الآية: 1.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: غزوة الفتح.

2- حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع وحشي:

كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه مقاتلاً وفارساً شديداً البأس، وقتل عدداً من رجالات قريش يوم بدر، فدبرت له هند امرأة أبي سفيان مكيدة خبيثة، حيث وعدت عبداً حبشياً لها الحرية إن قتل حمزة، وكان وحشي هذا معروفاً بدقة التصويب بالحربة، فقصده لحمزة يوم أحد فقتله.. وحزن عليه النبي صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً.. ثم أسلم وحشي بعد ذلك، وها هو يقصُّ لقاءه بعد ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "بعد ذلك قدمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فلم يرعهُ إلا بي قائماً على رأسه أتشهدُ بشهادة الحق؛ فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: "اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، قال: فحدثته.. فلما فرغت من حديثي، قال: ويحك! غيَّب عني وجهك فلا أَرِيَنَّكَ"، قال: فكنت أتَنكَّبُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لئلا يرايني، حتى قبضه الله " (1)

وفي رواية للبخاري قال وحشي: "قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآني قال: أنت وحشي؟ قلت: نعم، قال: أنت قتلتَ حمزة؟ قلتُ: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: فهل تستطيعُ أن تغيبَ وجهك عني؟" (2).

لو كان وحشي هذا عند أحد غير النبي صلى الله عليه وسلم أكان لقي مثل تلك المعاملة الحسنة؟ لقد عفا عنه، وقبل منه إسلامه، ومن ذا يردّ رجلاً جاء مسلماً نادماً؟ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بشر من البشر، يفرح ويحزن ويغضب... لقد حزن لفقد عمه الفارس الشجاع، ولهذا لا يريد أن يرى قاتله يذهب ويجيء أمام عينيه يذكره بعمه وبجريمة هند حين مثلت به فشقت بطنه وأخذت قطعة من كبده فلاكتها بفمها ثم لفظتها!! وقد كشف الحوار عن خلق العفو الجميل من أخلاق النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

¹ سيرة ابن هشام، ج. 2، ص: 593.

² طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

لا يمكن لأي حوار أن ينجح ما لم يكن طرفاه يحتكمان إلى أسس علمية بعيدا عن العواطف التي في الغالب تضيع معها الحقائق، وقد حث الشرع الحنيف على التعلم ورفع مكانة العلم وأهله، وذلك لأن الرسائل لا يمكن أن يبلغها إلا الراسخون في العلم، فقد امتن الله تعالى على أنبيائه عليه السلام بما آتاهم من علم، من ذلك على التمثيل لا الحصر، قوله تعالى:

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"¹.

"فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْفُرْعَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَىٰ إِلَيْكَ وَخِيَهُ وَفَلِ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"².

"قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ"³.
وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن العلم وفضله.

أما الأحاديث فكثيرة أيضا نكتفي بما يلي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، أو علما، أو متعلما "⁴.

¹ سورة النحل، الآية: 43.

² سورة طه، الآية: 111.

³ سورة النمل، الآية: 41.

⁴ رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"¹.

قال ابن القيم - معلقاً على هذا الحديث -: شبه - صلى الله عليه وسلم - العلم والهدى الذي جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنافع والاغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فإنها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالأراضي التي قع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويركو وتظهر بركته وثمرته. ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده:

أحدها: أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلاً والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فإنه بمنزلة إنبات الكلاً والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية.

القسم الثاني: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقها في معانيه ولا استنباطاً ولا استخراجاً لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه وإعراجه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله كما قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه "إلا فهما يؤتیه الله عبداً في كتابه" والناس متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم: باب فضل من علم وعلم، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.

يفهم من النص حكما او حكمين ويفهم منه الآخر مائة او مائتين فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع، فهؤلاء القسمان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا ولا فهما ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء".

الفصل الثاني:

الخطاب القرآني مؤسس لمنهج الحوار النبوي.

المبحث الأول: الأساليب الحوارية في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مبادئ التوجيه القرآني للحوار النبوي.

المبحث الثالث: شواهد قرآنية للحوارات النبوية.

إن العودة إلى زمن بزوغ الرسالة المحمدية تحضر معها تلك اللحظات الفارقة بين مرحلتين: مرحلة الجاهلية التي عم فيها الجهل والتكابر والافتخار بالأنساب والأموال واستعباد الأغنياء للفقراء، ومرحلة أخرى تفتقت فيها شمس الهداية والعلم والأخوة والرحمة والمساواة بين الخلق.

وهي مرحلة أرادها الله تعالى أن تبدأ بحوار بين مبعوثه جبريل عليه السلام إلى رسوله الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ليعلم الناس أن هذا الدين دين حوار وأنه دين إقناع لا دين إكراه.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كان أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة؛ كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله: "فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم رجعت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة، فقلت: زملوني زملوني، حتى ذهب عني الروح، ثم أتاني فقال: يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله، قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتمثل إلي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغطني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" فقرأت، فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني، فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى صلى الله عليه وسلم، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك

قومك، قلت: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم ينجى رجل قط بما جئت به، إلا عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً¹.

المبحث الأول: الأساليب الحوارية في القرآن الكريم.

تعددت أساليب القرآن الكريم في الحوار حسب اختلاف الطرف المحاور، ويمكن تحديد هذه الأساليب فيما يلي:

المطلب الأول: أسلوب التحدي.

يقول محمد حسين فضل الله: "مع بداية الدعوة الإسلامية، وجه النبي صلى الله عليه وسلم موضوع الشرط بالله كمشكلة مطروحة في ساحة العمل، تمثلت في الأصنام الكثيرة التي يعبدونها الناس آنذاك عبادة متنوعة في طقوسها وتقاليدها وامتدادها في حياة الناس وفي وعيهم وفي تفكيرهم، حتى أصبحت قداستها في النفوس شيئاً يشبه الحقيقة المطلقة التي تصل إلى مستوى البديهيات الوجدانية التي يبادر الوجدان إلى رفض كل ما يخالفها ويعارضها دون مناقشة أو تأمل²."

ويضيف: "وقد صور لنا الله سبحانه وتعالى هذه الحالة النفسية التي واجه بها المشركون فكرة التوحيد في مقابل فكرة الشرك: "أَجْعَلْ أَلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿١﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ: أَنْ إِمُشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٢﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ" ³. فلم تكن القضية في

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ما ودعك ربك وما قلى.

² الشيخ محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن: قواعده أساليبه معطياته، دار الملاك للطباعة، ط: 2، بيروت، 1996م، ص: 96.

³ سورة ص، الآية: 4-5-6.

تفكيرهم أمرا يستوجب الرد والمناقشة، بل هي أمر يبعث على العجب ليس إلا، ولذا فإن الموقف يصيبهم بما يشبه الذعر المفاجئ الذي يقتضي منهم الصمود والصبر كرد فعل على ما لم يسمعوا به في الملة الآخرة ليقرروا بعد ذلك أنه مجرد اختلاق.¹

قال الرازي رحمه الله تعالى معقبا على هذه الآية، وكيف رد الله تعالى على تعجب المشركين من بعثة نبي فيهم لينذرهم بآياته:

المسألة الأولى: أن كفار قريش تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدا بالرسالة والوحي، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك التعجب. أما بيان كون الكفار تعجبوا من هذا التخصيص فمن وجوه: الأول: قوله تعالى: جعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد وإذا بلغوا في الجهالة إلى أن تعجبوا من كون الإله تعالى واحدا، لم يبعد أيضا أن يتعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدا بالوحي والرسالة! والثاني: أن أهل مكة كانوا يقولون: إن الله تعالى ما وجد رسولا إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! والثالث: أنهم "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْفُرْقَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ"²، وبالجملة فهذا التعجب يحتمل وجهين: أحدهما: أن يتعجبوا من أن يجعل الله بشرا رسولا، كما حكى عن الكفار أنهم قالوا: أبعث الله بشرا رسولا ، والثاني: أن لا يتعجبوا من ذلك بل يتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي والنبوة مع كونه فقيرا يتيما، فهذا بيان أن الكفار تعجبوا من ذلك. وأما بيان أن الله تعالى أنكر عليهم هذا التعجب فهو قوله في هذه الآية: أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم فإن قوله: أكان للناس عجا لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الإنكار، لأن يكون ذلك عجا وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه: الأول: أنه تعالى مالك الخلق وملك لهم والمالك والمملك هو الذي له الأمر والنهي

¹ الشيخ محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن: قواعده أساليبه معانيه، ص: 96.

² سورة الرُّحُوف، الآية: 31.

والإذن والمنع ولا بد من إيصال تلك التكليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد وإذا كان الأمر كذلك كان إرسال الرسول أمراً غير ممتنع، بل كان مجوزاً في العقول. الثاني: أنه تعالى خلق الخلق للاشتغال بالعبودية كما قال: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" وقال: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا"¹ 2.

أمام هذا الجحود والعناد سلك القرآن الكريم أسلوب التحدي، وهذا ما تعبر عنه آيات كثيرة منها قوله تعالى:

"فَلْأَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعْدُو الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا"³. قال الطبري رحمه الله تعالى: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "قل" يا محمد لمشركي قومك "أرأيتم" أيها القوم "شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض" يقول: "أروني أي شيء خلقوا من الأرض" أم لهم شرك في السماوات" يقول: أم لشركائكم شرك مع الله في السماوات إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئاً "أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه" يقول: أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه علي من السماء بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام، فهم على بينة منه، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراك بي"⁴.

¹ سورة الإنسان، الآية: 2

² فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج. 26، ص: 372.

³ سورة فاطر، الآية: 40.

⁴ أبي جعفر الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، ج. 20، ص: 480.

ومن ذلك أيضا ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام والحوار الذي جرى بينه وبين فرعون، حيث تجلّى فيه تحدي موسى لجبروت فرعون وطغيانه، وواجه بكل قوة وثقة في ربه.

قال جل وعلا:

"قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٤﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ ﴿٨﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ لَيْسَ إِتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرَ لَا جَعَلْنَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ¹.

¹ سورة الشعراء، الآية: 17 . 23.

قال سيد قطب رحمه الله:

"قال: ألم نريك فينا وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وفعلت فعلتك التي فعلت، وأنت من الكافرين" ..

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟

ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟! وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟! ويذكره بحادث مقتل القبطي في تحويل وتجسيم: "وفعلت فعلتك التي فعلت" .. فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها "وأنت من الكافرين" برب العالمين الذي تقول به اليوم، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين! وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلا لا يملك موسى - عليه السلام - معه جوابا، ولا يستطيع مقاومة.

وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من قصاص، يتهده به من وراء الكلمات! ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه - انطلق - يجيب:

"قال: فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل! ..

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة. "ففررت منكم لما خفتكم" على نفسي. فقسم الله لي الخير: ووهب لي الحكمة "وجعلني من المرسلين" فلست بدعا من الأمر، إنما أنا واحد من الرعيل "من المرسلين".

ثم يجيبه تهكما بتهكم. ولكن بالحق "وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل" ..
فما كانت تربيتي في بيتك وليدا إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل، وقتلك أبناءهم، مما اضطر
أمي أن تلقيني في التابوت، فتقذف بالتابوت في الماء، فتلتقطونني، فأرني في بيتك، لا في بيت
أبوي. فهل هذا هو ما تمنه علي، وهل هذا هو فضلك العظيم، عندئذ عدل فرعون عن هذه
المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه. ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم:

"قال فرعون: وما رب العالمين؟"

إنه - قبحه الله - يسأل: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده
رسول؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهمكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة
كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث! فيجيبه موسى - عليه
السلام - بالصفة المشتملة على ربوبيته - تعالى - للكون المنظور كله وما فيه:

"قال: رب السماوات والأرض وما بينهما. إن كنتم موقنين"

وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ
إليه سلطانك - يا فرعون - ولا علمك. وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء
من وادي النيل. وهو ملك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما
بينهما. وكذلك كان جواب موسى - عليه السلام - يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه،
وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربه.. فهو رب العالمين! .. ثم عقب
على هذا التوجيه بما حكايته "إن كنتم موقنين" فهذا وحده هو الذي يحسن اليقين به والتصديق.
والتفت فرعون إلى من حوله، يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثير به،
على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب:

"قال لمن حوله: ألا تستمعون؟"

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه! ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين.

"قال: ربكم ورب آبائكم الأولين"

وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه، فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه، فما هو إلا واحد من عبيده.

لا إله كما يدعي بين قومه! وهو رب قومه، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم! وهو رب آبائهم الأولين.

فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة. فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين! وإنها للقاصمة لفرعون. فما يطبق عليها سكوتا والملا حوله يستمعون. ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون:

"قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون"

إن رسولكم الذي أرسل إليكم.. يريد أن يتهمكم على مسألة الرسالة في ذاتها، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها. ويتهم موسى - عليه السلام - بالجنون، ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين.

ولكن هذا الهتكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين: "قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما. إن كنتم تعقلون"

والمشرق والمغرب مشهذان معروضان للأنظار كل يوم ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما. واللفظ يدل على الشروق والغروب. كما يدل على مكاني

الشروق والغروب. وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصرفهما. فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة ولا يبطئ عن أجله المرسوم؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا، ويوقظ العقول الغافية إيقاظا. وموسى - عليه السلام - يثير مشاعرهم، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير: "إن كنتم تعقلون"

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية. ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب. فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين¹.

ومن هذا النوع أيضا ما حكاه القرآن الكريم من حوار جرى بين بين السحرة وفرعون عندما انقضت الحقيقة أمام أعينهم، فأمنوا بالله الخالق، ولم يردعهم ويردهم عن تصديقهم لموسى لا تهديد فرعون ولا قتله إياهم، بل صبروا وتحذوا طغيانهم بإيمان راسخ، قال تعالى مصورا هذا المشهد:

"بِأُفْنَى السَّحَرَةِ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۖ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ - اذَنْ لَكُمْ ۚ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا فَطَـعَـنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوعٍ ۚ اِنۡخَلِ وَتَعَلَّمَنَّ أَتَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْغَى قَالُوا لَسْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَافْضِ مَا أَنْتَ فَاضٍ ۚ إِنَّمَا تَفْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

¹ في ظلال القرآن، ج: 5، ص: 2593.

﴿يٰۤاَيُّهَا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطٰٓئِنَا وَمَا اٰكْرَهْتَنَا عَلٰٓيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللّٰهِ خَيْرٌ وَّاَنْفِىٓ﴾¹.

لقد استغرب فرعون كيف لمن أتى بهم لنصرته أمام الملائكة، وفي مثل هذا المشهد، وأمام الناس جميعاً، يؤمن أعلم السحرة برسالة موسى ودعوته، ويكفرون بفرعون الذي نصب نفسه ربا، يستحيي نساء قومه ويذبح أبناءهم في أبشع صور الظلم والتعسف.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

"يقول تعالى ذكره: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به "لن نؤثرك" فنتبعك ونكذب من أجلك موسى "على ما جاءنا من البينات" يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى "والذي فطرنا" يقول: قالوا: لن نؤثرك على الذي جاءنا من البينات، وعلى الذي فطرنا، ويعني بقوله "فطرنا" خلقنا، فالذي من قوله "والذي فطرنا" خفض على قوله "ما جاءنا" وقد يحتمل أن يكون قوله "والذي فطرنا" خفضاً على القسم، فيكون معنى الكلام: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله، وقوله "فاقض ما أنت قاض" يقول: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك "إنما تقضي هذه الحياة الدنيا" يقول: إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى"².

قال سيد قطب رحمه الله:

"إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القرى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون.

فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطاناه:

¹ سورة طه، الآية: 69 - 72.

² تفسير الطبري: ج: 18، ص: 340.

"قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا" فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى. "فاقض ما أنت قاض" ودونك وما تملكه لنا في الأرض. "إنما تقضي هذه الحياة الدنيا". فسلطانك مقيد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبدا. "إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر" مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا. "والله خير وأبقى" خير قسمة وجوارا، وأبقى مغنما وجزاء. إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى".

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي:

"إنه من يأتي ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى.

فإذا كان يتهدهدهم بمن هو أشد وأبقى. فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرما هي أشد عذابا وأدوم فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى" فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع. إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار "وذلك جزاء من تزكى" وتطهر من الآثام.

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية. وباستعلاء الإيمان الواثق.

وبتحذير الإيمان الناصع. وبرجاء الإيمان العميق.¹

¹ في ظلال القرآن، ج: 4، ص: 2343.

بعد هذا التحدي والذي ورد في أكثر من آية استعمل الله تعالى أسلوباً آخر للتنويع، وهذا الأسلوب هو الأسلوب المنطقي:

المطلب الثاني: الأسلوب المنطقي.

تعريف المنطق لغة:

قال المرتضى الزبيدي في تعريفه:

"نطق ينطق نطقاً بالضم ومنطقاً كموعداً. وزاد ابن عباد: نطقاً، بالفتح، ونطقاً كقعود: تكلم بصوت. وقوله تعالى: علمنا منطق الطير، قال ابن عرفة: إنما يقال لغير المخاطبين من الحيوان: صوت، والنطق إنما يكون لمن عبر عن معنى، فلما فهم الله تعالى سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام أصوات الطير سماه منطقاً لأنه عبر به عن معنى فهمه. قال: فأما قول جرير: لقد نطق اليوم الحمام ليطرباً فإن الحمام لا نطق له وإنما هو صوت. وكل ناطق مصوت: ناطق، ولا يقال للصوت: نطق حتى يكون هناك صوت. وحروف تعرف بها المعاني، هذا كله قول ابن عرفة. قال الصاغاني: والرواية في قول جرير: لقد هتف لا غير. وفي اللسان: وكلام كل شيء: منطقته. ومنه قوله تعالى: "علمنا منطق الطير". قال ابن سيده: وقد يستعمل المنطق في غير الإنسان، كقوله تعالى: "علمنا منطق الطير"¹.

وقال الأصفهاني رحمه الله:

"النطق في التعارف: الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الأذان. قال تعالى: "ما لكم لا تنطقون"²، ولا يكاد يقال إلا للإنسان، ولا يقال لغيره إلا على سبيل التبع. نحو: الناطق والصامت، فيراد بالناطق ما له صوت، وبالصامت ما ليس له صوت، ولا يقال للحيوانات ناطق إلا مقيداً، وعلى طريق التشبيه كقول الشاعر:

¹ حمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الرّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج: 26، ص: 423.

² سورة الصافات، الآية: 93.

عجبت لها أنى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تفغر لمنطقها فما"¹.

تعريف المنطق اصطلاحاً:

قال الجرجاني رحمه الله:

"المنطق: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، فهو علم عملي آلي، كما أن الحكمة علم نظري غير آلي، فالآلة بمنزلة الجنس.

والقانونية: تخرج الآلات الجزئية لأرباب الصنائع، وقوله: تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر يخرج العلوم القانونية التي لا تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر بل في المقال، كالعلوم العربية"².

وأما علم المنطق فقد عرفه محمد التهانوي قائلاً:

"ويسمى علم الميزان إذ به توزن الحجج والبراهين. وكان أبو علي يسميه خادم العلوم إذ ليس مقصوداً بنفسه، بل هو وسيلة إلى العلوم، فهو كخادم لها. وأبو نصر يسميه رئيس العلوم لنفاذ حكمه فيها، فيكون رئيساً حاكماً عليها. وإتّما سمّي بالمنطق لأن المنطق يطلق على اللفظ وعلى إدراك الكليات وعلى النفس الناطقة. ولما كان هذا الفن يقوّي الأول ويسلك بالثاني مسلك السداد، ويحصل بسببه كمالات الثالث، اشتق له اسم منه وهو المنطق. وهو علم بقوانين تفيد معرفة طرق الانتقال من المعلومات إلى المجهولات وشرائطها، بحيث لا يعرض الغلط في الفكر. فالقانون يجيء بيانه في محله. والمعلومات تتناول الضرورية والنظرية. والمجهولات تتناول التصورية والتصديقية. وهذا أولى مما ذكره صاحب الكشف: تفيد معرفة طرق الانتقال من الضروريات إلى النظريات، لأنه يوهّم بالانتقال الذاتي على ما يتبادر من العبارة، والمراد الأعم من أن يكون بالذات أو بالواسطة. والمراد بقولنا بحيث لا يعرض الغلط في الفكر عدم عروضه عند

¹ الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص: 811.

² التعريفات: ص: 223.

مراعاة القوانين كما لا يخفى، فإنّ المنطقي ربما يخطئ في الفكر بسبب الإهمال، هذا مفهوم التعريف.

وأما احترازاته فالعلم كالجنس، وباقي القيود كالفصل احتراز عن العلوم التي لا تفيد معرفة طرق الانتقال، كالنحو والهندسة، فإن النحو إنما يبيّن قواعد كلية متعلقة بكيفية التلقّظ بلفظ العرب على وجه كلي، فإذا أريد أن يتلفظ بكلام عربي مخصوص على وجه صحيح احتيج إلى أحكام جزئية تستخرج من تلك القواعد كسائر الفروع من أصولها. فتقع هناك انتقالات فكرية من المعلوم إلى المجهول لا يفيد النحو معرفتها أصلاً. وكذلك الهندسة يتوصل بمسائلها القانونية إلى مباحث الهيئة بأن تجعل تلك المسائل مبادئ الحجج التي تستدلّ بها على تلك المباحث، وأما الأفكار الجزئية الواقعة في تلك الحجج فليست الهندسة مفيدة لمعرفة قطعاً. قيل التعريف دوري لأن معرفة طرق الاكتساب جزء من المنطق، فيتوقف تحقّقه على معرفة طرق الاكتساب؛ فلو كانت معرفتها مستفادة من المنطق توقفت عليه فلزم الدور¹.

"فقد طرح القضية من خلال بديهياتها العادية، فإذا كان هؤلاء الذين تدعون من دون الله آلهة، فلا بد للإله من القيام بعمليات الخلق، وإلا فما معنى أن يكون إلهاً، فأين مخلوقاته في الأرض، وأين مخلوقاته في السماء؟ فإذا كان الجواب سلبياً فأين الدعوى، وإذا كان إيجاباً فأين الدليل من كتاب نقرأه، ومن علم نتعلمه ونفكر فيه؟"².

ومن هذا الأسلوب المنطقي خاطب الله تعالى المشرطين فقال:

¹ محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ط: 1 - 1996 م. ج: 1، ص: 44.

² محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص: 99.

أَمْ إِتَّخَذُواْ ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٦١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا
 اللَّهُ لَبَسَدَتْآ فَبُشِحَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٦٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
 يُسْأَلُونَ ¹.

قال الزمخشري رحمه الله في تفسيره:

"هذه "أم" المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر: هو اتخاذهم آلهةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ الموتى، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموت. فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر، وما كانوا يدعون ذلك لألهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا - مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السماوات والأرض وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم، فكيف يدعونه للجماذ الذي لا يوصف بالقدرة رأساً؟ قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات. وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة. ونحو قوله مِنَ الْأَرْضِ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد: مكّي أو مدني. ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيدان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض: لأن الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية. ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين ربك" ؟ فأشارت إلى السماء، فقال إنها مؤمنة، لأنه فهم منها أن مرادها نفى الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكانا لله عز وجل. ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض، لأنها إما أن تنحت من

¹ سورة الأنبياء، الآية: 21-22-23.

بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض. فإن قلت: لا بدّ من نكتة في قوله هُمْ ، قلت: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم. وصفت آلهة بالإلا كما توصف بغير، لو قيل آلهة غير الله¹.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لָذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ"².

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى:

"أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهية. وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو القياس تسمى مطلوبا كما في علم المنطق. ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقوله: ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله هو المطلوب وقوله إذا لذهب كل إله بما خلق إلى آخر الآية هو الدليل. وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل. وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله.

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظرا إلى أن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب

¹ الكشف: ج: 2، ص: 566.

² سورة المومنون، الآية: 93.

للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء الله، و "إذن" حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقدر. والكلام المجاب هنا هو ما تضمنه قوله وما كان معه من إله فالجواب ضد ذلك النفي. وإذا قد كان هذا الضد أمرا مستحيل الوقوع تعين أن يقدر له شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد لمثل هذا الشرط هو "لو" الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق. وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد "إذن" دليل على أن المقدر شرط "لو" لأن اللام تلزم جواب "لو" ولأن غالب مواقع "إذن" أن تكون جواب "لو" فلذلك جاز حذف الشرط هنا لظهور تقديره¹.

المطلب الثالث: أسلوب الشدة في الحوار بالقرآن الكريم:

رغم أن الغالب في القرآن الكريم هو الدعوة بالرفق واللين، والجدال بالتي هي أحسن، إذ هذا هو المسلك الأكثر تأثيرا على النفوس، التي من طبيعتها أن تستسلم تحت الضغوط أو تنحي أمام الإكراه. إلا أن القرآن الكريم لا يخلو من أسلوب فيه شدة وتقريع مع من يأبى التسليم للآيات الباهرات التي يبينها الله تعالى على أيدي أنبيائه، فقد حكى القرآن تكبر إبليس لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وحكى كذلك عن الأنبياء الذين دعوا على أقوامهم واستعملوا معهم خطابا شديدا وقاسيا بعدما يؤسوا من إيمانهم، وسنورد في هذا المطلب بعض النماذج الحوارية المطبوعة بالقوة والشدة في الخطاب على الشكل الآتي:

حوار الله تعالى مع إبليس:

لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام تكريما له، استكبر إبليس متحججا بأنه الأفضل إذ خلقه الله تعالى من نار بينما خلق آدم من تراب.

قال تعالى في هذا الشأن:

¹ التحرير والتنوير: ج: 18، ص: 114.

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا أَلَدٌ كَرَّمْتَ عَلَى لَيْسَ آخِرْتِي إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ لَا خَتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبُ بِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَفْتَى مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَوَدِّعَهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝"

قال سيد قطب رحمه الله عليه:

"إن السياق يكشف عن الأسباب الأصلية لضلال الضالين، فيعرض هذا المشهد هنا، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها، عن إصرار سابق قديم! «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال: أأسجد لمن خلقت طيناً؟» إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين! ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية، فيقول في تبجح:

"أرأيتك هذا الذي كرمت علي؟" أترى هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك؟

"لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً" فلاستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم.

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداداً للشر والغواية. عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هي ميزة هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة. فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب.

¹ سورة الإسراء: الآية: 61 - 64.

وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام، يحاول محاولته مع بني الإنسان:
"قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا".

اذهب فحاول محاولتك. اذهب مأذونا في إغوائهم. فهم مزودون بالعقل والإرادة،
يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك "فمن تبعك منهم" مغلبا جانب الغواية في نفسه على جانب
الهداية، معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان، غافلا عن آيات الله في الكون، وآيات الله
المصاحبة للرسالات، "فإن جهنم جزاؤكم" أنت وتابعوك "جزاء موفورا".

"واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك".

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول. فهي
المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخييل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات. يرسل
فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفتح المنسوب
والمكيدة المدبرة. فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال! "وشاركهم في
الأموال والأولاد"¹.

ومن هذا الأسلوب ما دعا به بعض الأنبياء على أقوامهم بعدما اجتهدوا في تبليغ رسالة ربهم، إلا أن دعواتهم
جوهمت بالرفض والإنكار رغم المعجزات الخارقات، والآيات الباهرات، ومنهم من ظل يدعو قومه عقودا من الزمن، فلم يلن
للمنكرين جانب، ولا يجد الإيمان إلى قلوبهم منفذ.

قال تعالى يحكي عن نوح عليه السلام:

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١﴾ فَبَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿٢﴾
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

¹ في ظلال القرآن: ج: 4، ص: 2239.

أَلْوَحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
ءَايَةً بَهْلٍ مِّنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي¹.

"وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحا دعاه قائلا: إن قومه غلبوه
سائلا ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم، فأهلكهم بالغرق، لأنه تعالى فتح أبواب
السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيونا.

وقوله: عيونا، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون الأرض. والتفجير: إخراج
الماء منها بكثرة، و "أل" في قوله: فالتقى الماء للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض
على أمر قد قدر، أي قدره الله وقضاه.

وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس
أحدهما أكثر من الآخر. والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه - جل وعلا - أن ينتصر له من قومه
فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعا بالغرق في هذا الماء المتلقى من
السماء والأرض - جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: ونوحا إذ
نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا
إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين.

وقوله تعالى في الصافات: ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب
العظيم إلى قوله: ثم أغرقنا الآخرين.

وقد بين - جل وعلا - أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكا مستأصلا.
وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: "فانتصر" وذلك كقوله تعالى: وقال نوح رب لا تذر على
الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا، وما دعا نوح

¹ سورة القمر، الآية: 16. 9.

على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: "وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن"، وقد قال تعالى: "وما آمن معه إلا قليل"¹.

ورغم ما يبدو من الشدة في ظاهر هذا الدعاء، إلا أنه فيه رحمة جليلة، فحتى لا يزيدوا من ذنوبهم دعا عليهم هذا الدعاء، وحتى لا يلدوا من بعدهم من لا يؤمن بالله تعالى فيفسدوا في الأرض، أراد أن يقطع دابرهم فيستراح من شرورهم ويوضع حد لفسادهم وعتيهم، وإن شدة المؤمنين على الكفار كما ذكرت في القرآن، هي في جوهرها رحمة عليهم لإنقاذهم من براثن الكفر وأخذهم إلى طريق النجاة، لذلك بكى الرسول صلى الله عليه وسلم حين مرت عليه جنازة يهودي فتعجب الصحابة من ذلك، فقال، إنها نفس تفلتت منه إلى النار.

المبحث الثاني: مبادئ التوجيه القرآني للحوار النبوي.

لقد وضع التشريع الإسلامي مبادئ أساسية للحوار والتواصل بين الآخر حتى يكون هادفا يؤدي دوره، فأطره بمنظومة من القيم والأخلاق، وجعلها سمة بارزة للمسلم لا تفارقه.

ومن هذه القيم التي وضعها الشارع:

المطلب الأول: الدعوة باللين والحكمة والموعظة الحسنة.

لقد بعث الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم متصفا بالأخلاق الحميدة، جامعاً لمكارم الصفات، قال تعالى: "بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلْبِ لَآنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

¹ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر

للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، 1415 هـ - 1995 م، ج: 7، ص: 447.

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ¹، وقد نزلت هذه الآية بعد معركة أحد التي انهزم فيها المسلمون، فلم يلزمهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولا شنع عليهم، قال الرازي في تفسيره: "واعلم أن القوم لما انهزموا عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتغليط والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، زاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ" ومن

أنصف علم أن هذا ترتيب حسن في الكلام. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن لينه صلى الله عليه وسلم مع القوم عبارة عن حسن خلقه مع القوم قال تعالى: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"² وقال: خُذِ الْعَقْبُ وَامْرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ³، وقال: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلْيٍ عَظِيمٍ"⁴ وَقَالَ لَفَدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ⁵. قال تعالى أيضا: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

¹ سورة آل عمران، الآية: 159.

² سورة الشعراء، الآية: 214.

³ سورة الأعراف، الآية: 199.

⁴ سورة القلم، الآية: 4.

⁵ سورة التوبة، الآية: 128.

وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ وَجَدِلْهُمْ بِالتَّيِّهِ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^{1.2}

قال القرطبي: "هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة"³.

المطلب الثاني: نبذ العنف والتعصب.

إن التحلي بالرفق من أولى الأخلاق التي جاء بها الإسلام الحنيف، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا يقتدى، رفيقه وحلمه، وشواهد ذلك لا تحصى، ونكتفي بالأمثلة التالية:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش. قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في"⁴.

¹ سورة النحل، الآية: 125.

² فخر الدين الرازي مفاتيح الغيب، ج. 9، ص: 450.

³ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية - القاهرة، ط. 2، 1384هـ -

1964 م، ج: 10، ص: 200.

⁴ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً.

ومن ذلك أيضا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو دَنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"¹.

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة وتوجيهات قيمة في ما ينبغي على المسلم الإتيان به من حلم ورفق خصوصاً في التعامل مع الناس البسطاء الذين يجهلون أحكام هذه الشريعة. من هذه الفوائد:

قوله صلى الله عليه وسلم: " دعوه ولا تزموه " هذه العبارة يؤخذ منها أمران:

أولاً : فيها وجوب الرفق بالجاهل في التعليم، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يتركوه ونهاهم أن يقطعوا عليه بوله لجهل هذا الأعرابي حيث إنه لم يفعل ذلك استخفافاً وعناداً وهكذا يجب أن يكون المنكر مع الجاهل ولو عَظُم ذنبه ما دام جاهلاً فليس بقعة أعظم من بيوت الله وليس أقبح من البول فيها ومع ذلك رفق النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الأعرابي لجهله وأخبره ما الذي يصلح في هذه المساجد من ذكر وصلاة وقرآن وما لا يصلح فيها وتأمل كيف كانت نتيجة الرفق حين التعليم فقد جاء عند البخاري في كتاب الأدب أن الأعرابي قال: " وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي: " لقد حجرت واسعاً " يريد رحمة الله.

قوله صلى الله عليه وسلم: " فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين " فيه دلالة لأمرته صلى الله عليه وسلم عليه وعموماً والدعاة منهم على وجه الخصوص وحثهم على أمرين: الأول : في قوله " فإنما بعثتم " فهم مبلّغين عن الله عزّ وجل في حمل رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة جعلهم كالمبعوثين لأنهم يحملون هذه

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد.

الرسالة، فينبغي لطالب العلم والداعية أن يستشعر مثل هذه العبارات التي توحى بأن عليه أن يحمل هم هذه الرسالة ويدعو الناس إلى دين الله تعالى.

المبحث الثالث: شواهد قرآنية للحوارات النبوية.

يزخر القرآن الكريم بنماذج لحوارات الرسول صلى الله عليه وسلم مع مختلف الفئات التي كانت في المجتمع، فقد تحاور عليه الصلاة والسلام مع جميع فئات الناس على اختلاف عقائدهم وأعمارهم وحتى مستواهم الاجتماعي.

ولا عجب، فقد كان صلى الله عليه وسلم مرجعهم في الفتوى والقضاء، وكانوا لا يقدمون على أمر حتى يعلموا حكم الله فيه ورسوله، فلذلك تنوعت الآيات التي نزلت جواباً عن أسئلتهم في مسائل اعترضت لهم في أمور حياتهم أو شغلت بالهم فأرادوا أن تطمئن نفوسهم.

ومن ذلك قوله تعالى: "قَلَّا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"¹.

وجاء في سبب نزولها "عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِراج من الحرة كانا يسقيان به كلاًهما النخل، فقال الأنصاري: سَرَحَ الماء يَمْرًا! فأبى عليه، فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلَوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر، ثم أرسل الماء إلى جارك. واستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه الشفقة له وللأنصاري. فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصاري، استوعب للزبير حقه في صريح الحكم قال فقال الزبير:

¹ سورة النساء، الآية: 64.

ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم"، الآية¹.

ومن المشاهد التي صورها القرآن الكريم تصويرا بديعا في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابة رضي الله عنهم وهم في موقف شدة وخوف، ما تحدث عنه الله تعالى في سورة آل عمران مفصلا لما جرى يوم أحد بعد انقلاب المعركة لصالح المسلمين، وفرار الكثير من الصحابة، قال سبحانه:

"إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي خُفْيَةٍ فَأَثْبَأَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْإِنْعَامِ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"².

¹ تفسير الطبري، ج.8، رقم: 520.

² سورة آل عمران، الآية : 153 . 154.

قال ابن عاشور رحمه الله:

"إذ تصعدون متعلق بقوله: ثم صرفكم عنهم، أي دفعكم عن المشركين حين أنتم مصعدون.

والإصعاد: الذهاب في الأرض لأن الأرض تسمى صعيدا، قال جعفر بن علبة:

هواي مع الركب اليمانيين مصعد والإصعاد أيضا السير في الوادي، قال قتادة والربيع: أصعدوا يوم أحد في الوادي.

والمعنى: تفرون مصعدين، كأنه قيل: تذهبون في الأرض أي فرارا، فـ "إذ" ظرف للزمان الذي عقب صرف الله إياهم وكان من آثاره.

ولا تلوون على أحد أي في هذه الحالة. واللي مجاز بمعنى الرحمة والرفق مثل العطف في حقيقته ومجازه، فالمعنى ولا يلوي أحد عن أحد فأوجز بالحذف، والمراد على أحد منكم، يعني: فررتم لا يرحم أحد أحدا ولا يرفق به، وهذا تمثيل للجهد في الهروب حتى إن الواحد ليدوس الآخر لو تعرض في طريقه.

وجملة والرسول يدعوكم في أخراكم حال، والأخرى آخر الجيش أي من ورائكم. ودعاء الرسول دعاؤه إياهم للثبات والرجوع عن الهزيمة، وهذا هو دعاء الرسول الناس بقوله: "إلي عباد الله من يكر فله الجنة".

وقوله: فأثابكم غما إن كان ضمير فأثابكم ضمير اسم الجلالة، وهو الأظهر والموافق لقوله بعده: "ثم أنزل عليكم من بعد الغم"، فهو عطف على صرفكم، أي ترتب على الصرف إثابتكم. وأصل الإثابة إعطاء الثواب، وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل. والغم ليس بخير، فيكون أثابكم إما استعارة تهكمية كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرادة طحونا"¹.

ورغم الموقف الصعب الذي عاشه المسلمون في هذه اللحظات، فقد تجلت فيه حكم كثيرة ومواعظ بليغة للمسلمين، يمكن إجمالها فيما يلي.

أولها: شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت في مكانه ينافح ويقاتل، رغم كان أول المستهدفين من طرف المشركين، وظل ينادي صحابته رضي الله عنهم الذين فروا بعد أن أحاط بهم المشركون.

ثانيها: عاقبة مخالفة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، رغم أن الذين نزلوا من أماكنهم لم ينزلوا حتى اعتقدوا أن المعركة قد حسمت لصالح المسلمين، لكن كما تقول الحكمة: "من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه".

ثالثها: أن في الهزيمة مع وجود الرسول صلى الله عليه وسلم درس بليغ في عدم الغرور، فلا يعني كونك على الدين الحق أن النصر حليفك دائما، فهاهم الصحابة رضي الله عنهم ومعهم المؤيد بالوحي يذوقون مرارة الهزيمة، ويتلقون درسا قاسيا حتى لا يغتروا بعددهم ولا بأنهم على الدين الحق، فإن هم خالفوا أمر ربهم واستهانوا بها، كانوا أكثر عرضة للهزيمة من غيرهم.

قال الرازي في هذه الآية:

"ذكروا وجوها: الأول: قال الزجاج: المعنى أثابكم غم الهزيمة من غمكم النبي صلى الله عليه وسلم بسبب مخالفته، ليكون غمكم بأن خالفتموه فقط، لا بأن فاتتكم الغنيمة وأصابتكم الهزيمة، وذلك لأن الغم الحاصل بسبب الإقدام على المعصية ينسي الغم الحاصل بسبب مصائب الدنيا. الثاني: قال الحسن: جعلكم مغموين يوم أحد في مقابلة ما جعلتموهم مغموين يوم بدر، لأجل أن يسهل أمر الدنيا في أعينكم فلا تحزنوا بفواتها ولا تفرحوا بإقبالها، وهذان الوجهان مفرعان على قولنا الباء في قوله: غما بغم للمجازاة، أما إذا قلنا إنها بمعنى "مع" فالمعنى أنكم قلتهم

¹ التحرير والتنوير: ج: 4، ص: 131.

لو بقينا في هذا المكان وامتلنا أمر الرسول لوقعنا في غم فوات الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتكم الغنيمة وقعتم في هذه الغموم العظيمة التي كل واحد منها أعظم من ذلك الغم أضعافا مضاعفة، والعاقل إذا تعارض عنده الضرران، وجب أن يخص أعظمهما بالدفع، فصارت إثابة الغم على الغم مانعا لكم من أن تحزنوا بسبب فوات الغنيمة، وزاجرا لكم عن ذلك، ثم كما زجرهم عن تلك المعصية بهذا الزجر الحاصل في الدنيا، زجرهم عنها بسبب الزواجر الموجودة في الغنيمة فقال: والله خير بما تعملون أي هو عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم، قادر على مجازاتها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وذلك من أعظم الزواجر للعبد عن الاقدام على المعصية والله أعلم¹.

ومن أمثلة الحوار التي ساقها القرآن الكريم أيضا ما فصله من أحداث غزة الخندق التي حوصرت فيها المدينة حصارا مريرا حتى اضطربت فيها النفوس وبلغت القلوب الحناجر، قال عز من قائل متحدثا عنها:

إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ بَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْبَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْآبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٢﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا
وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ
لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ
بِعَوْرَةٍ أَوْ لَا يَرْضَوْنَ إِلَّا غُرُورًا².

¹ تفسير الرازي: ج: 9، ص: 392.

² سورة الأحزاب: الآية: 10 - 13.

قال الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

"اذكروا ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق إذ جاءتكم جنود وهم الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريح الصبا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"، وجنودا لم تروها وهم الملائكة وكانوا ألفا: بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاء النجاء، فانهزموا من غير قتال، وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، أشار عليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، واشتد الخوف، وظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر، من فوقكم من أعلى الوادي من قبل المشرق: بنو غطفان ومن أسفل منكم من أسفل الوادي من قبل المغرب: قريش تحزبوا وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمدا زاغت الأبصار مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع. الحنجرة: رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد: ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل للجبان: انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ

الحناجر حقيقة وتظنون بالله الظنون خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب: الذين هم على حرف، والمنافقون: الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بالستهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن: ظنوا ظنونا مختلفة: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يبتلون"¹.

ويصور سيد قطب رحمه الله هذا المشهد بأسلوبه الأدبي الراقي فيقول:

"إنها صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب. من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج. ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا.

والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، ماثلا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

ننظر فنرى الموقف من خارجه: "إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم".

ثم ننظر فنرى أثر الموقف في النفوس: "وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر". وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب.

"وتظنون بالله الظنونا"، ولا يفصل هذه الظنون. ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب في المشاعر والخواجل، وذهاجا كل مذهب، واختلاف التصورات في شتى القلوب.

¹ الكشف للزمخشري: ج: 3، ص: 527.

ثم تزيد سمات الموقف بروزاً، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحاً: "هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً"، والهول الذي يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولاً مروعاً رعبياً.

قال محمد بن مسلمة وغيره: كان ليلنا بالخندق نهاراً وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان ابن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هبيرة ابن أبي وهب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً. ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً. حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً.

ويعصور حال المسلمين ما رواه المقرئ في إمتاع الأسماع. قال:

ثم وافى المشركون سحراً، وعبأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوي من الليل، وما يقدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم. وما قدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء فجعل أصحابه يقولون:

يا رسول الله ما صلينا! فيقول. ولا أنا والله ما صليت! حتى كشف الله المشركين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله، وقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرت خيل للمشركين يطلبون غرة - وعليها خالد بن الوليد - فناوشهم ساعة، فزرق وحشى الطفيل بن النعمان بن خنساء الأنصاري السلمي بمزراق، فقتله كما قتل حمزة - رضي الله عنه - بأحد. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ: "شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى صلاة العصر. ملأ الله أجوافهم وقلوبهم ناراً".

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلاً فالتقتا - ولا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو. فكانت بينهم جراحة وقتل. ثم نادوا بشعار الإسلام! "حم. لا ينصرون" فكف بعضهم عن بعض. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد".

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين، وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق، ذلك الذي كان يجيئهم من انتفاض بني قريظة عليهم من خلفهم. فلم يكونوا يأمنون في أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة بين هذه الجموع، التي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة"¹.

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط: 17، ج: 5، ص: 2838.

الفصل الثالث:

الأسس الأخلاقية للحوار النبوي.

المبحث الأول: الأسس العقدية للحوار النبوي.

المبحث الثاني: الأسس التربوية للحوار النبوي.

المبحث الثالث: الأسس التعليمية التوجيهية للحوار النبوي.

لقد وضع الإسلام أسسا على أساس عقدي متين لأي تواصل وحوار مع الآخر، وهذه الأسس مرتبطة ارتباطا وثيقا بإيمان العبد بربه، واستحضاره لمراقبة ربه في القول والعمل يعطي لكل ما يقوم به أو يقوله روحا ومعنى، فبذلك يطلب زجه الله تعالى ويتقرب إليه بمثل هذه الأعمال التي وإن بدت في ظاهرها من العادات فهي من أعظم القربات متى أريد بها ابتغاء مرضات الله تعالى.

المبحث الأول: الأسس العقدية للحوار النبوي.

إن المتأمل في حوارات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقف على الهدف الأول من حوارهم مع أقوامهم، فما من نبي إلى ودعا قومه إلى عبادة الله تعالى وحده دون شريك، وسنقوم في هذا المبحث بتعريف علم التوحيد وموضوعه ثم نورد أمثلة من حوارات بعض الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

المطلب الأول: تعريف التوحيد.

عرفه ابن منظور رحمه الله من حيث اللغة فقال:

"يقال وحد فلان يوحد أي بقي وحده؛ ويقال: وحد ووحد وفرد وفرد وفقه وفقه وسفه وسفه وسقم وسقم وفرع وفرع وحرص وحرص. ابن سيده: وحد ووحد وحادة وحدة ووحد وتوحد: بقي وحده يطرد إلى العشرة؛ عن الشيباني. وفي حديث ابن الحنظلية: وكان رجلا متوحدا: أي منفردا لا يخالط الناس ولا يجالسهم. وأوحد الله جانبه أي بقي وحده. وأوحد للأعداء: تركه. وحكى سيبويه: الوحدة في معنى التوحد. وتوحد برأيه: تفرد به، ودخل القوم موحد موحد وأحاد أحاد أي فرادى واحدا واحدا، معدول عن ذلك. قال سيبويه: فتحوا موحد

إذ كان اسماً موضوعاً ليس بمصدر ولا مكان. ويقال: جاؤوا مثني مثني وموحد موحد، وكذلك جاؤوا ثلاث وثناء وأحاد"¹.

وفي التهذيب: وأما قول الناس توحيد الله بالأمر وتفرد، فإنه وإن كان صحيحاً فإني لا أحب أن أُلْفِظَ به في صفة الله تعالى في المعنى إلا بما وصف به نفسه في التنزيل أو في السنة، ولم أجد المتوحد في صفاته ولا المتفرد، وإنما تنتهي في صفاته إلى ما وصف به نفسه ولا نجاوزه إلى غيره لمجازه في العربية"².

أما من حيث الاصطلاح فقد قال محمد عبده رحمه الله:

"التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز. وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما"³.

¹ لسان العرب، ج 3، ص: 449.

² مرتضى الزبيدي تاج، العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1424/2هـ، ج: 4، ص: 266.

³ الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، دار الشروق، ط. 1، 1414هـ/1994، ص: 5.

وقد سماه أبو حنيفة رحمه الله بالفقه الأكبر كونه أساس كل العبادات، فمن لم يصح اعتقاده ويخلص نيته بطلت سائر عباداته لأنها فاقدة الروح. قال رحمه الله: " الفقه في الدين لأفضل من الفقه في الأحكام ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من ان يجمع العلم الكثير قال أبو مطيع قلت فأخبرني عن أفضل الفقه قال أبو حنيفة ان يتعلم الرجل الايمان بالله تعالى والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأمة واتفاقها قال قلت فأخبرني عن الإيمان فقال حدثني ابن مرثد عن يحيى بن يعمر قال قلت لابن عمر رضي الله عنهما أخبرني عن الدين ما هو قال عليك بالإيمان فتعلمه قلت فأخبرني عن الإيمان ما هو فأخذ بيدي فانطلق الى شيخ فأقعدني الى جنبه فقال إن هذا يسأل عن الإيمان كيف هو فقال والشيخ كان ممن شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عمر كنت الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الشيخ معي إذ دخل علينا رجل حسن اللمة متعمما نحسبه من رجال البادية فتخطى رقاب الناس فوقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما الإيمان قال شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وتؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى"¹

المطلب الثاني: حرية الاعتقاد.

لقد ظن البعض أن الإسلام يحمل الناس على اتباعه كرها، وذلك تشويه منهم لهذا الدين السماح بحسن ظن أو سوءه، وخدمة مجانية منهم لأعدائه الذين لا يفكون يتهمونه بالعنف والإرهاب، ويلصقوه به كل نقيصة بعدما أصبح قبلة لقلوب اشمأزت من الماديات، فبدأت تبحث عن ما تملأ به فراغا روحيا يعصف بها ويخوض بها في خراب لا نهاية له.

¹ أبو حنيفة، الفقه الأكبر، مكتبة الفرقان، ط: 1، الإمارات العربية، 1419هـ - 1999م، ص: 2.

إن القارئ لتاريخ الإسلام وسيرته محمد صلى الله عليه وسلم يدرك هذه الحقيقة الناصعة، في أنه لا إيمان بإكراه، بل قناعة راسخة لا تتزعج، فالإكراه لا يصنع إلا النفاق، والمنافقون أخطر على المجتمع المسلم من الذين أصروا على كفرهم".

1- مبدأ حرية الاعتقاد في الإسلام:

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا، وداعيا إلى ربه بإذنه وسراجا منيرا، فأمره ربه بتبليغ رسالته فقال: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ"¹، ولم يكلفه سبحانه شيئا آخر إلا أن يسمع الناس نداء ربهم، "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، ولم يكلف الله تعالى نبيه أن يفتش عن القلوب، وأن يكره الناس على الإيمان به، وإنما وصاه بالدعوة إليه، وجعل الهداية سبحانه في يده، وكم أشفق الرسول الرحيم على الناس وتحسر عليهم إذ لم يتبعوه، فجاء القرآن مسلما إياه: قال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"²، وقال تعالى أيضا: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"³

قال الطبري: "نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار - أو في رجل منهم - كان لهم أولاد قد هودوهم أو نصرهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام"⁴.

قال الرازي رحمه الله: "معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار، ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد

¹ سورة المائدة، الآية: 69.

² سورة يونس، الآية: 99.

³ سورة البقرة: الآية 256.

⁴ تفسير الطبري: ج: 5، ص: 407.

بيانا شافيا قاطعا للعدر، قال بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قوله تعالى: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، وقال في سورة أخرى ولو شاء ربك لآمن "من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" وقال في سورة الشعراء لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ومما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية قد تبين الرشد من الغي يعني ظهرت الدلائل، ووضحت البينات، ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والإلجاء والإكراه، وذلك غير جائز لأنه ينافي التكليف فهذا تقرير هذا التأويل. القول الثاني: في التأويل هو أن الإكراه أن يقول المسلم للكافر: إن آمنت وإلا قتلتك فقال تعالى: لا إكراه في الدين أما في حق أهل الكتاب وفي حق المجوس، فلاأنهم إذا قبلوا الجزية سقط القتل عنهم¹

2- الإسلام ضد الإكراه:

- الإكراه لغة:

قال ابن منظور: "الكره، بالضم، المشقة. يقال: قمت على كره أي على مشقة. قال: ويقال أقامني فلان على كره، بالفتح، إذا أكرهك عليه"².

وقال الفيروزآبادي: الكره، ويضم: الإباء، والمشقة، أو بالضم: ما أكرهت نفسك عليه، وبالفتح: ما أكرهك غيرك عليه. كرهه: كسمعه، كرها ويضم، وكراهة وكراهية، بالتخفيف، ومكرهه، وتضم راؤه، وتكرهه. وشيء كره، بالفتح وكخجل وأمير: مكروه. وكرهه إليه تكريها: صيره كريها. وما كان كريها فكره، ككرم. وأتيتك كرايين أن تغضب، أي: كراهية أن

¹ فخرالدين الرازي، مفاتيح الغيب، م: 7، ص: 15.

² لسان العرب، ج. 13، ص: 535.

تغضب. والكراهة: الجمل الشديد. والكراهة، كسحابة: الأرض الغليظة الصلبة. والكراهة: الأسد. والكراهة: الحرب، أو الشدة في الحرب، والنازلة. وذو الكراهة: السيف الصارم لا ينبو عن شيء. وكراهته: بادرته التي تكره منه. والكراهة، ويضم مقصوراً: أعلى النقرة، والوجه مع الرأس. ورجل ذو مكروهة: شدة. وتكرهه: تسخطه، وفعله على تكره وتكراه ومتكأها¹.

- الإكراه اصطلاحاً:

عرفه الجرجاني بقوله: " حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد". وقال أيضاً: " هو الإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان، طبعاً أو شرعاً، فيقدم على عدم الرضا، ليرفع ما هو أضر"².

3- حكم الإكراه في الدين:

أورد الطاهر بن عاشور في تفسيره كلاماً في غاية الدقة والوضوح وهو يفسر قوله تعالى: " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ إِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"³. قال رحمه الله تعالى: " الآية استئناف بياني ناشئ عن الأمر بالقتال في سبيل الله في قوله: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"⁴ إذ يبدو للسامع أن القتال لأجل دخول العدو في الإسلام فبين في هذه الآية أنه لا إكراه على الدخول في الإسلام وسيأتي الكلام على أنها محكمة أو منسوخة. وتعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوجدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر

¹ القاموس المحيط، ص: 1252.

² التعريفات: للجرجاني: ص: 33.

³ سورة البقرة، الآية 256.

⁴ سورة البقرة، الآية: 243.

ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيترون عليه أم يكرهون على الإسلام، فكانت الجملة استئنفاً بيانياً. والإكراه الحمل على فعل مكروه، أي جعله ذا كراهية، ولا يكون ذلك إلا بتخويف وقوع ما هو أشد كراهية من الفعل المدعو إليه ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تكرهوا أحداً على اتباع الإسلام قسراً، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصاً. وهي دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار. وقد تقرر في صدر الإسلام قتال المشركين على الإسلام، وفي الحديث: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" ولا جائز أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل ابتداء القتال كله، فالظاهر أن هذه الآية نزلت بعد فتح مكة واستخلاص بلاد العرب، إذ يمكن أن يدوم نزول السورة سنين كما قدمناه في صدر تفسير سورة الفاتحة لا سيما وقد قيل بأن آخر آية نزلت هي في سورة النساء "يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ أَنْ تَضِلُّوا"¹، فنسخت حكم القتال على قبول الكافرين الإسلام ودلت على الاقتناع منهم بالدخول تحت سلطان الإسلام وهو المعبر عنه بالذمة، ووضحه عمل النبي صلى الله عليه وسلم وذلك حين خلصت بلاد العرب من الشرك بعد فتح مكة وبعد دخول الناس في الدين أفواجا حين جاءت وفود العرب بعد الفتح، فلما تم مراد الله من إنقاذ العرب من الشرك والرجوع بهم إلى ملة إبراهيم، ومن تخليص الكعبة من أرجاس المشركين، ومن تهئية طائفة عظيمة لحمل هذا الدين وحماية بيضته، وتبين هدي الإسلام وزال ما كان يحول دون اتباعه من المكابرة، وحقق الله سلامة بلاد العرب من الشرك كما، وقع في خطبة حجة الوداع "إن الشيطان قد يئس من أن يعبد في بلدكم هذا" لما تم ذلك كله أبطل الله القتال على الدين وأبقى القتال على توسيع سلطانه،².

¹ سورة النساء، الآية: 175.

² الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م: 3، ص: 25.

المطلب الثالث: نماذج من حوارات الأنبياء عليهم السلام ودعوة أقوامهم للتوحيد.

قال تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٤١﴾ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٥﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا" ¹.

قال الزمخشري رحمه الله: "انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة: كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا وذلك أنه طلب منه أو لا العلة في خطئه طلب منه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه، لأن المعبود لو كان حيا مميزا، سميعا بصيرا، مقتدرا على الثواب والعقاب، نافعا ضارا، إلا أنه بعض الخلق: لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلامهم منزلة كالملائكة والنبين. قال الله تعالى "وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" و ذلك أن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحقق إلا لمن له غاية الإنعام:

¹ سورة مريم، الآية: 41-45.

وهو الخالق الرزاق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، الذي منه أصول النعم وفروعها. فإذا وجهت إلى غيره- وتعالى علوا كبيرا أن تكون هذه الصفة لغيره- لم يكن إلا ظلما وعتوا وغيا وكفرا وجحودا، وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور؟ فلا يسمع- يا عابده- ذكرك له وثناءك عليه، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له، فضلا أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها. ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف، وهب أنى وإياك في مسير وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه. ثم ثلث بتثبيطه ونهيهِ عما كان عليه: بأن الشيطان- الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدو أبىك آدم وأبناء جنسك كلهم- هو الذي ورطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولا رتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنائتي الشيطان"¹.

وقال تعالى عن نوح مع قومه: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَلْفُومُ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"².

قال أبو جعفر رحمه الله: "أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحاً إلى قومه، منذرهم بأسه، ومخوِّفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العبادَة، وذُلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد

¹ الكشف: ج: 2، ص: 510.

² سورة الأعراف، الآية: 59.

والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادة غيره، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك "عذاب يوم عظيم"، يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربكم¹.

"وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْفُومٌ اِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَبَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَلْفُومٌ لَّيْسَ بِي سَبَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ ۖ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَاذْكُرُوا ۖ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ۖ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً ۖ فَاذْكُرُوا ۖ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ²". قال الإمام السيوطي رحمه الله: "إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها اتخذوا أصناما على مثال ود وسواع ويغوث ونسر فاتخذوا صنما يقال له: صمود وصنما يقال له: الهتار فبعث الله إليهم هودا وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود وكان من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها وكان في مثل أجسادهم أبيض بعد أبادي العنفقة طويل اللحية فدعاهم إلى الله وأمرهم أن يوحده وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك ولم يدعهم إلى شريعة ولا إلى صلاة فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا: من أشد منا قوة فذلك قوله تعالى "وإلى عاد أخاهم هودا" كان من قومهم ولم يكن أخاهم في الدين "قال يا قوم اعبدوا الله" يعني وحدوا الله "ولا تشركوا به شيئا" ما لكم يقول: ليس لكم "من إله غيره أفلا تتقون" يعني فكيف لا تتقون "واذكروا إذ جعلكم خلفاء" يعني سكانا في الأرض "من بعد قوم نوح" فكيف لا تعتبرون فتؤمنوا وقد علمتم ما نزل

¹ الطبري، تفسير الطبري، م: 12، ص: 498.

² سورة الأعراف، 65. 69.

بقوم نوح من النعمة حين عصوه "فاذكروا آلاء الله" يعني هذه النعم "لعلكم تفلحون" أي كي تفلحوا¹.

ومن ذلك أيضا ما ورد عن النبي صالح عليه السلام مع قومه: قال تعالى:

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةٌ لَّكُمْ ءَايَةً قَدَرُوهَا تَاكُلُ مِن أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" ².

قال الزمخشري في تفسير الآية: وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحا عليه السلام، وكانوا قوما عربا وصالحا من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: آية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم، ثم قال سيدهم - جندع بن عمرو، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة - أخرج لنا من هذه الصخرة نافقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة التي شاكلت البحت - فإن فعلت صدقناك وأجبناك. فأخذ صالح عليه السلام عليهم الموائيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه

¹ جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، م.3، دار الفكر، د.ط، بيروت، 1432هـ/2011، ص: 484

² سورة الأعراف، الآية: 74.

فتمخضت الصخرة تمخض النجوم بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء. كما ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً. وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار - لما أضرت به من مواشيها وكانتا كثيرتي المواشي - فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبيها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها. فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه. فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا¹.

ومن هذه الحوارات أيضا حوار النبي سيدنا شعيب عليه السلام مع قومه:

"وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَفْقَوْمَ اءَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَفْعَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن - أَمَرَ بِهِ - وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُرسِلَتْ

¹ الكشاف: ج: 2، ص: 89.

بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ¹. قال ابن كثير رحمه الله: "قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئكم
به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا
يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية
وتدليسا"².

وبالرغم من أن الأسلوب الغالب في دعوة الأنبياء لأقوامهم هو اللين والرحمة والشفقة
عليهم، إلا أنه لا يخلو من تخويف وتهديد بعقاب الله تعالى الذي سيحل بهم حال استمرارهم
على نكرانهم وجحودهم بآيات الله الباهرات التي يرونها؛ وقد تميز الحوار في هذه الآيات باللفظ
واللين، فكل نبي يدعو قومه بـ "يا قومي" تحبباً وتلطفاً، إلا أنهم استمروا في نكرانهم وكبريائهم،
وذلك ما استدعى استعمال أسلوب فيه نوع من التهيب والشدّة والتخويف ليحملهم على
الإيمان برّبهم، ومن هذه النماذج:

1- حوار سيدنا نوح عليه السلام مع قومه.

قال تعالى: "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ
فَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّفِيمٌ³."

دعا نبي الله نوح عليه السلام قومه ردحا طويلا من الزمن، وقد جادلهم كثيرا فردوا عليه
بأنه ما هو إلا بشر مثلهم وأن أتباعه من أراذل القوم، واتهموه معهم بالكذب، فظل نوح يحاورهم
بالحسن، ويبين لهم منهجه وأنه لا يطلب منهم شيئا لنفسه، ودافع عن المستضعفين من المؤمنين،

¹ سورة الأعراف، الآية: 84-85.

² ابن كثير، تفسير ابن كثير، م.3، ص: 447.

³ سورة هود، الآية: 38-39.

لكنهم لم يلقوا لكل هذا بالا، وإنما طالبوه بالعذاب تحديا وتكديبا له، فأخبرهم أن العذاب ليس بيده وإنما هو بيد الله.

وبعد أن استفرغ طاقته، وبلغ وسعه معهم، أنبأه الله أن الغشاوة قد استحكمت على قلوبهم، وبلغ منهم العناد والكبر مبلغا حتى لم يعد يُرجى من ورائهم خير؛ فلن يؤمنوا بحال وأن عليه أن يجهز سفينة لنجاته هو ومن معه، فلما بدأ سيدنا نوح عليه السلام في إعدادها قالوا له -ساخرين-: أتحوّلت نجارا بعد النبوة؟

فلما رأى نوح استهزاءهم وسخريتهم رد عليهم بأنهم إن سخروا منه ومن المؤمنين معه فإنه هو والمؤمنون يسخرون منهم أيضا: وفي المقصود بسخرية نوح وجوه:

الأول: التقدير إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخزي في الآخرة.

الثاني: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإننا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا.

الثالث: أن تستجهلونا فإننا نستجهلكم و استجهالكم أقبح وأشد؛ لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاعتزاز بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال¹.

ثم تحول إلى تهديدهم فقال: "بَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّفِيمٌ"¹ وهذا تهديد واضح، قال ابن كثير: "وعيد شديد، وتهديد أكيد"²، وقال أبو حيان: "وفي قوله: "فسوف تعلمون"، تهديد بالغ"³.

¹ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، م. 17، ص: 224.

وهذا التهديد جاء في اللحظات الأخيرة، وبعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن أحد منهم حتى روي أن شيخا منهم جاء يتوكأ على عصا، ومعه ابنه، فقال: يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ العصا من أبيه، فضرب نوحا حتى شجّه شجرة منكّرة، فأوحى الله عز وجل إليه: "أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ". وهذا يشير إلى أنه قد وصل معهم إلى طريق مسدود.⁴

2- حوار سيدنا هود عليه السلام مع قومه.

كانت عاد قبيلة معروفة بالقوة والبطش الشديد، وقد جاءهم نبي الله هود فوعظهم ونصحهم، وخاطبهم ب: "يا قوم" فنسب نفسه إليهم، لكنهم اتهموه بالسفاهة والكذب، وطالبوه بالعذاب الذي توعدهم به وحذرهم منه فقال لهم كما أخبر القرآن: "فَالْ فَذْ وَقَعَ

عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجِدَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ"⁵.

ومعنى وقع أي: حق ووجب عليكم الغضب والعذاب من ربكم فإنكم تجادلون في أصنام تعبدونها سميتوها بأسماء مختلفة، ومالككم حجة في عبادتها فانتظروا هذا العذاب الذي

¹ سورة هود، الآية: 38.

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م. 4، ص: 320.

³ البحر المحيط، ج. 5، ص: 106.

⁴ نسبه السيوطي في الدر المنثور: ج: 8، ص: 39، ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج 62، ص: 247، وإسحق بن بشر،

وبنحوه عند القرطبي: ج: 11، ص: 108.

⁵ سورة الأعراف، الآية: 70.

تطلبونه وإني معكم لمنتظر له، قال ابن كثير: "وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه"¹ وقال أبو حيان: "وهذا غاية في التهديد والوعيد"².

وهذا القول من هود عليه السلام لم ينطقه من تلقاء نفسه، قال ابن عاشور: "وقد أخبر هود بذلك عن علم بوحى في ذلك الوقت أو من حين أرسله الله ، إذ أعلمه بأنهم إن لم يرجعوا عن الشرك بعد أن يُبلّغهم الحجّة فإنّ عدم رجوعهم علامة على أنّ خبث قلوبهم متمكّن لا يزول ، ولا يرجى منهم إيمان ، كما قال الله لنوح: "لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن"³.

ويظهر أيضا من سباق الآيات أنه توعدهم قبل ذلك بالعذاب، ومما يشير إلى ذلك قوله تعالى على لسانهم: "فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ"⁴.

3- حوار سيدنا صالح عليه السلام مع قومه.

أرسل الله نبيه صالحا إلى قوم ثمود، وجاءهم بآية هي الناقة التي تسقيهم جميعا اللبن يوما وتشرب فيه الماء وفي اليوم التالي يشربون هم الماء ، وحذرهم من أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم، قال تعالى: " وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْفَومُوا عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ فَذَٰ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَاكُلْ مِنۢ بَٰرِئِ الْأَرْضِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ"⁵

¹ ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج. 3، ص: 435.

² أبو حيان، البحر المحيط: ج: 4، ص: 418.

³ الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، م. 9، ص: 210.

⁴ الأعراف: 70 والأحقاف: 22.

⁵ سورة الأعراف، الآية: 72.

لكنهم قتلوها، فهددهم وتوعددهم كما ذكر القرآن: "فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ"¹.

ومن الطبيعي أن يهددهم نبي الله صالح بالهلاك، فقد عصوا أمر ربهم، وعقروا الناقة، وواصلوا التحدي فطلبوا منه أن يأتيهم بما وعدهم من العذاب كما ذكر المولى في كتابه: "فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ إِيَّتَنَا إِنَّمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"² فماذا كان ينتظر صالح بعد ذلك؟

لقد هددهم بالعذاب من قبل، وفي هذه المرة يتوعددهم به في خلال ثلاثة أيام، ومع هذا فإن ذكر المهلة فيه ترغيب لهم إلى المبادرة بالتوبة قبل حلول العذاب؛ فقد ذكر الرازي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان، وقريب من هذا المعنى ما ذكره الطاهر بن عاشور بقوله "وذلك التأجيل استقصاء لهم في الدعوة إلى الحق"³.

4- حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه.

قال تعالى على لسان إبراهيم: "وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْفِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ"⁴ في هذا الموضع من قصة إبراهيم في سورة العنكبوت تذكر الآيات محاوره إبراهيم لقومه، وتذكيره إياهم بعبادة الله

¹ سورة هود، الآية: 64.

² سورة الأعراف، الآية: 76.

³ التحرير والتنوير، م: 12، ص: 113.

⁴ سورة العنكبوت، الآية: 24.

وتقواه، وبيان أن هذه الأصنام لا تملك لهم ضرا ولا نفعاً، وأردف ذلك بنصحه لهم بالاعتاظ بما أصاب الأولين وأنهم لن يعجزوا الله في عذابهم ولن يكون لهم ناصر.

بعد هذه المحاورة الهادئة لم يكن منهم رد إلا أن هددوه بالقتل أو التحريق فعصمه الله منهم، وحفظه من كيدهم، فقال لهم محذراً ومخوفاً: "وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين" أي: لن تفيدكم الأصنام في الآخرة شيئاً؛ فقد اتخذتموها في الدنيا مودة بينكم وبينها، أما يوم القيامة فإن المعبود يتبرأ من العابد، ويكفر العابد بالمعبود الباطل والكل في النار، وليس لكافر من قوة ولا ناصر. وهذا تخويف لهم بالآخرة لو كانوا يعقلون.

5- حوار سيدنا شعيب عليه السلام مع قومه.

قال تعالى على لسان شعيب: "وَيَقُولُ إِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَفَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَفِيبٌ"¹. اشتهر نبي الله شعيب بأنه خطيب الأنبياء²؛ وذلك لحسن مراجعته لقومه؛ فقد نصحهم بعبادة الله وحده وترك تطيف الكيل والميزان، وكان يتلطف معهم ويذكر لهم ما أصاب الأمم السابقة، ولكنهم قابلوا دعوته بالاستهزاء والسخرية فقالوا له: (إنك لأنت الحليم الرشيد)

¹ سورة هود، الآية: 93.

² الطبري في جامع البيان: ج: 15، ص: 485، عن سفيان الثوري.

قال الطبري: "فإنهم أعداء الله، قالوا ذلك له استهزاءً به"¹، ولم يكتفوا بالاستهزاء وإنما هددوه بالقتل فقالوا: "وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ"².

ومعنى رجمناك: قتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم³. فما كان منه إلا أن خاطبهم بأسلوب الشدة متوعدا إياهم بالعذاب، قال صاحب المنار: "هذا أمر تهديد ووعيد من واثق بقوته بربه، على انفراده في شخصيته، وضعف قومه على كثرتهم، وإدلالهم عليه وتهديدهم له بقوتهم، أي: اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعصبيتكم... أو على مكانكم الذي أنتم فيه...." سوف تعلمون" هذا تصريح بالوعيد بعد التلميح لهم بالأمر بالعمل المستطاع للتعجيز"⁴

6- حوار سيدنا موسى عليه السلام مع قومه.

- دعا موسى قومه بني إسرائيل إلى توحيد الله وعبادته، وقد أرسله الله أيضا إلى أهل مصر ليدعوهم إلى دين الحق فوجد من كلا الفريقين صدودا ومعارضة. وقد عارضه فرعون وملؤه؛ فاتهمه فرعون بأنه يريد إخراجهم من ديارهم بسحره، وظنوا أن أمر موسى مبنئ على السحر وتواعدوا على أجل مسمى فأراد سيدنا موسى عليه السلام أن يخوفهم من عاقبة صنيعهم بأبلغ أسلوب فقال لهم: "وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ إِبْتَرَى"⁵. ولفظ: "ويل" يدل على الهلاك، وهو دعاء؛ دعا عليهم بالويل،

¹ الطبري: ج: 15، ص: 452 وهو قول قتادة وابن عباس وميمون بن مهران، انظر: ابن كثير: ج: 4، ص: 343، واختاره الزمخشري والبيضاوي: ج: 3، ص: 235 وأبو السعود: ج: 4، ص: 232، وهو قول أكثر أهل التفسير كما في روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ج: 4، ص: 174.

² سورة هود، الآية: 91.

³ القرطبي: ج: 11، ص: 201، وزاد المسير لابن الجوزي: ج: 4، ص: 153.

⁴ تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار: ج: 12، ص: 148، 149 باختصار.

⁵ سورة طه، الآية: 60.

ونهاهم عن افتراء الكذب. قال الزجاج: هو منصوب بمحذوف، والتقدير: ألزمهم الله ويلاً. قال: ويجوز أن يكون نداء، كقوله تعالى: "قَالُوا يَلْوِيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْفَدِنَا" ¹.

ولكن هل يعد هذا مخالفاً للخطاب اللين الذي أمر الله به موسى وهارون في هذه السورة.

لعل سيدنا موسى عليه السلام رأى أن إلانة القول لفرعون ومن معه غير نافعة؛ فهم لم يزلوا مصممين على الكفر، فأغلظ القول زجراً لهم بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييداً لمطلق الأمر بإلانة القول، كما أذن لمحمد في سورة الحج بقوله: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا..". ؛ وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين أن سحرهم معجزة لهم من آلهتهم ومن فرعون ربهم الأعلى وقالوا: "وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ" ³ رأى واجباً عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع ، لأن ذلك التغيير هو المناسب لمقام الرسالة. ⁴

- ولما أرادوا أن يصرفوا الناس عنه بالسحر هددهم بقوله: "فَلَمَّا أَفْوَأَ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ" ⁵ وهذا تحذير لهم بأن سحرهم سيبطله الله و يذهب أثره؛ فلن يضر أحداً، وهذه سنة الله مع كل مفسد، حيث لا يصلح الله عمل مفسد، وفي الكلام ذم لهم بأنهم أهل إفساد، والمعنى: إن الله لا يصلح عمل المفسدين فيدخل فيه ما قاموا به من السحر، أو يكون المعنى: إن الله لا يصلح عملكم وعلى هذا يكون التعبير بالظاهر بدل المضمّر لتسجيل الإفساد عليهم وبيان أن الإفساد هو علة

¹ سورة يس، الآية: 51.

² محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، ج.3، دار ابن كثير، ط.1، دمشق، 1414هـ، ص:532.

³ سورة الشعراء، الآية: 43.

⁴ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م.16، ص:249 بتصرف واختصار

⁵ سورة يونس، الآية: 81.

حق عملهم.¹ وقد وقع بهم تهديد موسى؛ فأبطل الله سحرهم، قال تعالى: "فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ" ².

- ولما تحاور هو وفرعون قال له: "وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرُوعُونَ مَثْبُورًا" أي: هالكا، وهذا الحوار مع فرعون جاء بعد سلسلة طويلة من المحاورات، وقد أوصى الله نبيه موسى وأخاه هارون أن يخاطبا فرعون بالأسلوب اللين، قال تعالى: "إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٥٢﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ" ³؛ وذلك لأنه المنهج الأصيل في الدعوة. قال بعض المفسرين: إن القول اللين لما لفرعون من حق التربية لموسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة⁴. ولا نرى لهذا القول وجهها وجيها؛ وهل لو رُئي سيدنا موسى عليه السلام في غير بيت فرعون وجاء ليدعو فرعون أفكان سيغلظ له في النصيح؟

إن المنهج الذي أرساه الإسلام للحوار هو الحوار بالحسنى واللين، وقد أحسن ابن كثير حين استعرض أقوال المفسرين في كيفية القول اللين ثم قال: "والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ)" ⁵.

وقد ناقشه سيدنا موسى عليه السلام بالأسلوب اللين كما أمره ربه، لكن فرعون كان رده عجيبا؛ فقد اتهم موسى بعدة أشياء:

¹ أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م. 6، دار المصحف، د. ط، القاهرة، بتصرف واسع.

² سورة الأعراف، الآية: 17-18.

³ سورة طه، الآية: 42-44.

⁴ الكشاف: ج: 2، ص: 538.

⁵ تفسير ابن كثير: ج: 5، ص: 295.

1- فقد اتهمه بأنه ساحر فقال كما ذكر القرآن: " قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ

عَلِيمٌ " ¹

2- وأتهمه بأنه مسحور فخاطبه بقوله: "إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا" ²

3- واتهمه بأنه يريد إثارة الفتن وإخراج الناس من أرضهم " يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ

أَرْضِكُمْ " ³ .

4- واتهمه بالجنون فقال كما أخبر القرآن عنه: " قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ " ⁴ .

5- وهدده بالسجن فقال لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ⁵

6- وعرض باتهامه بالكذب " إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " ⁶

7- قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ " ⁷

8- ولم يكتف بإيذاء الإسرائيليين المؤمنين وإنما كان يؤذي من آمن من أهل مصر؛ قال

تعالى: فَمَا آوَىٰ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ

أَنْ يَفْتِنَهُمْ. ⁸

¹ سورة الشعراء، الآية: 33.

² سورة الإسراء، الآية: 101.

³ سورة الشعراء، الآية: 24.

⁴ سورة الشعراء، الآية: 27.

⁵ سورة الشعراء، الآية: 29.

⁶ سورة الشعراء، الآية: 31.

⁷ سورة الأعراف، الآية: 126

⁸ سورة يونس، الآية: 83

9- وأغلق باب الإيمان على نفسه هو وقومه: "وَقَالُوا مَهْمَا تَاتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْشُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"¹.

ويبدو من تتبع المحاورات القرآنية بين موسى وفرعون أن هذه المحاورة التي توعدده فيها موسى بالهلاك كانت في المراحل المتأخرة؛ فقد تكفلت سورة طه والشعراء ببيان أول محاورة بين موسى وفرعون، وعلى هذا فلا تعارض بين القول اللين المأمور به موسى وهارون وبين هذا اللفظ، وعلى هذا فالظاهر ضعف كلام الإمام أبي حيان حيث ذهب إلى أن "كان أولاً سيدنا موسى عليه السلام يتوقع من فرعون أذى كما قال: "إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى" فأمر أن يقول له قولاً ليناً فلما قال له الله: لا تخف وثق بحماية الله، فصال على فرعون صولة المحمي وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك"³. وذلك لأن موسى ما ذهب إلى فرعون إلا وهو على يقين من نصر الله له، فما كان خائفاً من لقاء فرعون ومما يدل على ذلك أن فرعون عندما اتهم موسى بالجنون لم يسكت موسى ولم يخف وإنما خاطبه بأسلوب بليغ فيه تعريض بأنهم ليسوا ذوي عقل وذلك في قوله تعالى: "قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ

إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"²

والذي نلاحظه أيضاً أن أسلوب سيدنا موسى عليه السلام قد تدرج في الشدة؛ فقد استعمل التعريض في أول الأمر ثم لجأ إلى التصريح بعد أن وجدهم مُصْرِينَ على ما هم عليه من العناد.

¹ سورة الأعراف، الآية: 132.

² سورة الشعراء، الآية: 27-28.

المبحث الثاني: الأسس التربوية للحوار النبوي.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحاور الناس مربيا ومؤسسا لمبادئ التواصل الناجح والهادف، فهو المنزه عن اللغو، كلامه حكمة وتعليم وتوجيه، أوتي مجامع الكلم التي تأسر القلوب قبل الأسماع، وسوف نتطرق خلال هذا الفصل لهذا الجانب الذي يتجلى فيه الحرص النبوي على النصح للخلق وتوجيههم وإرشادهم لما فيه خير دنياهم وآخرتهم، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: التزكية مقصد الحوار النبوي.

لم تكن حوارات الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تحليلا من تجليات الدعوة التي يحمل لواءها ويسعى لنشرها وتبليغها للعالمين، فكان شغله الشاغل هداية الخلق إلى ربهم، حتى في أشد الأوقات التي مرت به، فلا يترك فرصة دون القيام بالوظيفة التي كلفه الله تعالى وأرسله من أجلها، وكم لين من قلب قاس بكلامه صلى الله عليه وسلم، وكم أنقذ من ضال بهمسة رقيقة نفذت إلى قلبه، وغاذج ذلك في سيرته العطرة كثيرة نكتفي منها بما يلي:

لما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبللة من عنب، فجلس فيه. وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة التي من بني جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك فلما رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده، قال:

باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قالوا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالوا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه¹.

هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يترك فرصة إلا و انتهزها للدعوة إلى الله تعالى، واستطاع بأسلوبه النابع من الرحمة أن يمتلك قلوب الناس، فهذا عداس ينكب على قدميه الشريفتين يقبلهما دون أن يعير اهتماما لمن بعثاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أيقن أنه رسول حق وسمع منه ما جعل نفسه تطمئن إليه وتستلقي بين قدميه.

ومن ذلك أيضا ما روي "أن الرسول صلى الله عليه وسلم غزا غزوة بذي أمر في شهر ربيع الأول، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا أمر عسكر به ذا من غطفان، أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطر قبل ثوبه، ثم نزع ثيابه فعلقها على شجرة ليستجفها ونام تحتها، فقالت غطفان لدعثور بن الحارث وكان شجاعا: تفرد محمد من أصحابه وأنت لا تجد أخلى منه الساعة! فأخذ سيفا صارما ثم انحدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجع ينتظر جفوف ثيابه، فلم يشعر إلا بدعثور بن الحارث واقف على رأسه بالسيف وهو يقول: من يمنعك

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 1، ص: 421.

مني؟ يا محمد! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله! ودفعه جبريل في صدره فوق سيف من يده، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف، ثم قام على رأسه وقال: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قم فاذهب لشأنك، فلما ولى قال: أنت خير نبي يا محمد! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أحق بذلك منك"، فلما سمعت الأعراب من غطفان برسول الله صلى الله عليه وسلم لحقت بذي الجبال، فلما أعجزوه رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة"¹.

المطلب الثاني: الرحمة النبوية في الحوار والجدل.

لقد بعث الله تعالى نبيه لهداية الناس إلى خالقهم، فقال سبحانه مختصرا رسالته والقصد من بعثته: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"²

قال القرطبي رحمه الله: "فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم خلق بنفسه رحمة، فلذلك صار أمانا للخلق، لما بعثه الله أمن الخلق العذاب إلى نفخة الصور. وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا المحل، ولذلك قال عليه السلام: "أنا رحمة مهداة" يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله. وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق"³.

وقال ابن عاشور رحمه الله: "وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلمًا وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين، فهذه الجملة عطف على جملة "وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً"

¹ ابن حبان السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تحقيق: الحافظ السيد عزيز بك، ج.1، الكتب الثقافية، ط.3، بيروت، 1417هـ، ص: 215.

² سورة الأنبياء، الآية: 106

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م.4، ص: 63.

لِّلْعَلَمِينَ" ¹ ختاماً لمناقب الأنبياء، وما بينهما اعتراض واستطراد. وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه ².

وقد تقدم حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش. قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في" ³.

وعنها أيضاً رضي الله عنها قالت: "سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: اللهم من ولي من أمي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فارفق به" ⁴.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحت عن وجوب الاتصاف بخلق الرحمة، وقد تجلت في الرسول صلى الله عليه وسلم في أحسن ما يمكن أن يكون، قال الله تعالى واصفاً إياه: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ" ⁵.

اعلم أنه تعالى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بخمسة أنواع من

الصفات:

¹ سورة الأنبياء، الآية: 90.

² التحرير والتنوير: ج: 17، ص: 165.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً.

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالبرية والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

⁵ سورة التوبة، الآية: 128.

الصفة الأولى: قوله: من أنفسكم وفي تفسيره وجوه: الأول: يريد أنه بشر مثلكم كقوله: أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم، وقوله: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ"¹ والمقصود أنه لو كان من جنس الملائكة لصعب الأمر بسببه على الناس، على ما مر تقريره في سورة الأنعام. والثاني: من أنفسكم أي من العرب قال ابن عباس: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي عليه السلام بسبب الجدات، مضرها وربيعةا وبمانيها، فالمضريون والربيعةيون هم العدنانية، واليمنيون هم القحطانية ونظيره قوله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ"²، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم والثالث: من أنفسكم خطاب لأهل الحرم، وذلك لأن العرب كانوا يسمون أهل الحرم أهل الله وخاصته، وكانوا يخدمونهم ويقومون بإصلاح مهماتهم فكأنه قيل للعرب: كنتم قبل مقدمه مجدين مجتهدين في خدمة أسلافه وآبائه، فلم تتكاسلون في خدمته مع أنه لا نسبة له في الشرف والرفعة إلى أسلافه؟

والقول الرابع: أن المقصود من ذكر هذه الصفة التنبيه على طهارته، كأنه قيل: هو من عشيرتكم تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة، وتعرفون كونه حريصا على دفع الآفات عنكم وإيصال الخيرات إليكم، وإرسال من هذه حالته وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم. وقرئ من أنفسكم أي من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما.

الصفة الثانية: قوله تعالى: عزيز عليه ما عنتم اعلم أن العزيز هو الغالب الشديد، والعزة هي الغلبة والشدة. فإذا وصلت مشقة إلى الإنسان عرف أنه كان عاجزا عن دفعها إذ لو قدر على دفعها لما قصر في ذلك الدفع، فحيث لم يدفعها، علم أنه كان عاجزا عن دفعها، وأنها

¹ سورة فصلت، الآية: 5.

² سورة آل عمران، الآية: 164.

كانت غالبية على الإنسان. فلهذا السبب إذا اشتد على الإنسان شيء قال: عز علي هذا، وأما العنت فيقال: عنت الرجل يعنت عنتا إذا وقع في مشقة وشدة لا يمكنه الخروج منها، ومنه قوله تعالى: "ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ"¹، وقوله: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتَكُمْ"²، وقال الفراء: "ما" في قوله: ما عنتم في موضع رفع، والمعنى: عزيز عليه عنتم، أي يشق عليه مكروهكم، وأولى المكاه بالدفع مكروه عقاب الله تعالى، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه. والصفة الثالثة: قوله: حريص عليكم والحرص يمتنع أن يكون متعلقا بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة. واعلم أن على هذا التقدير يكون قوله: عزيز عليه ما عنتم معناه: شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وبهذا التقدير لا يتصل التكرار. قال الفراء: الحريص الشحيح، ومعناه: أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار، وهذا بعيد، لأنه يوجب الخلو عن الفائدة. والصفة الرابعة والخامسة: قوله: بالمؤمنين رؤوف رحيم قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه³

المطلب الثالث: نماذج من حوارات الأنبياء عليهم السلام في التزكية.

لقد كان موضوع تزكية النفوس وتطهيرها من مقاصد الرسالات السماوية جميعا، وذلك بالحث على العبادات التي افترضها الله على عباده والتقرب إليه بشتى أنواع القربات، قال تعالى: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"⁴

¹ سورة النساء، الآية: 25.

² سورة البقرة، الآية: 218.

³ تفسير الرازي: ج: 16، ص: 178.

⁴ سورة البقرة الآية 128.

قال الطبري رحمه الله:

"الحكمة: العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذ من "الحكم" الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة "الجلسة والقعدة" من "الجلوس والعود"، يقال منه: "إن فلانا لحكيم بين الحكمة"، يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها¹.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله:

"ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم"

كرر النداء لأنه عطف غرض آخر في هذا الدعاء وهو غرض الدعاء بمجيء الرسالة في ذريته لتشریفهم وحرصا على تمام هديهم.

وإنما قال: فيهم ولم يقل لهم لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة فلا يكون ذلك

الرسول رسولا إليهم فقط، ولذلك حذف متعلق رسولا ليهم، فالنداء في قوله: ربنا وابعث اعتراض بين جمل الدعوات المتعاطفة، ومظهر هذه الدعوة هو محمد صلى الله عليه وسلم فإنه الرسول الذي هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأما غيره من رسل غير العرب فليسوا من ذرية إسماعيل، وشعيب من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسماعيل، وهود وصالح هما من العرب العاربة فليسوا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل².

وقد امتن الله على عباده ببعثة رسوله فيهم وذكر من مقاصد إرساله أن يزكي نفوس

الناس ويطهرها، قال جل شأنه: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

¹ تفسير الطبري: ج: 3، ص: 87.

² التحرير والتنوير: ج: 1، ص: 722.

أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ آيَاتِهِ ۚ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَعِبِ ضَلَّالٍ مُبِينٍ

قال الألوسي رحمه الله:

"يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ إما صفة أو حال أو مستأنفة وفيه بعد أي يتلو عليهم ما يوحى إليه
من القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي أو بعد ما كان بعضهم
كذلك وبعضهم متشوقا متشوقا إليه حيث أخبر كتابه الذي بيده بنزوله وبشر به وَيُزَكِّيهِمْ أي
يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كان فيهم من دنس الجاهلية، أو من خبائث
الاعتقادات الفاسدة كالاقتقادات التي كان عليها مشركو العرب وأهل الكتابين، أو يشهد بأنهم
أزكيا في الدين، أو يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها قاله الفراء - ولا يخفى بعده ومثله القريب
إليه وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ قد تقدم الكلام في ذلك.

وهذا التعليم معطوف على ما قبله مترتب على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التي هي
عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية
الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيدان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على
حيالها مستوجبة للشكر"¹.

ومن هذه الحوارات التي يتجلى فيها مقصد التزكية : حوار هود عليه السلام مع قومه،
إذ أمرهم بالاستغفار والتوبة: قال تعالى:

وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ فَأَلَوْا يَلْهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ

¹ روح المعاني: ج: 2، ص: 326.

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ يَثْرَآءَ إِلَهَيْنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا
 إِغْتَرَبَ لَكَ بَعْضُ آلِ يَثْرَآءَ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنْتَ بَرٌّ مِّمَّا
 تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ¹

قال الرازي رحمه الله:

"اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكاليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومه، وذلك
 لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة،
 والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة. قال أبو بكر الأصم: استغفروا: أي سلوه أن يغفر
 لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعدوا إلى
 مثله ثم إنه عليه السلام قال: "إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على
 الانتفاع بتلك النعم"، وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر
 الانتفاع وإن كانت حاصلة، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا،
 أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها، فهنا تحصل غاية السعادة
 والبهجة فقوله تعالى: يرسل السماء عليكم مدرارا إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم
 هي الأمطار الموافقة، وقوله: ويزدكم قوة إلى قوتكم إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن
 الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات وأن
 الزيادة عليها ممتعة في صريح العقل، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في
 هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية، وأما المفسرون فإنهم قالوا القوم كانوا مخصوصين في
 الدنيا بنوعين من الكمال: أحدهما: أن بسايتهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة،
 والدليل عليه قوله: "إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٥٦﴾ إِلَٰهِي لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ"² والثاني: أنهم

¹ سورة هود، الآية: 53/52.

² سورة الفجر، الآية: 7، 8.

كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا: "وَقَالُوا مَنَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً"¹، ولما كان بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام، أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة"².

وقال القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: "وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم" عطف على الأول. "ثم توبوا إليه" أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفراء: "ثم" هنا بمعنى الواو، أي وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب. ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر"³.

¹ سورة فصلت، الآية: 15.

² تفسير الرازي: ج: 13، ص: 364.

³ تفسير القرطبي: ج: 3، ص: 9.

المبحث الثالث: الأسس التعليمية التوجيهية للحوار النبوي.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعليم الناس وإرشادهم في كل المناسبات، وقد ظهر هذا المقصد أيضا في حوارهِ عليه السلام، وسنتناول في هذا المبحث صورا من ذلك على شكل مطال:

المطلب الأول: التوجيه والإرشاد والتعليم:

لقد أثبت القرآن الكريم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معلم للناس والبشرية جمعاء، على أميته وصحراوية بيئته.

قال الله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَیْسَ بِضَلَّالٍ مُّبِينٍ"¹

وقال تعالى: "وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفِّى بِاللَّهِ شَهِيدًا"².

وقد أثبتت السنة المطهرة أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم معلم هاد وبصير.

فعن عبد الله بن عمرو، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين، إحداهما يقرءون القرآن، ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن،

¹ سورة الجمعة، الآية: 2.

² سورة النساء، الآية: 78.

ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما» فجلس معهم¹.

وعن جابر بن عبد الله، قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه، واجما ساكتا، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتني النفقة، فقممت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "هن حولي كما ترى، يسألني النفقة"، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا - أو تسعا وعشرين - ثم نزلت عليه هذه الآية: "يا أيها النبي قل لأزواجك " حتى بلغ "للمحسنيات منكن أجرا عظيما"، قال: فبدأ بعائشة، فقال: "يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشير أبيك"، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا، ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا"².

وعن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبأي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله

¹ رواه ابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، باب: من بلغ علما.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، رقم: 29.

ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله، ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالا يأتون الكهان، قال: "فلا تأثم" قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: "ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنكم" قال قلت: ومنا رجال يخطون، قال: "كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك" قال: وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: "أثني بها" فأتيتها بها، فقال لها: "أين الله؟" قالت: في السماء، قال: "من أنا؟" قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها، فإنها مؤمنة"¹

تنوع أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليمه الناس أحكام الشريعة، وكان أسلوب الحوار من بين أهم الأساليب التي استعملها عليه الصلاة والسلام، وسنمثل في هذا المبحث لهذا الأسلوب النبوي ومدى فعاليته.

إن المستقرئ لكتاب الله تعالى يجد فيه حضور هذا الأسلوب، فالصحابه رضي الله عنهم كثيرا ما كانوا يسألون الرسول عن حكم من الأحكام، فينزل القرآن جوابا عن أسئلتهم، ومن نماذج ذلك قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْبَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"².

وقال تعالى:

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: تحريم الكلام في المساجد ونسخ ما كان من إباحته.

² سورة البقرة، الآية: 217.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْبِي فُلٍ اِصْلَاحٍ لَهُمْ خَيْرٌ وَّ اِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَاِخْوَانُكُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَآ غَنَتَكُمْ اِنَّ
اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ¹.

وقال تعالى:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ فُلْ هُوَ اَذَىٰٓ فَاَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّٰى يَطْهَرْنَ فَاِذَا تَطَهَّرْنَ فَاَتْوَهُنَّ مِنْ حَيْثُ اَمَرَكُمُ اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ
يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"².

ومن الأمثلة التي تظهر هذا الجانب الحواري في تعليمه صلى الله عليه وسلم صحابته ما
رواه عبد الله بن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من الشجر شجرة لا يسقط
ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟" فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها
النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: "هي النخلة" قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: "لأن تكون قلتها
أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا"³.

قال ابن بطال في شرحه: "معنى طرح المسائل على التلاميذ لترسخ في القلوب وتثبت،
لأن ما جرى منه في المذاكرة لا يكاد ينسى. وفيه: ضرب الأمثال بالشجر وغيرها، وشبه "صلى
الله عليه وسلم" النخلة بالمسلم، كما شبهها الله في كتابه، وضرب بها المثل للناس، فقال: "أَلَمْ

¹ سورة النساء، الآية: 220.

² سورة البقرة، الآية: 218.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب.

تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ "يعنى النخلة التي" تؤتي أكلها كل حين¹2".

وقد بوب البخاري لهذا الحديث بقوله " باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم " ليعبر عن أسلوب من أساليب الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليمه أصحابه رضي الله عنهم، وتتجلى قيمة هذا الأسلوب الحوارى والمثيل في تنشيط أذهان المستمعين واختبارهم في الاستنباط بأسرع ما يمكن، وهذا من شأنه تكوين ملكة فكرية لدى الطلاب دون الاعتماد دائما على أسلوب التلقين والحفظ والعرض، فيكون الطالب مشاركا في استخلاص المفاهيم وبناء القواعد، وهو أسلوب أجدر أن يأتي بنتائج أكثر من الأساليب التقليدية المعتادة.

المطلب الثاني: الإصلاح مقصد النصح.

لقد اهتم الإسلام بالعلاقة بين الناس فحرص على جعلها علاقة مبنية على روابط الأخوة الدينية، يحترم الناس بعضهم البعض، ويتعاونون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان.

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم مدار رسالته ومحورها "النصيحة"، فعن تميم الدارى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"³.

¹ سورة إبراهيم، الآية: 26.

² ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ج: 3، ص: 141.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

قال الإمام النووي في شرحه: "هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الاسلام كما سنذكره من شرحه وأما ما قاله جماعات من العلماء أن أحد أرباع الاسلام أي أحد الاحاديث الاربعة التي تجمع أمور الإسلام فليس كما قالوه بل المدار على هذا وحده"¹.

ثم نقل عن الخطابي وغيره من العلماء فيها كلاما نفيسا فقال: "وأنا أضمر بعضه إلى بعض مختصرا قالوا أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الايمان به ونفى الشريك عنه وترك الاحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته والحب فيه والبغض فيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته وشكره عليها والاخلاص في جميع الامور والدعاء إلى جميع الاوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف في جميع الناس أو من أمكن منهم عليها"².

قال الخطابي رحمه الله وحقيقة هذه الاضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه فالله تعالى غني عن نصح الناصح وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأن كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها واقامة حروفه في التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث عن عموميه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرناه من نصيحته وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتصديقه على الرسالة والايمان بجميع ما جاء به وطاعته في امره ونهيهِ ونصرتة حيا وميتا ومعاداة عن عاداه وموالاة من والاه واعظام حقه وتوقيره واحياء طريقته وسنته وبث دعوته ونشر شريعته ونفى التهمة عنها واستثارة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها والتلطف في تعلمها

¹ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، ط. 2، بيروت، 1392، ص: 36.

² النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، ج: 3، ص: 36.

وتعليمها واعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها والامساك عن الكلام فيها بغير علم وإجلال أهلها لانتسابها إليها والتخلق باخلاقه والتأدب بآدابه ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم وتآلف قلوب الناس لطاعتهم قال الخطابي رحمه الله ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات اليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمر المسلمين من اصحاب الولايات وهذا هو المشهور¹

وحكاه أيضا الخطابي ثم قال وقد يتأول ذلك على الائمة الذين هم علماء الدين وأن من نصيحتهم قبول ما روهه وتقليدهم في الأحكام وإحسان الظن بهم وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاية الأمر فأرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم فيعلمهم ما يجهلون من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم وسد خلاصهم ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط همهم إلى الطاعات وقد كان في السلف رضى الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الاضرار بدنياه والله اعلم هذا آخر ما تلخص في تفسير النصيحة².

¹ المرجع السابق، ج: 2، ص: 39.

² النووي، شرح صحيح مسلم، ج: 2، ص: 39.

قال ابن بطال رحمه الله في هذا الحديث: "إن النصيحة تسمى ديناً وإسلاماً وأن الدين يقع على العمل كما يقع على القول قال والنصيحة فرض يجزى فيه من قام به ويسقط عن الباقي قال والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه فإن خشى على نفسه أذى فهو في سعة"¹.

المطلب الثالث: نماذج حوارية في السيرة النبوية للتعليم والإرشاد.

تزخر السيرة النبوية العطرة بنماذج من الحوارات التعليمية والتوجيهية بأسلوب نبوي راق، نكتفي بأمثلة منها:

عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد، فدخل رجل، فصلّى، ثم جاء، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليه السلام، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فصلّى، ثم جاء، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ارجع فصل، فإنك لم تصل، ثلاثاً، فقال: والذي بعثك بالحق، فما أحسن غيره، فعلمني، قال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها"².

وذكر ابن حجر رحمه الله الفوائد التعليمية والتوجيهية من هذا الحديث فقال:

وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم وجوب الإعادة على من أخل بشيء من واجبات الصلاة وفيه أن الشروع في النافلة ملزم لكن يحتمل أن تكون تلك الصلاة كانت فريضة فيقف الاستدلال وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحسن التعليم بغير تعنيف وإيضاح

¹ المرجع السابق، ج: 2، ص: 39.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب: من رد فقال: وعليك السلام، ورواه الإمام مسلم في صحيحه مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

المسألة وتخليص المقاصد وطلب المتعلم من العالم أن يعلمه وفيه تكرار السلام ورده وإن لم يخرج من الموضع إذا وقعت صورة انفصال وفيه أن القيام في الصلاة ليس مقصودا لذاته وإنما يقصد للقراءة فيه وفيه جلوس الإمام في المسجد وجلوس أصحابه معه وفيه التسليم للعالم والانقياد له والاعتراف بالتقصير والتصريح بحكم البشرية في جواز الخطأ وفيه أن فرائض الوضوء مقصورة على ما ورد به القرآن لا ما زادته السنة فيندب وفيه حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ولطف معاشرته وفيه تأخير البيان في المجلس للمصلحة وقد استشكل تقرير النبي صلى الله عليه وسلم له على صلاته وهي فاسدة على القول بأنه أخل ببعض الواجبات وأجاب المازري بأنه أراد استدراجه بفعل ما يجهله مرات لاحتمال أن يكون فعله ناسيا أو غافلا فيتذكره فيفعله من غير تعليم وليس ذلك من باب التقرير على الخطأ بل من باب تحقق الخطأ وقال النووي نحوه قال وإنما لم يعلمه أولا ليكون أبلغ في تعريفه وتعريف غيره بصفة الصلاة المجزئة وقال بن الجوزي يحتمل أن يكون ترديده لتفخم الأمر وتعظيمه عليه ورأى أن الوقت لم يفته فرأى إيقاظ الفطنة للمتروك وقال بن دقيق العيد ليس التقرير بدليل على الجواز مطلقا بل لا بد من انتفاء الموانع ولا شك أن في زيادة قبول المتعلم لما يلقي إليه بعد تكرار فعله واستجماع نفسه وتوجه سؤاله مصلحة مانعة من وجوب المبادرة إلى التعليم لا سيما مع عدم خوف الفوات إما بناء على ظاهر الحال أو بوحى خاص وقال النوربشتي إنما سكت عن تعليمه أولا لأنه لما رجع لم يستكشف الحال من مورد الوحي وكأنه اغتر بما عنده من العلم فسكت عن تعليمه زجرا له وتأديبا وإرشادا إلى استكشاف ما استبهم عليه فلما طلب كشف الحال من مورده أرشد إليه انتهى لكن فيه مناقشة لأنه إن تم له في الصلاة الثانية والثالثة لم يتم له في الأولى لأنه صلى الله عليه وسلم بدأه لما جاء أول مرة بقوله ارجع فصل فإنك لم تصل فالسؤال وارد على تقريره له على الصلاة الأولى كيف لم ينكر عليه في أثنائها لكن الجواب يصلح بيانا للحكمة في تأخير البيان بعد ذلك والله أعلم وفيه حجة على من أجاز القراءة بالفارسية لكون ما ليس بلسان العرب لا يسمى قرآنا قاله عياض وقال النووي وفيه وجوب القراءة في الركعات كلها وأن المفتي إذا سئل عن شيء وكان هناك شيء آخر

يحتاج إليه السائل يستحب له أن يذكره له وإن لم يسأله عنه ويكون من باب النصيحة لا من الكلام فيما لا معنى له وموضع الدلالة منه كونه قال علمني أي الصلاة فعلمه الصلاة ومقدماتها¹.

ومن الأحاديث التي أرشد فيها النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم ما رواه أبو ذر رضي الله عنه: أن ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: "أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة"، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"².

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث:

"في هذا الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضار النية في المباحات وذكر العالم دليلاً لبعض المسائل التي تخفى وتنبيه المفتي على مختصر الأدلة وجواز سؤال المستفتي عن بعض ما يخفى من الدليل إذا علم من حال المستؤل أنه لا يكره ذلك ولم يكن فيه سوء أدب والله أعلم قوله صلى الله عليه وسلم"³

¹ فتح الباري: ج: 2، ص: 281.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، رقم 720.

³ شرح النووي على مسلم: ج: 7، ص: 93.

الفصل الرابع:

أسس الحوار النبوي في المجال التربوي والتعليمي.

المبحث الأول: الحوار النبوي في المجال التربوي.

المبحث الثاني: الحوار النبوي في المجال التعليمي.

المبحث الثالث: الحوار مدخلا لفتح المهارات في محافل العلم.

المبحث الأول: الحوار النبوي في المجال التربوي.

من خلال ما سبقت دراسته من الحوارات النبوية تبين أنها ركزت على الأساس التربوي الذي تجلت ملامحه في بناء الشخصية المسلمة القادرة على تأثيل مجتمع أخوي ساهم في قيادة الأمة نحو قيم التعايش والتعارف والحوار.

إن البحث في قضايا السيرة النبوية المرتبطة بموضوع الحوار في علاقته بالتربية، يُمكن الدارس من الوقوف على وقائع وأحاديث كثيرة تتضمن هذه العلاقة المرتكزة على بناء مجموعة من القيم، منها على سبيل المثال لا الحصر:

المطلب الأول: الحوار النبوي وأثره في بناء قيمة العفة.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا ! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: ادنه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأهلك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء¹.

اشتمل هذا الحديث على حوار تربوي، جرى بين الرسول والفتى السائل حول فاحشة الزنا حيث انتهج النبي معه أسلوب الحوار المرتكز على الاستدلال العقلي قصد إقناع المخاور

¹ رواه أحمد في مسنده، شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط. 1، 1421 هـ - 2001 م ج 5، ص 256.

بخطورة الزنا لإبعاده عنها، قصد التحلي بقيمة العفة كقيمة اجتماعية ضرورية في تماسك المجتمع المسلم.

المطلب الثاني: الحوار النبوي وأثره في بناء قيمة احترام الرأي المخالف وتقديره.

ونمثل لذلك بحوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحباب بن منذر بن الجموح رضي الله عنه يوم بدر، قال ابن إسحاق في حديثه عنها: "ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ..، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ييادهم إلى الماء، حتى أدنى ماء من بدر نزل عليه."

وأضاف رحمه الله: فَخُذْتُ عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ الْحَبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزَلًا أَنْزَلَكُمُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنْ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلُهُ، ثُمَّ نَعُورُ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقُلُوبِ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلُؤُهُ مَاءً، ثُمَّ نَقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرِبُ وَلَا يَشْرِبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أَشْرَتِ بِالرَّأْيِ، فَانْهَضْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ، فَسَارَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقُلُوبِ فَعُورَتْ وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلْبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ¹.

اشتهرت هذه القصة في كتب السيرة، وتعتبر من الحوارات النبوية المثلى التي برزت فيها قيمة احترام الرأي المخالف وتقديره، حيث اختار النبي صلى الله عليه وسلم رأي الحباب بن المنذر لما رآه خيارا سيمكن المسلمين من اتخاذ مكان استراتيجي لمجابهة العدو وإرباكه، مما يبين أهمية الاستماع للرأي المخالف والإنصات إلى حجته.

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص 192.

المطلب الثالث: الحوار النبوي وأثره في بناء قيمة الوفاء والإيثار.

ومن ذلك أيضا حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأنصار، حيث قال: "أما والله لو شئتم لقلت، فصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار " قال: فبكى القوم حتى أخصلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا " ¹

يتضح من خلال هذا الحوار التربوي، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثار عواطف الأنصار وخاطبهم بما يجول في صدورهم، فكانت الاستجابة سريعة، وكان الأثر بليغاً على نفوسهم، فنقل عليه الصلاة والسلام الحوار من مستوى دنيوي مادي إلى مستوى أخروي روحي، بهدف إفهام الأنصار مقاصد التوزيع. فصار الحوار في هذه القضية وسيلة لأداء الوظيفة التربوية التي عمل المصطفى صلى الله عليه وسلم من خلالها على بناء جيل من الصحابة متمسكا بقيم سامية كالوفاء والإيثار، التي أسهمت في بناء مجتمع أخوي، قادر على نشر الدعوة الإسلامية في كافة بقاع العالم.

وما أحوج المجتمعات المعاصرة إلى تبني مثل هذه القيم في حواراتها لأنها تؤسس إلى ثقافة الاعتراف بالآخر وتحقيق التعايش بين الحضارات المتعددة.

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص: 499.

المطلب الرابع: الحوار النبوي وأثره في بناء قيم الصدق والبذل والطاعة والرحمة.

وتتجلى هذه القيم في قصة الثلاثة الذين خلفوا على الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وهم مالك بن كعب ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، تاب الله تعالى عنهم فقال سبحانه وتعالى: " وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " ¹

غزوة كان وقعها التربوي على نفوس الصحابة الثلاثة بليغا، وعلى غيرهم كذلك لخطورة الخروج عن الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغير عذر مقبول.

لما عاد المسلمون من الغزوة، بدأ المخلفون يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويخلقون المعاذير باستثناء الثلاثة. نروي القصة بما اشتملت عليه من حوارات لنستكشف قيم الصدق والرحمة والبذل.

" قال كعب بن مالك: ... فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك، حضرتي بثي ²، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أنني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقته، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضب، ثم

¹ سورة التوبة، الآية: 119.

² بثي: حزني.

قال لي: تعال، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذبا لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك. فقممت، وثار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك فو الله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقاتلك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبائي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت¹ جدار حائط أبي قتادة. وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فو الله ما رد علي

¹ تسورت: علوت.

السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينما أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي¹ يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل علي كعب ابن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني، فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكتب كتابا في سرقة من حرير، فإذا فيه: "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك". قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور، فسجرت² بها. فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إلي، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا استأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لي في ذلك إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما

¹ النبطي: واحد النبط، وهم قوم من الأعاجم.

² سجرت. ألهبته.

رحبت، وضافت علي نفسي، وقد كنت ابتليت خيمة في ظهر سلع، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج.

...ثم انطلقت أتيّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون:

ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله، فحياني وهنأني، وو الله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي، ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: أؤمن عندك يا رسول أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخير، وقلت: يا رسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت، والله ما أعلم أحدا من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلاني الله، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وأنزل الله تعالى: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، إلى قوله: "وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِیْنَ"¹. قال كعب: فو الله ما أنعم الله

¹ سورة التوبة، الآيات: 118 - 119.

علي نعمة قط بعد أن هداي للإسلام كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، أن لا أكون كذبتة، فأهلك كما هلك الذين كذبوا"¹.

تضمن حوار الرسول صلى الله عليه وسلم وكعب بن مالك إضافة إلى القيمة الرئيسية والجلية الصدق قيم الطاعة والبذل والرحمة، وشواهد ذلك:

قيمة الطاعة تمثلت في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة بمقاطعتهم، ثم دعوة الثلاثة الله إلى اعتزال نسائهم. " فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك "

أما قيمة البذل تجلت في إرادة كعب بن مالك بوهب ماله كله في سبيل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. " قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله "

وقيمة الرحمة تجلت في جواب المصطفى عليه الصلاة والسلام " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. "

ومن النماذج الحوارية للنبي صلى الله عليه وسلم التي تؤكد على قيمة الصدق، الحوار الذي جرى بينه وبين الأعرابي الذي أتى يسأله عن الدين.

" عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ... كان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع. فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال "صدق". قال فمن خلق السماء قال "الله". قال فمن خلق الأرض قال "الله". قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل . قال " الله ". قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك قال "نعم". قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال " صدق ". قال فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا قال "

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص، 532 . 537.

نعم " . قال وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال: " صدق " . قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا قال: " نعم " . قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال: " صدق " . قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا قال: " نعم " . قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال: " صدق " . قال: ثم ولي . قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال: النبي صلى الله عليه وسلم " لئن صدق ليدخلن الجنة ¹ "

حوار تربوي تضمن تراجعا في الكلام بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والأعرابي، الهدف منه معرفة الحق من أجل العمل به، فبين هذا الحوار قيمة الصدق باعتبارها قيمة أساسية في سلوك المسلم، ودلالة على تطابق الظاهر مع الباطن، فكانت النتيجة الفوز والظفر بالجنة، يقول الله تعالى: "بِمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَاذِبِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوَٰلَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" ²

إذا كان الحوار النبوي في التربية أسهم في بناء قيم أخلاقية في الشخصية المسلمة، فإن الجانب التعليمي كان حاضرا كذلك في حواراته عليه الصلاة والسلام مع الآخر، من خلال نماذج حوارية نتطرق إليها في المبحث الموالي.

¹ رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان.

² سورة الزمر، الآيتان 31-32.

المبحث الثاني: الحوار النبوي في المجال التعليمي.

إن الدراسات الحديثة لقضية العلم أكدت أن الأسلوب الأمثل في بناء الإنسان الفرد الصالح في نفسه والمصلح لغيره يكمن في امتلاك القدرة على الانفتاح على الآخرين، ليستمد منهم ما يبني به شخصيته، من خلال الإنصات والتتبع للرسالة.

وإذا فحصنا كتب السيرة النبوية نجد أحاديث كثيرة في الحوار النبوي جاءت في سياق التعليم والتعلم، نذكر أحدها قصد استكشاف بعض المعاني والمقاصد من انتهاج أسلوب الحوار في إكساب واكتساب المتعلم مضامين معينة.

حوار الرسول صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء، يتطاولون

في البيان. قال: ثم انطلق. فلبث مليا، ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"¹.

يعتبر هذا الحديث من أهم الأحاديث النبوية التي اهتم بها العلماء كثيرا للمعاني التي يحملها، نذكر بعض أقوالهم قبل ربطه بموضوع الدراسة المتصلة بالحوار.

قال النووي رحمه الله: "واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعا من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، بل هو أصل الإسلام، كما حكيناه عن القاضي عياض"²

وقال ابن دقيق العيد في شرح الأربعين النووية: "فهو كالأم للسنة، كما سميت الفاتحة أم القرآن، لما تضمنته من جمعها معاني القرآن".³

ولأهمية هذا الحديث في تعليم المسلمين الدين، نهج الرسولان سيدنا محمد وسيدنا جبريل عليهما أفضل الصلاة والسلام أسلوب الحوار لإيصال المعاني والرسائل الكبرى، حوار نجده أحسن نموذجا في التعليم. اشتمل على مكونات العملية الحوارية؛ الأطراف المتحاور، الهدف من الحوار، مكان وزمان الحوار، موضوع الحوار.

✓ الأطراف المتحاور:

1- المحاور الأول: سيدنا جبريل عليه السلام.

جبريل عليه السلام ملك مقرب مكلف بالوحي، وسيد الملائكة له ستمائة جناح، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح قد سدّ الأفق"⁴، ومن أهم لقاءات رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل: لقاءه به

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة.

² الإمام النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، باب الإيمان، ج1، ص160.

³ ابن دقيق العيد، شرح الأربعين حديثا النووية للإمام النووي، المكتبة الفيصلية، مكة، د.ط، ص14.

⁴ رواه أحمد في مسنده، ج1، ص412، رقم 3915.

في غار حراء عند نزول الوحي، وكذلك مرافقته له عليه السلام رسول الله عليه السلام في رحلة الإسراء والمعراج، وقد ذكر القرآن الكريم جبريل عليه السلام باسمه ثلاث مرات:

- مرتان في سورة البقرة، قال الله تعالى: "فُلْ مَسْ كَانْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٦﴾ مَسْ كَانْ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ لِّلْكَافِرِينَ" ¹.

- ومرة في سورة التحريم، قول الله عز وجل: "إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ" ².

وسمى القرآن الكريم جبريل عليه السلام بالروح الأمين، والروح القدس.

أما صفاته في القرآن الكريم، نذكر منها:

الأمانة: قال الله تعالى: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ" ³، والمقصود بالروح الأمين جبريل عليه السلام.

¹ سورة البقرة، الآية: 96-97.

² سورة التحريم، الآية: 4.

³ سورة الشعراء، الآية: 193-195.

العلم: لقول الله تعالى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَلْبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفْصَىٰ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ فَابٍ فَوْسِسٍ أَوْ آدِنِيٍّ ﴿٩﴾ فَأَوْجَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْجَىٰ" ¹ ، والشاهد هنا قوله "علمه شديد القوى".

القوة: ودليل ذلك قوله عز وجل: "شديد القوة".

جاء في تفسير ابن كثير أن هذه الآيات نزلت في جبريل عليه السلام، وُصف فيها بالشديد القوي، والمنظر الجميل، والخلق الحسن.

وفي الحديث موضع الدراسة جاء جبريل على صفة رجل شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، ليتبين للحاضرين أهمية الرسالة التي يحملها جبريل عليه السلام للمسلمين في بيان معنى الدين ومراتب الناس فيه.

أما وظيفة ملك الوحي في هذا الحوار التعليمي هو السؤال عن قضايا في الدين بقصد تفهيمها للمسلمين.

2- المحاور الثاني: الرسول صلى الله عليه وسلم.

الرسول صلى الله عليه وسلم هو خير الخلق، وخاتم الرسل، الصادق الأمين، وصفه الله تعالى فقال: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلْفَىٰ عَظِيمٍ" ²، شافع أمته يوم القيامة، أول من ينشق عنه القبر،

¹ سورة النجم، الآية: 1-10.

² سورة القلم، الآية: 4.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع"¹.

وهو قدوة الخلق، قال الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"²، ووظيفته في الحوار التبليغ والبيان عن الله عز وجل.

3- هدف الحوار:

طرفا هذا الحوار هما سيدا الخلق في السماوات والأرض، ومن هنا تأتي مكانة هذا الحوار الذي دار بينهما، لأنه يحمل هدفا أسمى هو تحقيق العبودية لله تعالى، من خلال إقامة دين الله عز وجل في الأرض، وتأکید للرسالة التي من أجلها بعث الله تعالى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام للناس أجمعين، أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم إليه في آخر الحديث بالقول: "أتدرون من السائل؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

4- موضوع الحوار:

إن مسألة حضور جبريل عليه السلام في صفة بشر، في مجلس عام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل تعليم الناس الدين وبيان مراتبه، يوضح أهمية الموضوع الذي كلف جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للمسلمين فاتخاذ أسلوب الحوار في هذه القصة، يبين أنه من أكثر الأساليب تأثيرا على المخاطب في تقبل الرسالة المراد إيصالها.

إذا تتبعنا هذا الأسلوب في الحديث نجد الجانب التعليمي حاضر بقوة، من خلال رواية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "عجبنا منه يسأله ويصدق"، وفي هذا دلالة تعليمية

¹ أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الخلائق.

² سورة الأحزاب، الآية: 21.

تبين معنى الدين للصحابة المتعلمين، ثم توضح أن للدين مراتب ثلاث وهي الإسلام والإيمان والإحسان.

5- مكان الحوار:

في رواية للحديث من طريق آخر ذكر فيها مكان إقامة حوار جبريل مع رسول الله عليهما السلام، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرف، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس بين يديه وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، وتغتسل من الجنابة" فقال: صدقت، فعجبوا منه أنه يسأله ويصدقهم قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار، والبعث والحساب، وبالقدر خيره وشره، وحلوه ومره" قال: صدقت، فعجبوا منه أنه يسأله ويصدقهم، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" قال: صدقت، ثم ذهب، فلما كان بعد ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: «يا عمر، تدري من الرجل؟" قلت: الله ورسوله أعلم قال: "ذلك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا في صورته هذه".¹

جرى حوار جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسجد؛ وهو أشرف بقاع الأرض، وله عدة أدوار داخل المجتمع الإسلامي؛ مكان العبادة والتعلم وتبدير شؤون المجتمع

¹ رواه محمد بن نصر المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة، رقم: 374، ج: 1، ص: 382.
أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرئي البغدادي، الشريعة، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، ج2، دار الوطن، ط.2، الرياض - السعودية، 1420 هـ - 1999 م، ص: 205.

المسلم، ويسمى الجامع لأنه مكان اجتماع وانجماع المسلمين على كلمة الحق والأخوة والتكافل، وفيه تناقش القضايا الكبرى للدولة المسلمة.

إذا كان موضوع الحوار تعليم الدين ومراتبه فإن المكان الأنسب لتبليغه هو المسجد، باعتبار دوره المركزي في المجتمع، فقد كان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة بناء المسجد باعتباره بيت الله تعالى؛ وخص بهذه التسمية دون البيوت الأخرى؛ وإن كانت كلها لله تعالى فهو سبحانه رب كل شيء، دلالة على عظمة المكان، وبالتالي فالحوار موضوع الدراسة تزداد عظمتة وأهميته مع عظمة المسجد، هذا الحوار يبقى خالداً في التاريخ الإسلامي تستفيد منه الأجيال اللاحقة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من بعدهم، حوار يبين أن تعليم الدين وترسيخه في النفوس مكانه الأول هو المسجد، وما كراسي العلماء والأئمة التي كانت تقام في المسجد إلا دليل على الجانب التعليمي التي كانت تحظى به المساجد، واليوم في البلاد غير المسلمة نجد حضور هذا الدور بقوة، من خلال اعتناق الأجانب للإسلام فيكون المسجد مركزاً لتعلم الدين، وفي ذلك عودة إلى الأصل والدور الذي عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على تحقيقه.

6- زمن الحوار:

حوار جبريل والرسول صلى الله عليه وسلم جرى في فترة النبوة ولم تشر الرواية إلى زمن محدد، ولكن سياق الحديث الذي ذكره مسلم في مطلع روايته للحديث له دلالة بيانية لما يستقبل من القضايا التي ستطرح في أمة الإسلام، نورد مطلع الرواية لمزيد من التوضيح كما ذكرها مسلم في صحيحه قال: "عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال: في القدر بالبصرة معبد الجهنّي. فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد، فاكتفتته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله،

فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أئف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب... " جاءت رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه للحديث في سياق السؤال عن القدر، لأنه قضية عقدية وتبعاتها على السلوك مؤثرة وقد تؤدي إلى الانحرافات وتصدع في صفوف المسلمين، وهذا النص يحيل على مجموعة من الفوائد في إقامة الحوار الداخلي، نذكر منها:

- أن فتنة نفي القدر ظهرت في عهد عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بالبصرة، وعبد الله بن عمر صحابي اشتهر بانعزال الفتنة في عهد سيدنا علي رضي الله عنه لخطورتها، توفي بمكة سنة 74هـ أو 73هـ.¹

وعن ابن عيينة: عن عمر بن محمد بن زيد سمعت أبي يقول: "ما ذكر ابن عمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بكى، وما مر على ربعهم إلا غمض عينيه وما أحسن قول سفيان الثوري: يقتدى بعمر في الجماعة، وبابنه في الفرقة".²

- حرص التابعين على معرفة الحق والرجوع إلى الصحابة رضي الله عنهم للوصول إليه، وفي ذلك اهتمام بوحدة المسلمين مخافة انتشار الفتنة في صفوفهم.

- مسارعة التابعين رضي الله عنهم إلى الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنه للسؤال عن قضية القدر لدرو الفتنة التي قد ترتب عنها وذلك في مهدها، ويستفاد من ذلك ضرورة إنكار الباطل وبيان الحق.

¹ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ت عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1423هـ/2003م، ج1، ص205.

² الإمام شمس الدين محمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ط.2، 1333هـ، ص36.

- جواز طلب العلم للحاج أثناء القيام بفريضة الحج.

- التحلي بالأدب في طلب العلم وهذا ما حصل يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن

الحميري في حوارهما مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

- جواب ابن عمر رضي الله عنه في هذا الحوار فيه دلالة على خطورة نفي القدر،

واشتماله على حكم ودليل من نفي القدر، قال: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم،

وأنهم بُرّاء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل

الله منه حتى يؤمن بالقدر".

المبحث الثالث: الحوار مدخلا لفتق المهارات في محافل العلم.

أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم لمفهوم الحوار مجموعة من الأصول والضوابط التي أسهمت في تحقيق نهضة علمية عرفها الفكر الإسلامي، تجلت معالمها في وسائل التواصل المعرفي والتعليمي بين العلماء والطلبة من خلال حضور حلقات العلم، أوبين العلماء فيما بينهم عن طريق إجراء مناظرات بين مختلف المذاهب الإسلامية سواء كانت كلامية أو فقهية أو فكرية.

فكان الحوار القرآني النبوي الجامع بين التأصيل النظري والتنزيل العملي بمثابة المنهل الذي استمد منه أولئك العلماء والمفكرين تلك الأصول والضوابط كانت منطلقا نحو تطوير طرائق التعليم ومناهجه البيداغوجية بما يتوافق ومتطلبات العصر الحديث.

1. طريق الحوار والمناقشة.

تُعرف طريقة التعليم بأنها "مجموعة من الإجراءات والخطوات المنظمة والمتسلسلة، لها علاقة بمادة دراسية تحاول تنظيمها وفق منهج دقيق وواضح"¹. وبتعبير آخر، هي مجموعة من الإجراءات والخطوات المنظمة والمتسلسلة، التي تهدف إلى تبليغ معارف ومهارات وقيم، وإكسابها للطالب. وهي أداة نقل المعارف وصقل المهارات وترسيخ القيم، وهي آلية التواصل التربوي بين المدرس والطالب.

وتختلف طريقة التعليم عن أسلوبه الذي يُعبّر عن: "الكيفية التي تناول بها المعلم طريقة التعليم أثناء قيامه بعملية التعليم، أو هو الأسلوب الذي يتبعه المعلم في تنفيذ طريقة التعليم بصورة تميزه عن غيره من المعلمين الذين يستخدمون نفس الطريقة. ومن ثم يرتبط بصورة أساسية

¹ حليم، سعيد. المرجع في كيفية التدريس، سلسلة المنظومة التربوية في المغرب، عدد2، 2009م، ص: 205.

بالخصائص الشخصية للمعلم" ¹. فهو النمط التعليمي الذي يتناسب وشخصية المدرس. فقد يستعمل المدرسون نفس الطريقة لكن الأداء التعليمي يختلف لاختلاف أسلوب كل واحد منهم. كما يختلف الطريقة عن المنهجية التي تُحدد الخطوات العامة للدرس والتي تنتظم الخطوات العامة للدرس ابتداء من التمهيد ثم الشرح والتحليل التقويم. فمنهجية التعليم تفيد معنى النظام المنطقي الذي تخضع له عمليات وأنشطة درس من الدروس ²، ينبنى عليه الهيكل العام للدرس الذي يُرتب المهام التعليمية التعلمية، دون تفصيل في الخطوات والقواعد الإجرائية الضابطة لنقل المحتوى، خلافا لطريقة التعليم التي تُعنى بالجانب الاجرائي لتبليغ المضامين.

والطريقة الحوارية في الأدبيات التربوية الحديثة موسومة بكونها مجموعة من الخطوات التعليمية القائمة على الحوار لبناء المعارف واكتساب المهارات والقيم بنهج تفاعلي بين أطراف العملية التعليمية ³. وخصائص الحوار والمناقشة في العملية التعليمية تفضي إلى القول بأن على المعلم أن يحد من مقدار كلامه أو مشاركته في النقاش ولا يتدخل إلا عند الضرورة لإدارة النقاش وتوجيهه أو تصحيحه، وعدم الاستئثار بالحديث وإعطاء فرصة للمتعلمين للمشاركة في النقاش والاستفادة منه.

وقد عرفت مجالس التعليم في تراثنا، استعمالا لمجموعة من الطرق التعليمية من قبيل الرواية والسماع والإملاء والقراءة والعرض... وغيرها من طرق التحمل والأداء، بواسطتها حفظ الله أصول الشريعة، وظلت علومها وأحكامها محفوظة في الصدور، مدونة في السطور. وعرضت التجربة التربوية مجموعة من الأساليب التعليمية كالسؤال، والمناقشة، والمناظرة، والمذاكرة، والرحلة، والتعليم بالمراسلة.

¹ الجقندي، عبد السلام. دليل المعلم العصري في التربية وطرق التدريس. دمشق: دار قتيبة، ط.2، 1428 هـ / 2008 م، ص:212.

² إحمدي، محمد، وبوفوس، محمد. الكافي في امتحانات الكفاءة المهنية، الدار البيضاء (المغرب): مكتبة التراث العربي، ص:347.

³ حلیم، سعيد. المرجع في كيفية التدريس، ص:173

وهكذا، فقد تعددت الطرق والأساليب التعليمية في الفكر التربوي وتنوعت، مما يؤكد سبق علمائنا لأصحاب الاتجاهات التربوية الحديثة في توجيه المدرسين إلى الكثير من المهارات والأنشطة التي ينبغي مراعاتها في عملية التعلم والتعليم.

وقد امتدح علماءنا الطريقة الحوارية وبينوا أهميتها، قال الزرنوجي: "وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من مجرد التكرار؛ لأن فيه تكراراً وزيادة. وقيل مطارحة ساعة، خير من تكرار شهر، لكن إذا كان مع منصف سليم الطبيعة"¹.

وعليه، فعلى المدرس عليه أن يتبع أحدث الطرق التربوية الحديثة في تدريسه، وأن يعتمد في عرض معلوماته الفقهية على مختلف هذه الطرق ومنها طريقة الحوار والمناقشة، بدلا من إلقاء المعلومات على الطلاب دون فهمها. "وانتهاج أسلوب الحوار والمناقشة يوصل المعلومات إلى الطلاب، وينمي لديهم اتجاهات فكرية وسلوكية مهمة، يكون الطالب عندها قادرا على الفهم السريع، والمقارنة والاستنتاج السليم، والمشاركة الإيجابية الفاعلة، وفوق هذا نعطي جرعة من الثقة بالنفس في إصدار الأحكام. وإذا سادت روح المناقشة والحوار بين المعلم وطلابه، فإن ذلك يوجه الجهد والوقت، ويحقق الفائدة المرجوة من الدرس"².

فهذه الطريقة تنمي ملكة المناقشة لدى الطالب، التي يفتقدها الكثير من طلبة العلم، الأمر الذي يجعل التركيز عليها بقدر الفائدة أمر لا محيد عنه، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الأخذ والرد وطرح الإشكالات العميقة بين الطالب والأستاذ. وكذلك الأمر في باقي الطرق الأخرى التي تجعل من الطالب محور اهتمامها في العملية التعليمية.

يمكن "إحداث تكامل بين طرق التعليم المختلفة التي يستخدمها المعلم، فيستطيع أن يربط بين المحاضرة والمناقشة، فيأتي الموقف التعليمي معتمدا على المحاضرة في جانب ومعتمدا على

¹ الزرنوجي، برهان الدين. تعليم المتعلم طريق التعلم، الدار السودانية للطباعة والنشر، ط. 1، 2009م، ص: 8.

² صالح، عبد الله عبد الرحمن. المرجع في تدريس علوم الشريعة، عمان: دار وائل للنشر، ط. 2، 1425هـ / 2005م، ص: 478.

المناقشة في جانب آخر"¹. فإذا كان الهدف من التلقين هو تبليغ مفاهيم ونصوص شرعية أو تبليغ مضامين جديدة، أو توضيح قاعدة شرعية مُشكلة، فإن الحوار يسهم في تكسير رتابة الإلقاء، ويشحذ المهارات والقدرات ويساعد على الفهم والتحليل، والإفادة من فهوم الآخرين.

والتوطين الأمثل لمبادئ الحوار في مناهجنا التعليمية مشروط بالاعتناء بالهدي النبوي، فسيره المربي الأول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مواقف تربوية عملية تحتاج من الأمهات والآباء والمدرسين وسائر المربين وقفات للتأمل، من أجل الاهتداء إلى منهج تربوي تعليمي متكامل؛ ينظر للعملية التربوية التعليمية بنظرة شمولية غير تجزئية، نظرة مستغرقة غير سطحية.

فالمنهاج النبوي في التربية والتعليم لم يكن ارتجاليا عبثيا، ولا إلقائيا نمطيا، بل كان منهجا مبدؤه الإرادة الفردية وامتلاك الأسباب، ووسيلته الحوار والتجديد؛ وهذه الأساليب الأربعة هي من أعمدة البناء التربوي، التي إن أتقنها المعلم أدى رسالته على أكمل وجه بإذن الله تعالى. فمن منهج النبوة نتعلم مثلا: مهارات الحوار والتواصل. ولا حوار ولا تواصل دون سؤال وجواب؛ السؤال الذي قد يزدريه البعض ويهون من شأنه، لكن المدرس والمربي عموما يعلم أهميته وأنه الأساس في كل تعلم وتعليم

¹ اللقاني، حسين، والجميل، علي. معجم المصطلحات التربوية في المناهج وطرق التدريس، القاهرة: عالم الكتب، د.ط، 1999م، ص:105.

2. خصائص وفوائد أسلوب المناظرة

تكمن خصائص كل أسلوب للتدريس في المهارات التي يستهدف تنميتها، والقصد من توظيف أسلوب المناظرة هو فتح:

- **مهارة المناظرة والجدل:** أي القدرة على مقارعة الرأي المخالف باعتماد دليل،

واستعمال أساليب الحجاج في تسديد القول وتفنيده حجة المخالف.

فالمناظرة لغة: "من النظر، أو من النظر بالبصيرة"¹. واصطلاحاً: هي: "النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب"². والمقصود في هذا السياق، هي "المناظرة التعليمية" المنضبطة لمبدأ التخطيط التعليمي من حيث تحديد الأهداف، والحدود الموضوعية، ومؤشرات تقويم أداء أطراف المناظرة من الطلبة.

وقد حظي هذا الأسلوب بعناية خاصة في المنهج التربوي التراثي، "فمن أظهر مميزات أساليب التعليم في المراحل العالية، شيوع المناظرة، ولعلها من أخص مميزات التربية في تلك العصور"³. ولعل ذلك راجع لأثرها في شحذ الأذهان وتقوية الحجة، والتمرن على سرعة التعبير والتفوق على الأقران وتعويد المتناظرين على الثقة بالنفس والقدرة على الارتجال، ولهذه الأسباب عني بها المسلمون عناية كبيرة وعدوها من طرق التعليم⁴، وما حديث علمائنا عن فقه المناظرة إلا للإفادة منه في تحصيل العلوم ونشرها.

ويمكن أن يتخذ أسلوب التناظر صوراً تعليمية متعددة، كأن تكون المناظرة نشاطاً تعليمياً يتناظر فيه فريقان من الطلبة في موضوع تمت دراسته في الحصص النظرية؛ وقد يستعمل

¹ الجرجاني، كتاب التعريفات، ص: 231.

² الكفوي: الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: 1992م، ص 849.

³ عبد الدائم، عبد الله. التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، بيروت، دار العلم للملايين، ط. 1، 1973م، ص 187.

⁴ الأبراشي، عطية. التربية الإسلامية وفلسفتها، القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، 1976 م، ص 209

الأستاذ هذا الأسلوب في الحصص النظرية في سياق درس قضية علمية، يتغنى بذلك إشراك المتعلم واختبار فهمه، والتزامه بأدب الحوار والمناظرة، بحيث "يُنتظر من المتعلم أن يأتي بما يبطل ذلك الشيء ويناقض ما أورده المعلم لا ليجادل، ولكن ليستزيد من المعلم البيان وليعلم أن الذي أورده ليس بكاف في إعطاء اليقين، ويقف المعلم به على ذكاء المتعلم، وإنه ليس يعمل فيما سمعه على بادئ الرأي ولا على حسن الظن بالمعلم"¹.

والإعمال التربوي لهذا الأسلوب يبرز دور الأستاذ في فتح القدرة الجدل والحجاج والمناظرة الممهدة لاكتساب الصناعة في العلم، والمهارة في الاستدلال، وحفز الهمم وشحذها باعتباره الموجه لعملية التعليم والتعلم، فهذا النهج هو الأقدر على إشراك الطلاب في الحوار العلمي البناء المؤسس لتحصيل الملكة.

فإذا عجز الطالب عن ممارسة النظر والتناظر، "بصره المعلم موضع العناد في ذلك الشيء وموضع المعارضة في تلك الحجة، ثم إبطال تلك الحجة، ثم إبطال تلك المعارضة وإبطال ذلك الإبطال. ولا يزال ينقله من إبطال إثبات ومن إثبات إلى إبطال، حتى لا يبقى هناك موضع نظر ولا فحص، ثم يردف جميع ذلك بامتحانها بالطرق البرهانية. فحينئذ ينقطع تداول الحجج في الحجج والإثبات والإبطال ويحصل اليقين"².

إن أسلوب المناظرة من أهم الأساليب التعليمية المتناغمة مع المبادئ التربوية التي يقوم عليها مدخل التعليم بالملكات، لما لها من أثر في تفتق الملكات³ وتنميتها، وإكساب المتعلم القدرة على المشافهة والمقارعة العلمية، والدفاع عن رأيه باعتماد الحجة والدليل، والمداومة على النظر، والقدر على استدعاء الشواهد وحسن توظيفها في تحرير القضايا العلمية ومناقشتها.

¹ الفاربي، أبو نصر. كتاب الحروف، ص: 209.

² كتاب الحروف، ص: 110

³ قال ابن خلدون متحدثا عن الملكة اللغوية: «أيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالحوارة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مراميها». ينظر: المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا، د. ط، بيروت 2012م، ص 377.

ومن فوائد المناظرة أنها أسلوب تركيبي، يتطلب استحضار الطالب لمجموع المعارف المكتسبة "مفاهيم، نصوص، قواعد، أحكام..."، وإعمال مختلف القدرات المنهجية "الاستدلال، التحليل، المقارنة، الترجيح والنقد..."، وذلك بنهج إدماجي لهذه المعارف والمهارات.

وما تقدم يعبر عن أسلوب تعليمي له امتداد سلوكي، يسعف على تصويب سلوك الطالب في التعامل مع المخالف، والامتنال لقيمة الاعتراف بالحق والإذعان له. ف "لابد لطالب العلم من المذاكرة، والمناظرة والمطالبة... فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب"¹.

¹ الزرنوجي، برهان الدين. تعليم المتعلم طريق التعلم، ص: 103.

الباب الثاني:

أبعاد الحوار النبوي الاجتماعية والسياسية والإنسانية.

الباب الثاني

أبعاد الحوار النبوي الاجتماعية والسياسية والإنسانية

الفصل الأول: الحوار النبوي وبناء الإنسان والأسرة.

الفصل الثاني: الحوار النبوي مع الأصحاب والصحابيات وأبنائهم.

الفصل الثالث: الحوار مع الملوك والقادة وأهل الديانات السماوية.

الفصل الرابع: الحوار النبوي في بناء المشترك والعمران الإنساني.

الفصل الأول:

الحوار النبوي وبناء الإنسان والأسرة.

المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأزواج.

المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأبناء والأحفاد.

المبحث الثالث: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الخدم.

خص الإسلام الأسرة المسلمة بمكانة مميزة في الشريعة الإسلامية، لاعتبارات عديدة تتمثل في كونها منطلق الدعوة الإسلامية ونواة المجتمع، وأساس بنائه وصلاحه. هذه المكانة تجليها السيرة النبوية من خلال اعتماد أسلوب الحوار، الذي انتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم داخل البيت في تعامله مع أزواجه وأبنائه وأحفاده وخدمه. حوار أسهم في بناء الشخصية المسلمة التي سعت إلى إقامة دولة جديدة انتشرت في مختلف الأقطار، أساسها بناء الإنسان الذي يقبل التعايش والتساكن مع الحفاظ على المبادئ والأسس العامة التي قام عليها الدين الإسلامي.

أوذى الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاء كثيرا من قومه، فكانت الأسرة هي الداعمة له في شدته، والمؤسسة لقيام الدعوة الإسلامية، ويرجع هذا الأمر إلى المنهج الحوارى الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في تعامله مع القريب والبعيد. وهذا ما سنبرزه في فصول بحثنا إن شاء الله.

المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأزواج.

إن حوارات النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته تحمل من المعاني التي تعبر عن معنى القدوة الشاملة التي ينبغي للمسلم أن يقتدي بها، لبناء أسرته على أسس ومبادئ تستمر من جيل إلى جيل، قادر على الإسهام في تنمية المجتمع الذي ينتمي إليه.

إن دراسة السيرة النبوية داخل البيت النبوي مع تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم يوضح تعددا في أنواع الحوار مما يوحى للدارس، أن منهج الحوار النبوي في تعامل المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الأزواج واحد رغم اختلاف في النوع، ويرجع الأمر إلى طبيعة شخصية الزوجة، وهذا ما سنكتشفه من عرض هذا المبحث.

وبالتالي فدراسة قضية حوارية يقتضي الوقوف على مكوناتها، من خلال معرفة موضوع الحوار والهدف منه، وزمان ومكان وقوعه ثم الأطراف المتحاور، والقصد من هذا كله هو الوصول

إلى الحق المنشود من إقامة الحوار. ولإعطاء نموذج في الحوار النفسي نسوق نماذج لحوارات نبوية مع أزواجه.

المطلب الأول: الحوار العاطفي النفسي.

1- أمنا خديجة رضي الله عنها.

جاء في وصفها رضي الله عنها أنها ما زالت تعظم النبي صلى الله عليه وسلم وتصدق حديثه قبل البعثة وبعدها.

قال ابن حجر رحمه الله: "ومن مزايا خديجة أنها ما زالت تعظم النبي صلى الله عليه وسلم، وتصدق حديثه قبل البعثة وبعدها"¹.

وقال أيضا رحمه الله: "إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها"².

قال ابن حجر رحمه الله: "تصديقها للنبي صلى الله عليه وسلم في أول وهلة ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها ووفور عقلها وصحة عزمها"³.

قال ابن هشام رحمه الله: "وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدق به وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى"⁴.

¹ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ج. 8، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت، 1415 هـ، ص: 102.

² ابن حجر، فتح الباري، ج. 7، ص 138.

³ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج. 7، ص 134.

⁴ ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 2، ص 224.

إن ظروف الإساءة التي كانت تلحق الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه أثناء القيام بالدعوة الإسلامية، أثرت فيه نفسيا لاعتبارين الأول لطبيعة الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلب نبيه عليه الصلاة والسلام، والثاني الأذى من قومه. فكان دور زوجه خديجة رضي الله عنها من خلال الحوار الذي جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبينها، يتسم بدعم نفسي معنوي ومادي، تجلّى في التثبيت والتهوين والتصديق بما جاء به، ونقلت رضي الله عنها المواساة والدعم من جانبها المعنوي إلى الجانب المادي تمثل في الذهاب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، ووضعت كل إمكانياتها المادية في خدمة الدعوة إلى الله عز وجل، ومن هنا لا نعجب إن كان صلى الله عليه وسلم كثير الحوار معها بعد رجوعه من معاناة أذى الناس له في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه تعالى، كما ورد "لا يسمع شيئا مما يكره من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها..."

وتحليلات الحوار النبوي مع زوجه أمنا خديجة رضي الله عنها نجده في تثبيت قلبه أثناء الوحي... "فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: "زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي" فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل..."¹.

وروى الفاكهي في كتاب مكة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له وبعث بعده جارية له يقال لها نبعة فقال لها انظري ما تقول له خديجة قالت نبعة فرأيت عجبا ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت بأبي وأمي والله ما أفعل هذا لشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلي وادع الإله الذي

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

يبعثك لي قالت فقال لها والله لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدا وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا"¹.

فكرت أمنا خديجة رضي الله عنها بعقلها الرشيد ورأيها السديد أن تختبر جبريل عليه السلام لتتأكد من حقيقته، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: "نعم"، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل عليه السلام، كما كان يصنع، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لخديجة: "يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني"، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: "نعم"، قالت: فتحول، فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجلس، قالت: هل تراه؟ قال: "نعم"، قالت: فتحول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: "نعم"، قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: "لا"، قالت: يا ابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان."².

وما فعلته أمنا خديجة رضي الله عنها يدل على شدة ذكائها وبعد نظرها، وحرصها على تسكين النبي صلى الله عليه وسلم وتبشيريه وتثبيتته، وظهر ذلك في حوارها مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم - تسأله ويجيب - حتى وصلت إلى حقيقة سيدنا جبريل عليه السلام، فأثبتت للرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ملك لأنه غادر المكان عندما كشفت رأسها فأدركت أن هذا التصرف لا يتصرفه شيطان، بل هو ملك من الملائكة. وهذا ما جعل لفقدها فراغا في قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ قال ابن إسحاق: "فتتابعت على رسول الله صلى

¹ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج:7، ص:134.

² ابن هشام، السيرة النبوية، ج1 ص:223.

الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها"¹.
وبقيت ذكرى أمنا خديجة رضي الله عنها عالقة في قلبه الشريف، لا تفارقه، كأنها أصبحت جزءا
منه، لا تكاد تنفصل عنه، حتى قالت له أمنا عائشة رضي الله عنها: "كأنه لم يكن في الدنيا
امرأة إلا خديجة"².

إن هذا الحوار كان الوسيلة البارزة في تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم
ومواساته ودعمه نفسيا في أشد الأوقات عليه صلى الله عليه وسلم، وهذا يعلمنا مكانة المرأة
ودورها في التخفيف على زوجها، هموم الحياة ومصاعبها، فالأصل في الزوجة أنها سكن لزوجها
تسكن آلامه وهمومه، مصداقا لقوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا
لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"³.

2- أمنا عائشة رضي الله عنها.

وهنا تجل آخر للحوار النفسي العاطفي في حوار النبي عليه الصلاة والسلام مع أمنا

عائشة رضي الله عنها من خلال النص التالي:

عن فاطمة الخزاعية قالت: سمعت عائشة تقول يوما: دخل علي يوما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: يا حميراء كنت عند أم سلمة. فقلت: ما تشبع من أم سلمة؟ قالت: فتبسم فقلت: يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداها لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى؟ قال: التي لم ترع. قلت: فأنا ليس كأحد من نسائك. كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيري. قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.⁴

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج:1 ص:416

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها.

³ سورة الروم، الآية: 21.

⁴ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج.8، دار الكتب العلمية - بيروت، ط.1، 1410 هـ - 1990م، ص: 64.

أرادت من الحوار معرفة مكانتها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم بالقول الصريح فتسأله: كيف حبك لي؟ قال: كعقدة الحبل، وتقول أمانة عائشة رضي الله عنها: كنت أقول كيف عقدة الحبل يا رسول الله؟ فيقول على حالها¹.

إذا تمعنا في الحوار نجد مناداة الرسول صلى الله عليه وسلم لها بلفظ حمراء، فيه دلالة على الشرف الذي كان العرب ينهجونه والحامل لمعنى الفخر والفضل، هذه الدلالة لها تأثير كبير على نفسية المتحاور حيث تبين اهتمام وتقدير المخاطب للمتلقى قبل التطرق لمضمون الحوار، مما يضمن استمرار الحوار وتقبله، وهذا ما حصل مع أمانة عائشة رضي الله عنها حيث لم يرضيها حب زوجها صلى الله عليه وسلم وإنما أرادت أن تطمئن على جوارها للنبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة أيضا فتسأله: "من أزواجك في الجنة قال: "أما إنك منهن"².

وقد كانت تفتخر بهذا وتدل أحيانا به إدلال الحبيب أمام النبي صلى الله عليه وسلم فتقول له: يا رسول الله، أرايت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: "في الذي لم يرتع منها"³.

هذا الحوار القلبي الذي يظهر أن الحياة الزوجية للنبي صلى الله عليه وسلم كانت مليئة بالحب والعاطفة، فلا شيء يمنع الحوار بين الزوجين عما يخالجهما من مشاعر وعواطف ومحبة ومشاركتهما فيما بينهم، بل الحرص على معرفة مكانة كل واحد عند الآخر كما فعلت أمانة عائشة رضي الله عنها بالسؤال عن كيف حبك لي؟.

¹ محمد بن يوسف الصالح الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ج.11، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت - لبنان، 1414 هـ - 1993، ص: 170.

² ابن حبان بن أحمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ج.16، مؤسسة الرسالة، ط.1، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ص: 8، رقم الحديث: 7096.

³ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ج: 9، ص: 121.

وفي قصة أخرى تحكي أمنا عائشة رضي الله عنها، قالت: " لما كانت ليلتي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجله، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدا، وانتعل رويدا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدا، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهورل فهورلت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: "ما لك؟ يا عائش، حشيا رايبة" قالت: قلت: لا شيء، قال: "لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير" قالت: قلت: يا رسول الله، بأي أنت وأمي، فأخبرته، قال: "فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟" قلت: نعم، فلهديني في صدري لهداة أوجعتني، ثم قال: "أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟" قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم، قال: " فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبتة، فأخفيتك منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم"، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال " قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون " ¹.

يوضح هذا النص الحواري أن أمنا عائشة رضي الله عنها بسبب عاطفتها وشدة تعلقها وحبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها تتبع خطواته من أجل استكشاف أحواله، فإذا برسول الله يعلم ما يجول بنفسها فيوجهها إلى الصواب بأسلوب حوار تعليمي منه أمنا عائشة رضي الله عنها مجموعة من الدروس منها:

- عدم التجسس على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز.

- تويخه عليه الصلاة والسلام لها من خلال قولها: " فلهديني في صدري لهدة أوجعتني."

- تربية نفسية اتصلت باطلاع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما فعلته أمنا عائشة رضي الله عنها.

- أدب الملك جبريل عليه السلام بعدم الدخول إلى بيت رسول الله عليه الصلاة وزوجه واضحة ثيابها.

- مراعاة رسول الله صلى الله عليه لحال زوجته أمنا عائشة رضي الله عنها وهي نائمة بعدم فزعها أثناء خروجه.

- تعليمها دعاء زيارة القبور.

وفي حديث الإفك الطويل قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: "كيف تيكلم"، ثم ينصرف، فذلك يريني ولا أشعر بالشر...¹. فالريب الذي ورد في نفس السيدة عائشة أنها لا تجد اللطف الذي تعرفه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بالنسبة لها كافيا حتى يداخلها الريب، ويحدث عندها هذا الحوار النفسي رغم عدم معرفتها ما الحدث.

ويجلي معاني الحوار النفسي في الحوارات الزوجية التي كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقيمها من خلال مراعاة جوانب الشخصية الإنسانية فعن عائشة قالت: " دخل علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوما وأنا ألعب بالبنات فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت:

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك.

خيل سليمان. فضحك"¹.

وكان صلى الله عليه وسلم يقدر لها حادثة سنّها وحاجتها إلى اللعب وكان يسرب إليها صواحب يلاعبنها، وكان يمكنها أن تضع رأسها على كتفه الشريف وهي خلفه مستترة به، لتنظر إلى الأحباش يلعبون بجراهم في المسجد، قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي صلى الله عليه وسلم، وإما قال: "تشتهين تنظرين؟" فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: "دونكم يا بني أرفدة" حتى إذا مللت، قال: "حسبك؟" قلت: نعم، قال: "فذهبي"².

ومن لطفه صلى الله عليه وسلم بمن أنه كان يمازحهن ويضاحكنهن، روي عن عائشة أنها قالت: "أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحريّة طبختها له، فقلت لسودة والنبي - صلى الله عليه وسلم - بيني وبينها: كلي، فأبت. فقلت: لتأكلن أو لألطنن وجهك. فأبت، فوضعت يدي في الحريّة وطلّيت بها وجهها، فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - فوضع فخذه لها وقال لسودة: "الطخي وجهها" فلطخت وجهي، فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضا، فمر عمر فنادى: يا عبد الله يا عبد الله! فظن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سيدخل فقال: "قوما فاغسلا وجوهكما" قالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إياه"³، ويسمر معهن مستمعا إلى أحاديثهن، وحفظت لنا كتب السنة شيئا من هذا السمر الشائق، فانظر مثلا إلى تحديث أمنا عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم حديث أم زرع، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لها بعده: "كنت لك كأبي زرع لأم زرع، إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك". وملخص حديث أبي زرع: أن إحدى عشر امرأة تعاهدن على ألا يكتمن شيئا من أخبار أزواجهن ولما جاء دور الحادية عشر أم زرع مدحت زوجها أبا زرع مدحا

¹ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج.8، ص: 64.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب: في العيدين والتجمل فيهما.

³ علي بن "سلطان" محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، ط.1، بيروت - لبنان، 1422هـ - 2002م: 3903/9.

فاق كل ما سبقه ولما طلقها أبو زرع وتزوجت آخر كريم عدت محاسنه وكرم أخلاقه ولم تنس الثناء على أبي زرع فقالت: لو جمع ذلك كله ما ملأ أصغر وعاء لأبي زرع. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: "يا عائشة كنت لك كأبي زرع لأم زرع" وفي رواية "ألا إنه طلقها وأنا لم أطلقك"¹ وزاد الطبراني في رواية له، قالت أمنا عائشة رضي الله عنها "يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع"².

3- أمنا ميمونة رضي الله عنها.

أما الحوار النبوي مع أمنا ميمونة رضي الله عنها بنت الحارث في جانبه النفسي نجده في حديثين ترويهما، قالت: "خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة من عندي فأغلقت دونه الباب فجاء يستفتح الباب فأبيت أن أفتح له فقال: أقسمت إلا فتحت لي. فقلت له: تذهب إلى أزواجك في ليلتي هذه. قال: ما فعلت ولكن وجدت حقنا من بولي"³.

وفي حديث آخر عن كريب مولى ابن عباس، أن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أخبرته، أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدي، قال: "أو فعلت؟"، قالت: نعم، قال: "أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك"، وقال بكر بن مضر: عن عمرو، عن بكير، عن كريب، إن ميمونة أعتقت⁴.

نستنتج من الحديثين الشريفين أن الأسلوب الحوارى النفسى الذى سلكه المصطفى صلى الله عليه وسلم مع زوجه ميمونة رضي الله اشتمل على ما يلي:

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل.

² سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ط.1، 1427هـ - 2006م، ج: 23، ص: 173، رقم الحديث: 272.

³ المصدر السابق، الجزء: 8، ص: 109.

⁴ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها وعتقها.

- حضور الجانب النفسي للزوجة ميمونة رضي الله عنها من خلال الغيرة التي عبرت عنها.

- الوضوح في القول بما يدور في النفس والبوح به.

- حصول غضب ميمونة رضي الله عنها عبرت عنه سلوكا بعدم فتح الباب.

- الصديق المتبادل بين الزوجين يمكن من معالجة المشاكل.

ويتضح من هذه الأحاديث كذلك أن الحياة الزوجية للنبي صلى الله عليه وسلم كانت تتميز بالحب والفرح والسعادة التي كان الحوار النفسي سببا مباشرا في خلق هذا الجو من الفرح والسعادة. ما أحوج بيوتنا لهذا الحوار النبوي وهي التي تعاني من الحزن والقلق والاضطراب.

المطلب الثاني: الحوار التعليمي التربوي.

ويأتي نوع آخر من الحوارات النبوية مع الأزواج يتجلى في الحوار التعليمي التربوي، يبرز لنا النبي صلى الله عليه وسلم فيه، أهمية تعليم الزوجة وتربيتها على الدين وتعاليم الإسلام، حيث وردت أحاديث مختلفة مع جل أزواجه صلى الله عليه وسلم وهو يحاورهن بغية تعليمهن دينهن.

1. حوار صلى الله عليه وسلم مع أمنا عائشة رضي الله عنها.

عن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله "والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة"، أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر؟ قال: "لا، يا بنت أبي بكر أو يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصوم، ويتصدق، ويصلي، وهو يخاف أن لا يتقبل منه"¹.

¹ رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل.

2. حوارہ صلی اللہ علیہ وسلم مع أمنا حفصة رضي الله عنها.

عن جابر بن عبد الله، يقول: أخبرني أم مبشر، أنها سمعت النبي صلى الله عليه

وسلم، يقول عند حفصة: "لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها" قالت: بلى، يا رسول الله فانتهرها، فقالت حفصة: "وإن منكم إلا وادها"¹، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد قال الله عز وجل: "ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا"^{2,3}.

3. حوارہ صلی اللہ علیہ وسلم مع جویریة رضي الله عنها بنت الحارث.

عن جویریة، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟" قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"⁴.

عن جویریة بنت الحارث رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال: "أصمت أمس؟"، قالت: لا، قال: "تريدین أن تصومي غدا؟" قالت: لا، قال: "فأفطري"، وقال حماد بن الجعد: سمع قتادة، حدثني أبو أيوب، أن جویریة، حدثته: فأمرها فأفطرت.⁵

¹ سورة مريم، الآية: 71.

² سورة مريم، الآية: 72.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان.

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب: باب التسبيح أول النهار وعند النوم.

⁵ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب: صوم الدهر.

4. حوارہ صلی اللہ علیہ وسلم مع أمنا زینب رضی اللہ عنہا:

عن أم حبیبة بنت أبي سفيان، عن زینب بنت جحش: أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها"، قالت زینب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبث"¹.

من خلال هذه الأحاديث المختلفة تظهر أهمية الحوار في تعليم وتربية الزوجة على الإسلام وتعاليمه، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل الحوار التربوي التعليمي حاضرا في الحياة الزوجية باستمرار لأنها من أبرز مسؤوليات الزوج أمام زوجه.

أما الجانب التربوي للحوار النبوي فيكمن في الكيفية التي كان رسول الله صلى الله عليه يعالج بعض السلوكات على رغم تغير حال الآخر، وهذا ما نجده حاصلا في حوارہ مع أمنا عائشة رضي الله عنها حيث حرصه عليه الصلاة والسلام على استمرار الحوار مع الآخر كيفما كان حاله الغضب أو الرضا وهذا ما تحمله هذه النصوص: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب على عائشة وضع يده على منكبها فقال اللهم اغفر لها ذنبها وأذهب غيظ قلبها وأعدها من مضلات الفتن"².

عن عائشة، أنها قالت: "لما رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم طيب نفس، قلت: يا رسول الله ادع الله عز وجل لي، فقال: "اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرت وما أعلنت". فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك. فقال لها

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج.

² عبد الرحمن بن محمد بن الحسن، ابن منصور ابن عساكر الدمشقي الشافعي، الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين، المحقق: محمد مطيع الحافظ، غزوة بدير، دار الفكر، ط. 1، دمشق، 1406، ج: 1، ص: 85.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيسرك دعائي؟" قالت: وما بي لا يسرني دعاؤك. قال: "والله إنها لدعوتي لأمتي في كل صلاة"¹.

وعن أمنا عائشة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي" قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: "أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت علي غضبي، قلت: لا ورب إبراهيم" قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك".² هذه الأحاديث اشتملت على أسلوب الحوار المتضمن قاعدة حوارية تمثلت في معرفة نفسية الآخر، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها بمعرفة حال أمنا عائشة رضي الله عنها من خلال قولها، فوجه سلوك الغضب أو الرضا بالدعاء بالمغفرة والثواب، وفي ذلك تربية وتوجيه على أن يكون غضب الشخص لله تعالى لا للنفس.

ومن الحوارات النبوية التربوية التي عالج فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم الخلاف الذي وقع بين أمنا عائشة رضي الله عنها وابنته فاطمة رضي الله عنها نجد الحديث التالي:

عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقال: "ما يبكيك؟" قلت: سببني فاطمة.

فدعا فاطمة فقال: "يا فاطمة سببت عائشة؟" قالت: نعم يا رسول الله. قال: "يا فاطمة أليس تحبين من أحب؟" قالت: بلى.
"وتبغضين من أبغض؟" قالت: بلى.
قال: "فإني أحب عائشة فأحبها".

¹ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، ط.8، السعودية، 1423هـ / 2003م، ج: 8، ص: 1514، رقم الحديث: 2756.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن.

قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئاً يؤذيها أبدا.¹

عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبوبكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمع أمنا عائشة رضي الله عنها رافعة صوتها عليه فقال: يا بنت أم رومان، ترفعي صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناولها "ليلطمها"، فحال النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينها، ثم خرج أبوبكر، فقام النبي صلى الله عليه وسلم يترضاها: "ألم تري حلت بين الرجل وبينك"، ثم جاء مرة أخرى فاستأذن، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم يضاحكها، فدخل فقال أبوبكر عليه السلام: يا رسول الله، أشركاني في سلمكما كما أشركتاني في حربكما.²

هنا يتضح لنا أسلوبه صلى الله عليه وسلم في حل المشكلات العائلية، وهو الحوار الهادئ مع أهل البيت سواء مع فاطمة رضي الله عنها في سؤاله الهادئ لها صلى الله عليه وسلم: "يا فاطمة سببت عائشة؟" وإجابتها الصادقة: نعم يا رسول الله، ثم سؤاله إياها مرة أخرى بهدوء ورحمة: "يا فاطمة أليس تحبين من أحب؟"، فتجيبه: بلى، ويسألها: "وتبغضين من أبغض؟"، فتجيب: بلى، ثم يقول لها: "فإني أحب عائشة فأحبها"، فتقول له: لا أقول لعائشة شيئاً يؤذيها أبدا. بهذه الطريق والأسلوب المعتمد المؤسس على المحبة والرحمة والصدق، نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم تمكن ليس فقط من إصلاح ذات البين بين أمنا عائشة رضي الله عنها وابنته العزيزة عليه، بل جعلها بالحوار أن تنتقل من الخصومة والخلاف بل والسب لأمنا عائشة إلى محبتها وعدم إذايتها أبدا.

¹ رواه أبو يعلى في مسنده، الجزء: 8، ص: 365، رقم الحديث: 4955

² أبو الحسين محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن هارون البغدادي الدقاق المعروف بابن أخي ميمي، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار، ج.1، دار أضواء السلف، الرياض (ضمن سلسلة مجاميع الأجزاء الحديثية، ط.5، 1426 هـ - 2005 م).

المطلب الثالث: الحوار السلوكي الأخلاقي.

إضافة إلى الحوار النفسي والتعليمي التربوي نجد الحوار السلوكي الأخلاقي، الذي أسسه الرسول صلى الله عليه بهدف إحداث التغيير في المتحاور بجعله يقبل الحق والصواب، أو العمل على تثبيت سلوكه الحسن من خلال التحفيز والتنويه، وهذا المنهج النبوي نجده حاضرا في حواراته عليه الصلاة والسلام مع أزواجه.

عن عروة بن الزبير، أن عائشة، رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله" فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد قلت: وعليكم" ¹

يؤيد معنى الرفق المقصود منه اتقاء الشر حديث آخر، عن عائشة: أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: "بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة" فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره" ².

ويتجسد الحوار الأخلاقي للنبي صلى الله عليه في حديث الغيرة التي أصابت أمنا عائشة رضي الله عنها من أزواجه الأخريات، ويرتبط بهذا البعد الأخلاقي دلالة بشرية تتعرض لها النساء في تعاملهن مع أزواجهن.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا.

كما هو معلوم فإن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أكثر من زوجة، مما جعله يعاني من غيرتهن فيما بينهن، فكيف عالج النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر وطيب خواطر أزواجه صلى الله عليه وسلم؟

كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تغير عليه من فرط حبها له. ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، قالت: فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: " ما لك يا عائشة، أغرت؟ " قالت: فقلت: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفأخذك شيطانك؟ " قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: " نعم "، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: " نعم "، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: " نعم، ولكن ربي عز وجل أعاني عليه حتى أسلم " ¹.

عن أنس، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نساءه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحيفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحيفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحيفة، ويقول: " غارت أمكم " ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفعت الصحيفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت. ²

انطلاقاً من الحديثين يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم حتى في أشد اللحظات، حين تغار إحدى أزواجه، فهو يستعمل الحوار وسيلة لعلاج هذا الأمر الطبيعي في الإنسان عموماً والنساء خصوصاً فيقنع أمنا عائشة رضي الله عنها أن شيطانها هو سبب غيرتها في الحديث الأول، وفي الحديث الثاني يحاور أزواجه بالأفعال: فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق

¹ مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج. 41، ص: 342، رقم: 24845.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة.

الصحفة، ثم دفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت.

المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأبناء والأحفاد.

لم تقتصر حوارات النبي - صلى الله عليه وسلم - على الكبار فقط، بل حاور النبي - صلى الله عليه وسلم - الصغارَ أيضاً، واستمع إليهم، ولاعبهم ولاطفهم وداعبهم، ولم يستصغر عقولهم، ولم يهمل مشاعرهم أبداً. فكان الحوار وسيلة للتوجيه والإرشاد وغرس الأخلاق الحسنة في نفوس الناشئة، في نفس الوقت تصويب وتعديل السلوكات غير المرغوب فيها، هذا المنهج النبوي أسهم في بناء شخصية الصغار الذين كان لهم الفضل في نقل العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشر الإسلام في العديد من الأقطار.

وقد اختلف العلماء في عدد أبناء الرسول صلى الله عليه وخاصة الذكور منهم، واتفق الجميع على أن البنات أربع هن: زينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة-رضي الله عنهن- وجميع البنات من السيدة خديجة رضي الله عنها، بلا خلاف، وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن إلى المدينة، وتوفاهن الله عز وجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، إلا فاطمة - رضي الله عنها - أما الذكور فقد توفاهم الله تعالى جميعاً صغاراً في سن الرضاع، ولهذا تم اختيار نموذج فاطمة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين، وأحب الناس إلى رسول الله عليه السلام ووارثة نسله الأكرم. وفي تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء في علاقته بالحوار نجد مجموعة من المعاني منها:

1 - مخاطبة الأبناء باللطف واللين مع القبلة في الجبين:

كان الرسول صلى الله عليه يحب أبنائه ويخاطبهم بالرحمة واللين، فعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: كان إبراهيم¹ مسترضعا له في عوالي المدينة فكان ينطلق، ونحن معه، فيدخل البيت وإنه ليدخن وكان ظئره² قينا فيأخذه فيقبله"³

وكان صلى الله عليه وسلم ينادي أبنائه خصوصا فاطمة عليه السلام بألطف العبارات وألينها وبتودد الأب الحنون "يا بنية"، جاء في حديث طويل للشيخان نأخذ منه هذه العبارة الجميلة: "... ثم إنهم "أزواج النبي" دعون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فأرسلت إلى رسول الله تقول: إن نسائك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر فكلمته، فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب قالت بلى⁴.

2 - حرصه صلى الله عليه وسلم على مشاعر أبنائه وحسن استقبالهم:

كما كان حريصا على مشاعر زوجاته، كان حريصا على مشاعر ابنته - بل جميع أبنائه - فما كان يقطع عنهم زيارته ولا ابتساماته، وكان يكلمهم بالكلام الطيب، وكان يقف بجانبهم في السراء والضراء يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم...

قال صلى الله عليه وسلم: "فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني" يريني ما أراها ويؤذني ما آذاها"⁵.

¹ إبراهيم ابنه عليه السلام من مارية القبطية وهو آخر أولاده مات على 18 سنة.

² الظئر: المرضعة غير ولدها، وظئر إبراهيم: هو زوج مرضعته، وكان قينا: يعني حدادا.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه ج: 4، ص: 1808. رقم: 2316.

⁴ رواه الإمام البخاري، كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن.

⁵ رواه الإمام مسلم في صحيحه فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

كان يستقبل فاطمة ويرحب بها كما كان يستقبل الوفود والصحابة، ويرحب بها ويلطفها بالقول والفعل، عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: "أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مرحبا بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها حديثا"¹

"مرحبا بابنتي" سعادة وفرح وحبور بقدوم ابنته واستقبال بكل رحابة صدر. أبناءنا جنة قلوبنا.

وفي رواية أخرى عن الترمذي "... وكانت إذا دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم قام إليها فقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت من مجلسها، فقبلته وأجلسته في مجلسها"²

فكانت جمالية هذا الحوار يظهر لنا المحبة الصافية والجانب العاطفي الذي يجمع الأب وابنة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، لكي تكون درسا عمليا لكل راع ومرب، المربي الكبير صلوات الله عليه وسلم يعلمنا كيف نتعامل مع فلذات أكبادنا، حبا وتقديرا واحتراما.

إن حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع ابنته سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، الذي يرويه سيدنا علي كرم الله وجهه يوضح مجموعة من المعاني، عن علي، أن فاطمة رضي الله عنهما أتت النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحي، وبلغها أنه جاءه رقيق، فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته عائشة، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: "على مكانكما" فجاء فقعد بيني وبينها، حتى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: "ألا أدلكما على خير مما سألتكما؟ إذا أخذتما مضاجعكما - أو أويئتما إلى فراشكما -

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، رقم: 886، ورواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة.

² الترمذي، كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم"¹
وفي رواية أخرى:

قال: فقال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت حتى قد اشتكيت صدري وقد جاء الله أباك بسبي فاذهي فاستخدميه. فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداي. فأنت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: ما جاء بك يا بنية؟ قالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت. فقال: ما فعلت؟ قالت: استحيت أن أسأله. فأتياه جميعاً فقال علي: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري. وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي وقد أتى الله بسبي وسعة فاخدمنا. قال: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمائهم. فرجعا فأتاها النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطيا رؤوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما فثارا فقال: مكانكما. ألا أخبركما بخير مما سألتما؟ فقالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل تسبحان في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين.

قال: فو الله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله. فقال له ابن الكواء: ولا ليلة صفين؟

فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق. ولا ليلة صفين.²

يتضمن الحديث النبوي حواراً بين النبي صلى الله عليه وسلم وحبية قلبه فاطمة الزهراء رضي الله عنها، التي تعاني من أشغال البيت فتقول: "طحنت حتى مجلت يداي"، وهو حوار تربوي تعليمي لابنته وابن عمه وتوجيهي نحو ما هو أفضل وأنفع لهما في دنياهما وأخراهما، حيث لم يستجب لهما صلى الله عليه وسلم رغم قدرته على إعطائهما ما يريدان. كما لم يمنع كبر

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، رقم: 5361.

² ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء: 8، ص: 21.

سيدتنا فاطمة رضي الله عنها وسيدنا علي كرم الله وجهه في السن النبي صلى الله عليه وسلم من تعليمهما وتربيتهما. رغم هذا كله فإن حبه لهما وحرصه عليهما ووظيفته صلى الله عليه وسلم كمرب ومعلم، جعلته في حوار مع ابنته وزوجها، يسعى إلى إقناعهما بما هو أفضل لهما ويستجيب لحاجتهما، إذ لم يخبرهما مباشرة، بل انتظر حتى ذهب إليهما في بيتهما وجلس بينهما " فجاء فقعد بيني وبينها، حتى وجدت برد قدميه على بطني " وهذه كلها مقدمات للحوار وأسلوب في التعليم والتربية ثم يتممه بطرح السؤال وإثارة الانتباه والاهتمام لأنهما محتاجان والمحتاج أسير بغيته ألا أخبركما بخير مما سألتما؟ فقالا: بلى. " وبعد ذلك جاء الجواب الشافي "فقال: كلمات علمنيهن جبريل تسبحان في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين." والاستجابة الكاملة "قال: فو الله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله. فقال له ابن الكواء: ولا ليلة صفين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق. ولا ليلة صفين". ومما سبق يتبين لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم في حوار مع ابنته كان حوار عاطفياً توجيهياً حجاجياً تعليمياً تربوياً، يجعل كل أب ينظر إلى الأسلوب الذي يجب اتباعه مع الأبناء سواء كانوا صغاراً أو كباراً وهذا ما سيظهر جلياً كذلك في تعامله مع أحفاده حيث ارتكز حوار صلى الله عليه وسلم على الملاحظة والمداعبة والملاعبة بهدف التربية بالفعل، وهو نوع له تأثير أكثر من التربية بالقول، إضافة إلى خصوصية شخصية الطفل التي تتسم بالحركة.

عن عبد الله بن شداد، عن أبيه، قال: دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة، فخرج وهو حامل حسنا - أو حسيناً - فوضعه إلى جنبه فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطل فيها، قال أبي: فرفعت رأسي من بين الناس فإذا الغلام على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعدت رأسي فسجدت، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له القوم: يا

رسول الله لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها، أفكان يوحى إليك، قال: "لا ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته"¹

عن يعلى العامري، أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلى طعام دعوا له، فإذا حسين يلعب مع الغلمان في الطريق فاستقبل أمام القوم، ثم بسط يده وطفق الصبي يفر هاهنا مرة وهاهنا، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه حتى أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى تحت قفاه، ثم أقنع رأسه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع فاه على فيه فقبله فقال: "حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط"²

تحركت عاطفة الأبوة من النبي صلى الله عليه وسلم عندما شاهد الحسين، فلم ينهه عن لعبه مع الغلمان في الطريق، وإنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تقريب الصبي إليه من خلال حمله وتقبيله، وبيان قدره ومكانته عند الله تعالى، هذا الحديث وغيره يدل على السيرة النبوية احتوت على مجموعة من الدروس والعبر التي يمكن أن نستفيد منها في الحوار مع الأبناء:

1- مراعاة الرسول صلى الله عليه وسلم لوضع الصبي الحسين رضي الله عنه على الرغم أنه في عبادة يدل على الرحمة التي اختص بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهذا المعنى أشارت إليه السيرة النبوية في مسألة التخفيف في الصلاة لأجل الصبي.

2- مداعبة الصبي فيها دلالة الرعاية والاهتمام، ولهذا سن الرسول الكريم ملاعبة الصبيان ورعاية خاطرهم، حتى ولو كنا في شغل من أشغال الجد والعبادة.

¹ مصنف بن أبي شيبة، كتاب الفضائل، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط.1، الرياض، 1409، ج:6، ص:379، رقم الحديث: 32191.

² كتاب الفضائل، ج: 6، ص: 380، رقم الحديث: 32196.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كان النبي يصلي والحسن والحسين على ظهره فيباعدهما الناس، فقال صلى الله عليه وسلم: دعوها بأبي هما وأمي من أحبني فليحب هذين"¹

تجلى مفهوم التربية في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتباطه بالأبعاد النفسية والاجتماعية التي ينبغي استحضارها من طرف الآباء في تربية أبنائهم.

إن الموقف الذي عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيصاله للصحابة رضي الله عنهم، لا يتعارض مع الوصية بعظمة عبادة الصلاة، حيث لا ينبغي أن تلهيهم تجارة ولا بيع عن إقامة الصلاة، يحمل المصطفى صلى الله عليه وسلم بعض أحفاده، ويبتلي في السجود لكيلا يقطع على الطفل متعته في اللعب فوق ظهره الشريف، وفي هذا تجسيد لمفهوم الرحمة التي نرجوها أن تحقق في القلب من خلال الصلاة.

فمिल الصبيان إلى اللعب حاجة مهمة في التربية ينبغي الالتفات إليها والتهمم والاشتغال بها لا الانزعاج منها.

3- الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أمام الحاضرين منزلة الحسين من قلبه: "حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط".

4- التوجيه والإرشاد بالسلوك للحاضرين في التعامل مع الصغار بأسلوب الحوار، وفي ذلك تأثير بليغ في النفوس أقوى من القول بدون سلوك.

5- التهمم بمشاعر الطفولة ومألوفها: تهمم وملاطفة وتعليم نقرؤها في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الطفل "أبو عمير" في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما رحمهم الله من حديث أنس رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير... وكان له طائر يقال له النغير" وكان إذا جاء قال: "يا أبا عمير ما فعل النغير؟"²

¹ صحيح ابن حبان، رقم: 7970.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب: باب الكنية للصبي وقبل ان يولد للرجل.

التفاته كريمة وملاعبة خفيفة وتعليم رحيم من والد مربي كريم عليه الصلاة وأزكى التسلم.

6- المعانقة والتقبيل للأبناء: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب الحسن والحسين وسائر أحفاده وأسباطه، وكان يعلن ذلك أمام الملاء، وكان يعبر عن ذلك بالقبلة والعناق والاحتضان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم" ¹.

الحديث فيه إشارة لطيفة في التربية وهي التعليم بالقدوة، تعليم الآخرين من خلال المشاهدة العينية والتطبيق العملي، لخلق لم تألفه العرب في الجاهلية.

وروى الإمام أحمد في مسنده وبسنده عن عمير بن إسحاق رضي الله عنه قال: كنت مع الحسن بن علي ولقينا أبو هريرة فقال: "أرني أُقبلُ منك حيث رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل، قال، فقال: بقميصه،" يعني رفع قميصه عن بطنه" قال فقبل سرته" ².

اقتداء وتأس بالمصطفى عليه السلام حتى في تقبيل الأطفال وفي مواضع محدودة كالسرة، هكذا يكون الصدق في الإتياع وحسن الصحبة دون ابتداء.

7- التربية على الرياضة والتنافس لليافين: الرسول صلى الله عليه وسلم في مشهد تربوي لطيف يصفف الصبية صفا صفا لينطلقوا في السباق سويا، يشركهم بذلك جميعا في بهجة الرياضة لتكتمل لهم المتعة ويطيب لهم العيش، فعن عبد الله بن الحارث قال: "كان صلى الله عليه وسلم

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

² الإمام أحمد في المسند، رقم: ج: 2، ص: 255.

يصف عبد الله وعبيد الله وكثيرا من بني العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا قال فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم¹.

شرف وجائزة، ملازمة واحتضان لصبية يلعبون، ويعانق ويقبل ويشجع ويوقد الحماس، إنه المربي عليه الصلاة والسلام، حماس المنافسة، ينمي في الأبناء روح طلب المعالي والمسارة إلى الخيرات بين الأقران، وهكذا تصنع الرجال لبناء الأمة.

8-التعليم بالقول والفعل / بالعقل والعاطفة: كان صلى الله عليه وسلم المربي الحكيم يقرن الفعل بالقول ويخاطب في الشباب العاطفة والعقل معا، ويستعمل التبشير والإنذار في التوجيه والموعظة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "كخ كخ"² إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة"³ يعلمنا الرسول الكريم كيف نؤدب الطفل ونحفظه عن كل ما فيه خطر أو خطأ، وكيف نزرع القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة في نفس الصغير حتى يكون لها الأثر الواضح في كبره.

وعن أبي الحوراء السعدي قال: قلت للحسن بن علي: ما حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: حفظت من رسول الله: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة"⁴.

كما يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على اصطحاب أحفاده والصبيان إلى صلاة العيد، فعن عبد الله عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في العيدين مع الفضل بن عباس، وعبد الله بن عباس، والعباس، وجعفر، والحسن، والحسين، وأسامة

¹ مسند الإمام أحمد، ج: 1، ص: 214، رقم: 1835.

² كخ كخ: هو زجر للصبي وردع، ويقال عند التقذر.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة باب تحريم الزكاة على رسول الله وآله.

⁴ أخرجه الترمذي ج: كتاب صفة القيامة. والريبة هي القلق، والريب هو الشك.

بن زيد، وزيد بن حارثة، وأيمن بن أم أيمن، رافعا صوته بالتهليل والتكبير، فيأخذ طريق الحدادين حتى يأتي المصلى، فإذا فرغ رجع على الحذائين حتى يأتي منزله.¹

هذا الحديث يبرز النبي القدوة صلى الله عليه وسلم وهو يخرج مع أحفاده وأهل بيته لصلاة العيدين حرصا على تربيته وتعليمهم. إن تحرك الأسرة المسلمة الأب والأم والأولاد إلى صلاة العيد، وإظهار الفرحة والبهجة واللبس الجديد، والتزين لصلاة العيد، تزيد من فرحة الأطفال وتنشئتهم تنشئة إيمانية، وحبا صادقا لصلاة العيد، وتربيتهم المجتمع الإسلامي في أحلى منظر، وأجمل مشهد، يقول المسلم لأخيه مهنئا: تقبل الله منا ومنك، ويزيدون عليها ما يشاءوا. نبعد ذلك من العبارات والكلمات المهينة، ومهما كانت الظروف التي تمر بها البلاد، فإنها لا بد من إظهار فرحة العيد لأنها عيد المسلمين أتى بعد طاعة الله، وأما إظهار الحزن في ذلك اليوم فليس من السنة في شيء إلا ما استثنى في حالة الوفاة. والله أعلم

كما كان يحرص عليه الصلاة والسلام على تعليم أحفاده والصبيان الصلاة فيباشر بنفسه تعليمهم ما يحتاجونه في الصلاة: فعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر: "اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت"²

إن بناء العبادة يعد مكملا لبناء العقيدة، إذ العبادة تغذي العقيدة بروحها، كما أنها المنعكس الذي يعكس صورة العقيدة ويجسمها، والطفل عندما يتوجه لنداء ربه، ويستجيب لأوامره، فإنما هو يلبي غريزة فطرية في نفسه، فيشبعها ويرويها. ولهذا السبب يحرص النبي صلى الله

¹ رواه بن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: باب التكبير والتهليل في الغدو إلى المصلى في العيدين إن صح الخبر؛ فإن في القلب من هذا الخبر، وأحسب الحمل فيه على عبد الله بن عمر العمري، إن لم يكن الغلط من ابن أخي ابن وهب.

² رواه الترمذي في سننه، كتاب الصلاة: باب: ما جاء في القنوت من الوتر.

عليه وسلم على تعليم أحفاده الصلاة منذ الصغر بالحوار المعلم وذلك لأهمية ودور العبادة في تركيز وتثبيت العقيدة في نفس الطفل، وهذه الأهمية نبه إليها الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه "قواعد الاعتقاد".

" وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة القرآن ومعانيه، ويشغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهد الصالحين ومجالسهم، وسيماهم وسماعهم وهيئاتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه، والاستكانة له، فيكون أول التلقين كالقلاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له، حتى ينمو ذلك البذر ويقوى، ويرتفع شجرة طيبة راسخة: أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ثم الصبي إذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة، إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها، ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش، وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا، وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة، وساعده التوفيق، حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى، ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية، تكشف عن حقائق هذه العقيدة، بنور إلهي يقذف في قلبه، بسبب المجاهدة، تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"¹.

وإلى هذا أشار الدكتور سعيد رمضان البوطي رحمه الله بقوله: "ولكن لا بد لكي يظل غرس العقيدة قويا في النفس، من أن يسقى بماء العبادة، بمختلف صورها، وأشكالها، فبذلك

¹ سورة العنكبوت، الآية: 69.

تنمو العقيدة في الفؤاد، وتترعرع، وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها¹. وبما أن الطفولة ليست مرحلة تكليف، وإنما هي مرحلة إعداد وتدريب وتعويد، حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إعداد وتدريب وتعويد أحفاده كما جاء في الحديث الشريف: " علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر " من أجل الوصول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ، ليسهل عليه أداء الواجبات والفرائض، وليكون على أتم الاستعداد لخوض غمار الحياة، بكل ثقة وانطلاق، والعبادة لله تعالى تفعل في نفس الطفل فعلاً عجيماً، فهي تشعره بالاتصال بالله جل وعلا، وهي تهدئ من ثوراته النفسية، وهي تلجم انفعالاته الغضبية، فتجعله سوياً مستقيماً، إذ كثافة الشهوات ضعيفة في تلك الفترة، مما يجعل روحه تتجاوب أكثر فأكثر بمناجاة الله، ويأخذ الخشوع المساحة الكبرى من جسده، وهو يرتل آية أو يسمعها، أو هو واقف في الصلاة أو ساجد فيها، وهو يسمع آذان الإفطار ليبدأ بالطعام والشراب، بعد أن صام يومه، وهناك أسرار كثيرة للعبادة لا تعد ولا تحصى، تؤثر في الطفل مما يزيد قوته ونشاطه، وبذلك تفضل التربية النبوية عن أي تربية كانت.²

¹ في كتابه: تجربة التربية الإسلامية ص: 40.

² كتاب: منهج التربية النبوية للطفل، تأليف: محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، الناشر: اتحاد الناشرين السوريين دارين كثير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة 1430 - 2009م، عدد الأجزاء: 2. الجزء: 2، ص: 360-361.

المبحث الثالث: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الخدم.

كانت الرحمة جزء لا يتجزأ من نفسه صلى الله عليه وسلم ولا عجب أن يسعد بها كل من حوله وأن يكون أوفرهم نصيباً منها هم أقرب الناس إليه من أهله وأزواجه وجيرانه وخدمه وإمائته صلى الله عليه وسلم. ويكفي في هذا شهادة أنس رضي الله عنه قال: " خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت " ¹. وقال رضي الله عنه: خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيعته، فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: " دعوه، فلو قدر - أو قال: لو قضي - أن يكون كان " ². وقد كان صلى الله عليه وسلم يرحم فيه صغر سنه ويعامله كأبنائه حتى كان أشبه الناس بمشيتته وحركته وصلاته رضي الله عنه. وقد أوصى بالخدم رحمة بهم، فعن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية "، قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: " يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم " ³.

وأمر بمؤاكلتهم أو إعطائهم من الطعام الذي يقدمونه، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه، ثم جاءه به، وقد ولي حره ودخانه،

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب: باب: حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

² رواه أحمد في مسنده، ج. 21، ص: 102، رقم: 13418.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك.

فليقعه معه، فليأكل، فإن كان الطعام مشفوها قليلا، فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين"، قال داود: "يعني لقمة، أو لقمتين"¹

من هذه المقدمة حول رحمته صلى الله عليه وسلم بالخدم عموما نتساءل حول العلاقة التي تربط النبي صلى الله عليه وسلم بخدمه وهل كان يحاورهم؟ أم كان يعتبرهم مجرد خدم؟ لأجل التحقق من هذا الأمر، سنقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض المواقف والمشاهد التي حاور فيها خدمه، حيث لن نجد خادما لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل سيدنا أنس رضي الله عنه نموذجا لكثرة خدمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم منذ كان ابن عشر سنين.

- المشهد الأول:

عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فذهبت بي أُمِّي إليه، فقالت: يا رسول الله، إن رجال الأنصار ونساءهم قد أتخفوك غيري، ولم أجد ما أتخفك إلا ابني هذا، فاقبل مني يخدمك ما بدا لك قال: فخدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين، فلم يضربني ضربة قط، ولم يسبني، ولم يعبس في وجهي، وكان أول ما أوصاني به أن قال: "يا بني، اكتم سري تكن مؤمنا"، فما أخبرت بسره أحدا، وإن كانت أُمِّي، و أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألنني أن أخبرهن بسرهن فلا أخبرهن ولا أخبر بسرهن أحدا أبدا، ثم قال: "يا بني أسبغ الوضوء يزد في عمرك ويحبك حافظاك"، ثم قال: "يا بني، إن استطعت أن لا تبیت إلا على وضوء فافعل، فإنه من أتاه الموت وهو على وضوء أعطي الشهادة"، ثم قال: "يا بني، إن استطعت أن لا تزال تصلي فافعل فإن الملائكة لا تزال تصلي عليك ما دمت تصلي"، ثم قال: "يا بني، إياك والالتفات في الصلاة، فإن الالتفات في الصلاة هلكة، فإن كان لا بد ففي التطوع لا في الفريضة"، ثم قال لي: "يا بني، إذا ركعت فضع كفيك على ركبتيك، وافرج بين أصابعك، وارفع يديك على جنبيك، فإذا رفعت

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب: إذا أتاه خادمه بطعامه.

رأسك من الركوع فكن لكل عضو موضعه، فإن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من لا يقيم صلبه في ركوعه وسجوده"، ثم قال: "يا بني، إذا سجدت فلا تنقر كما ينقر الديك، ولا تقع كما يقعي الكلب، ولا تفتش ذراعيك افتراش السبع، وافرش ظهر قدميك الأرض، وضع إيتيك على عقبك فإن ذلك أيسر عليك يوم القيامة في حسابك، ثم قال: "يا بني بالغ في الغسل من الجنابة تخرج من مغتسلك ليس عليك ذنب ولا خطيئة" قلت: بأبي وأمي، ما المبالغة؟ قال: "تبل أصول الشعر، وتنقي البشرة"، ثم قال لي: "يا بني، إن قدرت أن تجعل من صلواتك في بيتك شيئاً فافعل فإنه يكثر خير بيتك" ثم قال لي: "يا بني، إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك"، ثم قال: "يا بني، إذا خرجت من بيتك فلا يقعن بصرك على أحد من أهل القبلة إلا سلمت عليه ترجع وقد زيد في حسناتك"، ثم قال: "يا بني، إن قدرت أن تسمي وتصبح وليس في قلبك غش لأحد فافعل"، ثم قال لي: "يا بني، إذا خرجت من أهلك فلا يقعن بصرك على أحد من أهل القبلة إلا ظننت أن له الفضل عليك"، ثم قال لي: "يا بني، إن حفظت وصيتي فلا يكونن شيء أحب إليك من الموت"، ثم قال لي: "يا بني إن ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة" لا يروى عن أنس بهذا التمام إلا بهذا الإسناد، تفرد به مسلم الأنصاري وكان ثقة..¹

هذا الحديث العجيب يلخص حال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خادمه الوفي سيدنا أنس رضي الله عنه، فهو رضوان الله عليه لخص لنا زبدة عشر سنوات من حياته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث يصور لنا حرص رسول الله على تعليم سيدنا أنس رضي الله عنه وتربيته وتأديبه مع أنه خادم له، ويستعمل لأجل ذلك أرقى الأساليب وأجمل الألفاظ وألطفها.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه الموجه لسيدنا أنس رضي الله عنه نجد أنه يستعمل أسلوباً حنوناً الأب على ابنه "يا بني" وتكرارها يعبر أيما تعبير على أن الأسلوب

¹ الطبراني، المعجم الصغير، ت: محمد شكور محمود الحاج أمير، ج. 2، المكتب الإسلامي، دار عمار، ط. 1، بيروت، عمان، 1405 هـ / 1985، ص: 100، رقم الحديث: 856.

الحواري الذي انتهجه عليه الصلاة والسلام مع سيدنا أنس رضي الله عنه خادمه، هو نفسه الذي حاور به أبناءه وأحفاده وأهل بيته أجمعين، فنجد هنا مساواة في أسلوب الحوار وأدبا في الكلام وتنوعا لمواضيع الحوار: فنجد يوصيه بمحاسن الأخلاق فيقول له: "يا بني، اكتم سري تكن مؤمنا"، ثم بالطهارة فيقول: "يا بني أسبغ الوضوء يزد في عمرك ويحبك حافظاك" وقوله صلى الله عليه وسلم "يا بني بالغ في الغسل من الجنابة تخرج من مغتسلك ليس عليك ذنب ولا خطيئة"، ثم الصلاة حيث علمه كيفيتها يا بني، إن استطعت أن لا تزال تصلي فافعل فإن الملائكة لا تزال تصلي عليك ما دمت تصلي..... إلى أن قال: "يا بني، إذا سجدت فلا تنقر كما ينقر الديك، ولا تقع كما يقعي الكلب، ولا تفتش ذراعيك افتراش السبع، وافرش ظهر قدميك الأرض، وضع إيتيك على عقبيك فإن ذلك أيسر عليك يوم القيامة في حسابك..."

كما نجد سيدنا أنس رضي الله عنه لا يتوانى عن سؤاله صلى الله عليه وسلم إذا لم يفهم كما جاء في الحديث: "يا بني بالغ في الغسل من الجنابة تخرج من مغتسلك ليس عليك ذنب ولا خطيئة" قلت: بأبي وأمي، ما المبالغة؟ قال: "تبل أصول الشعر، وتنقي البشرة"، وهذا دليل على تفاعل حوار بين متعلم مع معلمه وليس خادم مع سيده.

- المشهد الثاني:

عن أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا"، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: "يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟" قال قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله¹

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا.

ننتقل الآن إلى مشهد آخر للحوار في تعامله صلى الله عليه وسلم مع خدمه، حيث سيتبين لنا في هذا المشهد كيف استعمل النبي صلى الله عليه وسلم الحوار لتنبيه وتذكير سيدنا أنس رضي الله عنه. جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل سيدنا أنس إلى حاجة، فذهب يلعب ونسي ما أمره به سيده إذ هو خادمه، فتأخر عنه فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسه فوجده يلعب، هنا انظر معي كيف سيكون رد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيدنا أنس: "إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ،" سبحان الله أمسك به فلما نظر إليه وجده يضحك ولم يجده مكفها أو متجها أو غاضبا، وهذا من أهم صفات المحاور الناجح، أضف إلى ذلك ناداه بتصغير اسمه فقال: "يا أنيس" ثم سأله: "أذهبت حيث أمرتك؟" فيجيب بذكاء: قال قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله.

هنا سيدنا أنس رضي الله عنه لم يهرب بل حاور النبي صلى الله عليه وسلم فأجابه عن سؤاله وهذا بسبب أسلوب الحوار الذي نهجه النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعطي الثقة والأمان والطمأنينة للمحاور وإن كان صبيا أو خادما.

- المشهد الثالث:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلمس حاجات خدمه ويقضيها لهم تماماً كما يكون مع أهل بيته صلى الله عليه وسلم.

عن زياد بن أبي زياد، مولى بني مخزوم، عن خادم للنبي صلى الله عليه وسلم، رجل أو امرأة، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يقول للخادم: "ألك حاجة؟" قال: حتى كان ذات يوم فقال: يا رسول الله، حاجتي قال: "وما حاجتك؟" قال: حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: "ومن ذلك على هذا؟" قال: ربي قال: "إما لا، فأعني بكثرة السجود"¹

¹ رواه أحمد في مسنده، ج: 25، ص: 479، رقم: 16076.

عن ربيعة بن كعب قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلني أعطك"، قلت: يا رسول الله، أنظرني أنظر في أمري، قال: "فانظر في أمرك"، قال: فنظرت فقلت: إن أمر الدنيا ينقطع فلا أرى شيئاً خيراً من شيء آخذه لنفسي لآخرتي، فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ما حاجتك؟"، فقلت: يا رسول الله، اشفع لي إلى ربك عز وجل، فليعتقني من النار، فقال: "من أمرك بهذا؟"، فقلت: لا والله يا رسول الله، ما أمرني به أحد، ولكني نظرت في أمري فرأيت أن الدنيا زائلة من أهلها، فأحببت أن آخذ لآخرتي، قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود"¹.

من خلال الحديثين يظهر حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم خدمه وقضاء حوائجهم بمحاورتهم عن طريق السؤال فقال: "ما حاجتك؟" لإثارة فضولهم واهتمامهم فمنهم من يجيب في الحال فيقول: "حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة"، ومنهم من يتردد ليفكر فيما يجب أن يطلب "فقلت: يا رسول الله، أنظرني أنظر في أمري"، فإذا فكر وقرر ما يريد قال: "فقلت: يا رسول الله، اشفع لي إلى ربك عز وجل، فليعتقني من النار". ثم يستفهم النبي صلى الله عليه وسلم منهم فيقول: "وَمَنْ ذَلِكَ عَلَى هَذَا؟" أو "من أمرك بهذا؟" ... حوار جميل بين سيد الخلق وجزء من أهل بيته وهم خدمه رضوان الله عليهم يعلمنا به كيف يجب أن نعامل هذه الفئة من الناس التي تعاني ولا تزال عبر التاريخ من النظرة الدنيا التي تعتبرهم مجرد عبيد لا يصلحون إلا لتنفيذ الأوامر.

- المشهد الرابع:

أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم واللفظ لأحمد عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمتي، قلت: يقيل - أي: ينام بعد الظهر - رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إلى صبيان يلعبون،

¹ رواه أحمد في مسنده، ج. 27، ص: 117، رقم: 16578.

قال: فجئت أنظر لعبهم، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على الصبيان يلعبون، قال: فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في فيء، حتى أتيتها، واحتبست عن أمي، عن الإتيان الذي كنت آتيها فيه، لما أتيتها، قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فاحفظ على رسول الله سره، قال ثابت: قال لي أنس: لو حدثت به أحدا من الناس، أو لو كنت محدثا به، لحدثتك به يا ثابت.¹

نجد في هذا الحديث النبوي الشريف سيدنا أنس رضي الله عنه يقص علينا خدمته لرسول الله التي كان يقوم بها بفرح وسرور رضي الله عنه، إذ نبصر في هذا المشهد التعامل الأبوي وليس السيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خادمه أنس رضي الله عنه إذ يربيه وينشأه على خدمة البيت حيث يرسله لقضاء الحاجات إذ أن قضاء حاجات المنزل أو لأحد الوالدين، ذو أثر فعال، وإيجابي، في حياة الطفل، فعال في طفولته إذ هو يتعرف على مجاهيل الحياة، فيشعر بفرح، ونشوة المعرفة، وثقة في مواجهة الأمور، وفعال في مستقبله، كما تجعل الطفل لا ينسى، ويحدث بها في كبره، إذ يكون قد اكتسب مهارة، وخبرة في طفولته، التي تمكنه من متابعة حياته، بخطى ثابتة، مركزة بدون خلل، أو اضطراب.

¹ رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم: 13022.

- المشهد الخامس:

روى النسائي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: -
وذلك عند السحور- " يا أنس! إني أريد الصيام، فأطعمني شيئاً" فأتيته بتمر وإناء فيه ماء،
وذلك بعدما أذن بلال، (أي: الأذان الأول للفجر) قال: " يا أنس! انظر رجلاً يأكل معي "
فدعوت زيد بن ثابت فجاء، فقال: أريد شربة سويق، وأنا أريد الصيام، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: " وأنا أريد الصيام " فتسحر معه، ثم أقام، فصلى ركعتين، ثم خرج إلى الصلاة.¹

في هذا الحديث يتبين لنا الأسلوب الحوارى العملي فيتدرب الطفل الخدمة داخل البيت
بمساهمته في وضع مائدة الطعام، وذلك ليشترك الأسرة في العمل، ويساهم في الإعداد، ويتعرف
على أماكن الأشياء ومسمياتها. فهي تربية عملية، تزداد إلى رصيد خبرة الطفل، فتتكون شخصيته
الاجتماعية، بالتفاعل مع الحياة والناس، ولا ينتابه الخجل المقيت، والتوقع على نفسه، بل ترفده
خبرته مع والديه، مما يجعله واثقاً من نفسه، لا تهزه المواقف الاجتماعية مهما اختلفت حدتها.

هكذا يمكن القول حينما نتحدث عن نالهم شرف خدمته أو حراسته أو غير ذلك
فينبغي ألا يتبادر إلى الذهن تلك الصورة القائمة في بيوت الحكام والأمراء ومن كان على
شاكلتهم، أولئك الذين جعلوا من الحراس والخدم وسيلة للفصل بينهم وبين الناس من جانب،
وللترفع عليهم من جانب آخر.

وكلما كثر الحرس، وكثر الخدم، كلما كان ذلك دليلاً على أبهة صاحب ذلك ورفعة
مكانته.

كلا!! إننا ونحن نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام صورة أخرى بعيدة
كل البعد عما استقر في أذهان الناس. إنها صورة فريدة. يفخر فيها الخادم بخدمته والحارس
بحراسته.

¹ رواه النسائي، كتاب الصيام، باب كيف الفجر.

إننا أمام خدم وحرس.. لا يتناولون مقابل عملهم شيئاً من بيت مال المسلمين، ولا يثقلون خزينة الدولة بالأعباء.

إنهم متبرعون متطوعون، لم يكلفهم أحد بذلك، بل اختار كل منهم العمل الذي أحب أن يشارك فيه محبة واحتراماً وتقديرًا ابتغاء وجه الله تعالى ورجاء دعوة صالحة من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأمثلاً في القرب منه والسعادة بالجلوس إليه.

صورة وضيئة، العلاقة فيها الحب، والأجر فيها الثواب في الآخرة، والسعادة الروحية في الحياة الدنيا.

وفي ظل هذا المعنى تحدثنا بشكل مجمل عن بعض من نالهم هذا الشرف رضي الله عنهم وأبرزنا كيف حاورهم وعلمهم بالحوار وأدبهم؟.

هكذا رأينا معكم كيف يتعامل الرسول الكريم مع أفراد أسرته من أزواج وبنين وحفدة وخدم، ومع سائر أبناء مجتمعه المسلم، فالأسرة القوية عماد المجتمع القوي، والمجتمع القوي عماد الأمة القوية، فهي اللبنة الأساس في بناء المجتمعات.

إذن من البيت تنطلق التربية، إن كان البيت يسكنه مؤمنون، وكانت قلوب المؤمنين يسكنها حب الله عز وجل، والخوف منه والرجاء فيه، فلا ريب أن تكون الأسرة كيانا محوريا لبناء شخصية الطفل ومحضنا قويا لتكامل نفسيته وتقويم سلوكه. فإذا كانت الأسرة أولى عوامل التربية، فالمدرسة ثاني العوامل لتحقيق الهدف التربوي النفسي والهدف التعليمي، وثالث هذه العوامل هو المسجد، وهو مركز حياة المسلمين الروحية والاجتماعية والتربوية، كل ذلك ينتج لنا تربية قرآنية مستقبلية علمية شاملة.

يقول محمد قطب رحمه الله: "... هذان الخطان من خطوط التربية: الحب والحنان والرعاية من جانب، وتنمية القدرة على الضبط من الجانب الآخر... يظان عاملين طالما كان هناك تربية وتوجيه - وهما- يمثلان أصلا من أصول التربية الإسلامية وهو التوازن".¹

وهكذا فإن دراسة الحوار النبوي مع الأزواج والأبناء والأحفاد مكننا من الوصول إلى مجموعة من الأسس والقواعد التي دعا إليها الإسلام من أجل ضمان سلامة الأسرة واستقرارها. ولهذا نجد أن التشريعات المتعلقة بالأسرة لها حظوة بين باقي التشريعات، لأنها ضرورة اجتماعية يحرص الإسلام على حفظها وبنائها بناء متينا، وفي ذلك حفظا للإنسان والمجتمع.

إن الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، وإن الاستقرار الأسري الضامن لسعادة الأب والأم والأبناء يعد عاملا مهما في استقرار المجتمع، فالأسرة خاضعة للتفاعل بين أفرادها، فإما أن يكون هذا التفاعل إيجابيا فتتقدم الأسرة وتنتج أبناء صالحين، وإما أن يكون هذا التفاعل سلبيا فتصبح أسرة مريضة تهدد استقرار المجتمع الآمن بإنتاجها.

وإن من أهم أدوات استقرار الأسرة هو التواصل والحوار، إذ إن من صفات الأسر المريضة أن التواصل والحوار بين أفرادها يكون غير مباشر وغير واضح أو يغيب الصديق فيه إن لم يكن منعما، بينما التواصل المباشر والواضح والصادق والحوار البناء من سمات الأسر المستقرة.

فالفرد الذي لا ينعم بالاستقرار الأسري لا يستطيع أن يمارس الاستقرار في علاقاته، وحيث إنه لم يتذوق حلاوة الاستقرار الأسري فهو لا يعرف قيمة السلام وخاصة إن كانت بداخله معركة وقلق واضطراب. فالفرد يحمل بداخله سمات البيت الذي تربى فيه. ومن هنا كان اهتمام الإسلام منذ اللحظة الأولى للقاء الزوجين بوضع الضمانات الكافية لتحقيق الاستقرار الأسري.

¹ محمد قطب، منهج التربية الإسلامية ج.2. دار الشروق، ط.13، 1412هـ/1992م، ص: 112. بتصرف.

في هذا المقام أذكر بأهم الأسس والقواعد التي دعا إليها الإسلام من أجل ضمان سلامة الأسرة واستقرارها، لأن التذكير بهذه الأسس يفرض نفسه في واقع تتعرض فيه الأمة إلى حملة شرسة لسلب هويتها ومنع تقدمها، وما الأسرة المسلمة ببعيدة عن هذا الواقع، بل هي المستهدف الأول من هذه الحرب الشرسة التي تقودها الصهيونية العالمية والأنظمة اللائكية وبعض المغربين المنبهرين بنظريات وأفكار عفا عنها الزمان وثبت فسادها.

ومن بين الأسس التي تؤدي إلى استقرار الأسرة المسلمة وتسهم في بناء صرح الأمة وتحقيق الاستخلاف الرباني في الأرض أذكر ما يلي:

أولاً: المعاشرة بالمعروف.

قال تعالى: "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"¹، والمقصود بالمعاشرة: المخالطة والمصاحبة؛ فينبغي أن تكون هذه المعاشرة بين الزوجين (بالمعروف) أي ما جرى به عرف الناس مما يعتبرونه من حسن المعاشرة وتألفه طبائع النساء، وما يليق بكل زوجة بحسب حالها وبشرط ألا يستنكر ذلك شرعاً، لأن مراعاة عرف الناس وعاداتهم مقيدة بعدم مخالفة الشرع.

ومعاشرة الأزواج لزوجاتهم بالمعروف واجب عليهم، وبه قال المفسرون، وهذا الوجوب مستفاد من قوله تعالى "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"، فالأصل في الأمر الوجوب إلا إذا قام الدليل على صرفه على الوجوب، ولا دليل على ذلك بل إن الأدلة متضافرة على وجوب حسن المعاشرة وتأكيدها هذا الوجوب، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء

¹ سورة النساء، الآية: 19..

خيرا"¹، وجاء في شرحه: "الاستيلاء قبول الوصية، والمعنى أوصيكم بمن خيرا فاقبلوا وصيتي فيهن"².

ثانيا: العلم بالحقوق والواجبات.

إن لكل من الزوجين على الآخر حقوقا توازي ما عليه من الواجبات، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ"³، ولو أن كلا منهما عرف واجبه وأداه لوصل إليه حقه أيسر ما يكون، ولأسهم كل منهما في الحياة الزوجية بطاقة هائلة من المودة والسكينة والرحمة تجعل العيش بينهما هائلا سعيدا.

والجهل بالحق والواجب أو تجاهلهما أمر له أثره الخطير في العلاقة الزوجية، والحقوق والواجبات لا تقاس هنا بالكم، فللجانب النفسي فيها أهميته القصوى.

ثالثا: الشورى الأسرية.

إن الشورى في الإسلام ليست ممارسة سياسية معزولة وإنما هي نظام حياة، فهي في الشعائر والأسرة والجوار والمجتمع والمعاملات الاقتصادية والعلم والسياسة⁴.

وتفعيل الشورى داخل إطار الأسرة له فوائد كثيرة، أهمها إيجاد جو الحوار بين أفراد الأسرة الواحدة، وهذا الأمر وحده كفيل بأن يجنب الأسرة العديد من المشاكل والأزمات التي تتخبط فيها معظم الأسر اليوم، فعندما نقبل الاستماع إلى الآخر، ونقبل نصيحته والرجوع عن

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

² المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، ج7، ص: 225 - 226.

³ سورة البقرة، الآية: 226.

⁴ سعيد بن سعيد العلوي، الإسلام والديمقراطية، ص: 91.

الخطأ وتصحيحه فإن ثمار ذلك حتما ستكون حياة متوازنة ومستقرة تضمن لجميع أفرادها حرية وكرامة ضرورتين لاستمرار هذه الخلية الاجتماعية الحساسة.

رابعاً: مشاركة الآخر في تحديات الحياة.

إن مشاركة كل واحد من الزوجين للآخر فيما يواجهه من صعوبات كفيل بضمان نوع من الانسجام والتقارب الأساسيين للحياة الزوجية؛ فإذا عاش كل منهما ظروف الآخر وتفاعل مع حالته النفسية أمكن له أن يتعامل معه على أساس من التقدير لتلك الظروف، والتباين والفرق الشخصي، فعندما يشعر أحد الزوجين أن الآخر يقاسمه الأجواء الفكرية والعاطفية التي يعيشها، وإن كانت تختلف عن تلك الأجواء الفكرية والعاطفية التي كونت شخصيته فإن ذلك يجسد التفاهم على أحسن صورة، ويبعدهما عن موجة الفردية التي تقتل القيم وتبعدهما عن تلك الأنانيات الذاتية التي تحكم العلاقة الزوجية¹.

خامساً: الرحمة والعفو

إن الرحمة أساس من الأسس المتينة لأي أسرة ناجحة، ومن مظاهر الرحمة بين الأزواج عدم إثقال كاهل الشريك بالمشاكل. ويرى مجموعة من الأخصائيين في سيكولوجيا الأسرة أن من بين العوامل المساعدة على نجاح الحياة الزوجية عدم إثقال كاهل الشريك بمختلف المشاكل التي يعاني منها الآخر، وهي فكرة تختلف عن المعتقدات السابقة والتي كانت تنظر إلى الشريك على اعتبار أنه ينبغي أن يكون على علم بكل صغيرة وكبيرة تخص شريكه².

¹ عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيح البخاري ومسلم، دار القلم د.ط، د.ت، ج5، ص: 233.

² الطفل والعلاقات الأسرية، لأحمد أوزي، ص: 31.

قال الله تعالى : "وَمِنْ -إِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"¹، فالعفو والصفح من القيم التي ينبغي لكل طرف في العلاقة الزوجية وحتى خارجها أن يتحلى بها، لأن الإنسان مهما بلغت درجة حرصه واجتنابه الهفوات والأخطاء إلا أنه يبقى إنسانا تعتريه نقائص وأوقات ضعف أو غضب، أو سهو وما إلى ذلك من الهفوات التي لا يعقل أن يجعلها الزوج أو الزوجة ذنبا لا يغفره لصاحبه، فهكذا لا يمكن أن تستقيم الحياة ليس فقط بين الأزواج ولكن حتى بين الإخوان والأصدقاء، وهو ما صوره الشاعر بقوله:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ** صديقك لم تلق الذي تعاتبه

سادسا: المرأة شقيقة الرجل في الأحكام.

من المعاني التي اندرس عليها الدين، وتباعدت عنها أذهان المسلمين، فكانت سببا في صرف وانصراف العلماء عن مقاصد الشرع الحكيم؛ بما أدى إلى جمود آلة الاجتهاد والغفلة عن سنة التجديد التي شرعها حديث البعثة²، والبعد عن تدبر آيات الذكر الحكيم، وتتبع ألفاظه واستقصاء واقع الحال في دلالة أحكامه... مما أدى إلى تأخر أمر الفتوى وسريان التقليد بعيدا عن فهم مقاصد الأحكام، أمام وقائع تتغير بتغير حال الناس، وتلك الفتاوى الموروثة الجامدة، فتاوى وزنت بميزان الملوك والسلطين، فانحبس الفقه أمام بابهم... وأثقل كاهل الأمة وكبلت سواعدها... كان كاهل نساؤها أثقل عندما عرقلوهن عن ممارسة حافظيتهن كاملة... منعوهن

¹ سورة الروم، الآية: 20.

² إشارة إلى حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" أخرجه أبو داود (4291) في سننه كتاب "الملاحم": باب ما يذكر في قرن المائة.

بيوت الله... عندما اشتعلت نار الفتنة في قلوبهم... حاربوا فتوى المجتهد وسموا أمثاله بفتقيه الحيز والنفاس، فكلموا فاه... كان هذا هو الواقع السلبي الموروث عن الفقه المنحس...

فإذا كان الإسلام قد أسس لاتجاه إيجابي في التعامل مع قضايا المرأة تماماً كما هو الشأن بالنسبة للرجل وذلك ضمناً لمساواة شقي النفس الواحدة، فإن هذه الإيجابية والمساواة تعرضت لمحاولات تحجيم وإفراغ من مضمونها الجوهرية، فبعض الاتجاهات الضيقة حاولت تكريس تبعية ودونية المرأة معتمدة في ذلك تأويلاً فاسداً لبعض النصوص، وإفتراء بعضها خدمة لوجهة نظرها التي لا زالت عاجزة عن قبول قاعدة أساسية جاء بها الإسلام منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً وهي أن النساء شقائق الرجال في الأحكام.

ولا شك أن الحاجة اليوم ملحة لإعادة قراءة التراث الفقهي عامة والتعلق بالقضايا الراهنة على وجه الخصوص، وقضية المرأة واحدة منها، لكن هذه القراءة ينبغي أن تحترم قواعد مضبوطة، وأن لا تكون قراءة تستهدف إعادة إنتاج النموذج الغربي في التعامل مع المرأة دون احترام خصوصياتنا الدينية والثقافية والاجتماعية.

سابعا: أهمية الشورى في بناء الأسرة.

الأسرة تتطلب تنظيماً محكماً لنشاطها واستمرارها واستقرارها، لذلك وجب اتخاذ القرارات المتعلقة بتسييرها من قبل المسؤولين على وجودها وتكوينها، وهما الزوجان معاً، حيث لزم التشاور في كل أمور البيت والأطفال، وكل ما له علاقة بالأسرة، الشيء الذي يجعل علاقة الزوج والزوجة متماسكة ومثمرة سعيدة إذا بنيت على مبدأ التشاور في رعاية الأسرة وحفظ كيانها.

إن التشاور المتعلق بالأسرة يشمل شؤون البيت والأطفال، تسييراً ومشاركة، ولهذا لا بد للزوج والزوجة أن يتشاورا في كل ما يتعلق بالشؤون الداخلية للبيت، كتنأيث البيت، أو شراء بعض ما يحتاجه من ضروريات العيش، وكذلك في الأمور التي تخص أشغال البيت، فليس

هناك أي حرج من أن يساعد الزوج زوجته، خاصة إذا كانت تشتغل خارج البيت، لأن ذلك يساعدهما على استثمار وقتهما والتمتع به أكثر، كما يعين على حبها له واحترامه، فلقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطط ملابسه ويرقع نعله، وكان عليه الصلاة والسلام يساعد نساءه رضي الله عنهن في أشغال البيت. فعن الأسود بن يزيد قال: سألت أمنا عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ فقالت: "كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج"¹. وإذا كان خير البرية وسيد الخلق أجمعين يهتم برعاية شؤون بيته والخدمة فيه، وقضاء حوائجه بنفسه، حبا في نسائه رضي الله عنهن، فلماذا يتكبر الرجل اليوم عن فعل ذلك؟ بالرغم من أن قيامه بشيء مثل ذلك يبين مدى حبه لزوجته ويجعله ينشد الخيرية التي ندب إليها المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: "خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهلي"²

وبما أن الأسرة اليوم قد أصبحت في ظل التغيرات القائمة — تحت رعاية الزوجين معا — بعد أن كانت لدهور تحت قيادة الزوج وحده في زمن الانحباس الفقهي، فلا مجال للحديث اليوم عن رئيس ومرؤوس داخل الأسرة المستقرة.

من خلال هذه المباحث الثلاثة يتضح أن الإسلام أولى عناية فائقة بالأسرة، لحمايتها من التفكك، فهي العماد الأول للمجتمع المسلم، والمحضن التربوي الأول الذي يتخرج منه الفرد النافع للمجتمع ولنفسه ولوطنه، وحتى لا يحدث اختلال في هذا الاستقرار الأسري، حث الإسلام على استمرار رابطة الزوجية، وكره قطعها من غير مبرر، وشرع لذلك جملة تشريعات من أهمها:

حث كلا الزوجين على إحسان العلاقة بالآخر والصبر عليه، مادام ذلك ممكنا، ومادام سبيلا لاستمرار هذه العلاقة، وأثار في نفوس الأزواج الرغبة في دوام هذه

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله.

² أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: حسن معاشره النساء.

الرابطة، بفتحه نافذة المستقبل الواعد الزاهر، الذي قد يترتب على هذه العلاقة وقد وضع القرآن أهمية الزواج بالنسبة لمختلف الأطراف وأثره على الاستقرار لدى أطرافه، قال الله تعالى: "و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"¹ لكن رغم أهمية ودور الإسلام بمختلف مصادره القرآن والسنة، إلا أننا نجد أغلب المجتمعات العربية والإسلامية تتخبط في مشكلات تقع فيها اغلب الأسر تحول دون استقرار تلك المجتمعات، وتحول دون تحقيقها للتوافق الزوجي وخاصة تلك المتعلقة بسبل الحوار بين الأزواج وهذا ما قد يسبب الكثير من المشكلات تعود على الفرد والمجتمع بالسلب كانتشار ظاهرة العنف وتشرذم الأطفال... إلخ، و أخطرها ظاهرة الطلاق حيث أصبحت هذه الظاهرة في تزايد مستمر سنويا وهذا ما يدق ناقوس الخطر على استمرارية الاستقرار الاجتماعي، وبات في ظل هذا الوضع ضرورة معرفة الأسباب المؤدية إلى سوء التوافق الزوجي في مجتمعنا، ويعد الحوار بين الأزواج وطبيعة تسييره بين أفراد الأسرة حول مختلف المشكلات سواء كانت أساسية أو عابرة عاملا مهما في تحقيق التوافق الزوجي خاصة والأسري عامة، فثقافة الحوار الأسري أسلوب الحياة السائد في مجتمع الأسرة والمعضد للحوار، ويشتمل على قيمه الروحية والفكرية، وقيمها السلوكية والذوقية والخلقية وعاداتها، واتجاهاتها وما يترتب عليه من إنصات وتقبل واحترام للأطراف المتحاور.

وتتجلى أهمية الحوار في الأسرة في فوائد كثيرة وعديدة منها أنه يعد أساس للعلاقات الأسرية الحميمة البعيدة عن التفرق والتقاطع، كما يساعد على نشأة الأبناء نشأة سوية صالحة بعيدة عن الانحراف الخلقي والسلوكي و يخلق التفاعل بين الطفل وأبويه مما يساعدهما إلى دخول عالم الطفل الخاص، ومعرفة احتياجاته فيسهل التعامل معه.

¹ سورة الروم الآية: 20-21.

فالحوار يجعل من الأسرة بمثابة الشجرة الصالحة التي تثمر ثماراً صالحة طيبة، وهي السلوى لهذه الحياة، لكن للحوار ضوابطه النفسية والأخلاقية لا بد للمتحاورين الالتزام بها لتجنب تحويل الحوار إلى عملية هدامة بدلا من جعلها عملية بناء، و على هذا المعنى الأساس المتمثل في إعطاء أهمية كبيرة للأسرة، تكون النتيجة بناء مجتمع مسلم على أسس متينة تمكنه من الاستخلاف في الأرض والعود على الإنسانية عامة بالخير والصلاح، وهذا ما سيتم الإشارة إليه في الفصل الثاني من هذا الباب.

الفصل الثاني:

الحوار النبوي مع الأصحاب والصحابيات وأبنائهم.

المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأصحاب.

المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابيات.

المبحث الثالث: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبناء الصحابة.

المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأصحاب.

إن البحث في أحاديث السيرة النبوية مكني من إدراك أن أسلوب الحوار في الخطاب النبوي الشريف مع الآخر، كان منهجا عاما مع جميع الناس، وهذا ما نستكشفه من خلال حوارهم مع الصحابة رضي الله عنهم، وليبيان ذلك نسوق مجموعة من الأحاديث المشتملة على هذا الأسلوب.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال: أتدرون ما المفلس، قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقبض ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطره عليه ثم طرح في النار."¹

جاء الحوار في صيغة التساؤل بغرض إيصال مفهوم غير متبادر للسامع؛ مفهوم الإفلاس المعنوي، المتمثل في ضياع الحسنات من خلال ظلم الناس، وبين الرسول صلى الله عليه وسلم سبب الإفلاس بالتمثيل له، ثم ختم حوارهم هذا مع الصحابة بذكر عاقبة ونتيجة الظلم.

حوار يمكن أن نستكشف منه مجموعة من الفوائد:

- الخطاب النبوي في هذا الحوار غير موجه لشخص بعينه، وإنما الخطاب فيه جاء بصيغة الجمع، وفي ذلك دلالة تربوية، تهدف إلى تغيير السلوك وتوجيهه بالنصح غير المباشر.
- الحوار جاء بصيغة التساؤل يفيد إشراك المستمع في الوصول إلى المعنى أو الحق، ودلالة ذلك أن الحق قد يمتلكه المستمع.

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

- تقريب المعنى من خلال ضرب أمثلة، وهذا منهج قرآني يستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم في حواراته.

- الاهتمام بمصير الآخر، وفي ذلك الحرص النبوي على أمته من الهلاك.

- اشتغال الحوار على خطة استراتيجية تضمنت المعنى المراد إيصاله، وأسباب متصلة بالمعنى، وأخيرا النتيجة مع الهدف من الحوار؛ وفي الحوار المقترح تجلّى في اجتناب الظلم.

- الإيجاز في الحوار مع إيصال المعنى كاملا.

- الوضوح في الحوار تجلّى في بيان موضوع الحوار بشكل واضح لا يكتنفه الغموض.

- حوار شامل ومتنوع تضمن توجيه تعليمي، إرشاد تربوي أيما، تصويب أخلاقي، ثم اهتمام بصلاح الفرد والمجتمع.

وكما نعلم فإن أي مجتمع يتألف من أناس مختلفي المستويات المعرفية والعقلية، ومن المهم أن يتحاور أصحاب الرسائل والدعوات مع مختلف شرائح المجتمع، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث كان يجالس الكبير والصغير، المرأة والطفل والشيخ، ويتحاور مع كل هؤلاء. وتعد شريحة البسطاء من الصحابة رضوان الله عليهم من الناس من أهم الشرائح التي حاورها الرسول صلى الله عليه وسلم، نظرا لأنها تمثل الغالبية من الناس في أي مجتمع، خاصة المجتمع في الجزيرة العربية، وهو مجتمع بدوي قبلي. فقد أولى الرسول عنايته البالغة بهذه الفئة، وكان حوارهم مع أفرادها يتناول القضايا الأساسية في الإسلام، خاصة مسائل التوحيد، فهي الأساس في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي القضية الكبرى في مناقشات الرسول، منذ أولى أيام بعثته في مكة المكرمة ثم في هجرته إلى المدينة المنورة، حيث لم ينقطع حوار الدعوة، مثلما لم ينقطع حوار التوحيد، ونبد الشرك، وتطهير القلوب من الوثنية والشرك، ولن تنفصل تعاليم الإسلام الأساسية عن حوار العقيدة، لذا نجد الكثير من الأحاديث الشريفة ربطت ما بين الأيمان والعمل بأركان الإسلام، واجتناب نواهيه.

وقد دارت حوارات عديدة بين الرسول والبسطاء من الصحابة رضوان الله عليهم حول هذه القضية، ونرى في هذا الباب حوار الرسول معهم في أمكنة وأزمنة متعددة، وبكيفية مختلفة، يمكن أن نعرض بعضها منها:

عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ... كان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع. فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال " صدق ". قال فمن خلق السماء قال " الله ". قال فمن خلق الأرض قال " الله ". قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل . قال " الله ". قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك قال " نعم ". قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا . قال " صدق ". قال فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا قال " نعم ". قال وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال " صدق ". قال فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا قال " نعم ". قال وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال " صدق ". قال فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا قال " نعم ". قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال " صدق ". قال ثم ولي . قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لئن صدق ليدخلن الجنة " ¹

إننا أمام مشهد حوار جذاب، فهذا أحد الأعراب، قدم من قبيلة في البادية، وراح يحاور الرسول، والرسول يجيب، ونرى أن الحوار بدأ بالقضايا العقدية: خالق السماء والأرض والجبال، ثم فرائض الإسلام، وصولاً إلى قرار البدوي أن يلتزم بهذه الفرائض، مثلما التزم بالعقيدة، وقد صدّق الرسول على ما قاله البدوي، وأكد صلى الله عليه وسلم أنه سيفلح إن كان صادقا، والمقصود بالفلاح: الفوز برضوان الله والجنة، وهو تعبير عام، يشمل السعادة في الدنيا والآخرة.

في الحديث السابق أمور عدة:

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان.

إن الأعرابي جاء ليستوثق مما قاله الرجل الذي بعثه الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان الرسول يبعث إلى كل قبيلة أو قرية أو مدينة من يعلمها أمور دينها، فهذه أسئلة دالة على علمه المسبق بحقائق الإسلام وأركانه، وقد كان الحوار للاستيثاق مما نقله مندوب الرسول محمد إلى هذه قبيلة البدوي، لذا تكررت عبارة " زعم رسولك "

كما وردت عبارات البدوي بصيغة استفهامية، دون ذكر أداة استفهام، ولكن الخطاب بصيغة السؤال، وهي صيغة تعني الأداة "هل أو الهمزة"، وقد حذفت لأنها معلومة للسامع. الجديد في الجواب، أن الرسول لم يجب - على أغلب الأسئلة - بلفظة " نعم "، وإنما بالفعل الماضي " صدق "، وهو يشمل الإيجاب، والتصديق، والتأكيد، بينما جاءت إجابته بنعم على سؤالين فقط.

كما نلاحظ أن ما ذكره مبعوث رسول الله إلى القبيلة يتضمن المعلوم من الإسلام بالضرورة، وهي حقائق العقيدة، وأن الكون له خالق عظيم، واحد أحد، ثم ذكر أركان الإسلام: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج. وهذا دليل على أن الرسول كان يعرض العقيدة والعبادة في آن، ومن التزم بهذه الأركان، وصحّت عقيدته، فهو سينال الفلاح في الدنيا أي: "سعادة النفس و هناءها"، وفي الآخرة رضوان الله تعالى، وجناته.

وقد صدق الرسول على تعقيب الأعرابي، بأن لا يزيد ولا ينقص، في إشارة إلى الالتزام، وقد جاء لفظ الرسول " إن صدق "، إيضاحاً بأن مفهوم الصدق يشمل الالتزام بالنية والقول والفعل.

عن أبي سهيل، عن أبيه، أنه سمع طلحة بن عبيد الله، يقول جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد نثر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خمس صلوات في اليوم والليلة ". فقال هل على غيرهن قال " لا . إلا أن تطوع وصيام شهر "

رمضان ". فقال هل على غيره فقال " لا . إلا أن تطوع ". وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة فقال هل على غيرها قال " لا . إلا أن تطوع " قال فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفلح إن صدق"¹ .

يفرّق هذا الحديث بين الفرض والتطوع، والتطوع يعني أداء النافلة والسنن وأعمال الخير التي يمكن أن يقوم بها المسلم. ونلاحظ أن الرجل كان يسأل عن الإسلام، أي الأعمال التي تُظهر عبادات المسلم، وتميزه بالإسلام ديناً ومنهجاً وسلوكاً، وما نلاحظ التدرج في الفرائض: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام رمضان، والزكاة، ولم يذكر الرسول الشهادة، لأن الواضح من سياق الحديث أن الرجل مسلم، وربما يكون حديث عهد بالإسلام، أو بسيط الفهم ومحدود الإدراك، وهذا يستوجب خطاباً: بسيطاً، محدد الكلمات. كما لم يشر الرسول إلى الحج وهو ركن خامس في أركان الإسلام، وربما يكون الحديث دُكر في وقت لم يفرض الحج فيه على المسلمين بعد، أو لأن الحج ركن معروف شهير، فأراد الرسول التركيز على العبادات الأساسية التي تهم المسلم في اليوم والشهر والسنة، وتشمل حياة المسلم.

الجديد في هذا الحديث أن الرسول كان يكرر عبارة " إلا أن تطوع " في إشارة إلى أهمية التفرقة بين الفرض والنافلة، وربما يختلط الأمر على رجل حديث المستجد في الدين أو بسيط الفهم فيخلط ما بين النافلة والفرض فيما يشاهده من عبادات المسلمين.

كما ختم الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث بعبارة " أفلح إن صدق "، وهي تحمل نفس الدلالة التي ذكرت في الحديث الأول، وهي دلالة: إخلاص النية لله تعالى، والالتزام بالعبادة.

ونفس الأمر نجده في هذا الموقف: فيما يرويه الصحابي الجليل: سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه رضي الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، دخل

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرائهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم واللييلة؟ قال: اللهم نعم. قال أنشدك بالله، الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر.¹

الحديث السابق، يمثل زاوية أخرى لما تقدّم من أحاديث، مع تعميق محاور إيمانية أخرى. ولكن نلاحظ حجم الصراحة التي كان عليها الرجل القادم على ناقته في المسجد، وهي صراحة مبدئية، بدأت من الاستيثاق من شخص الرسول، بالسؤال عن " محمد " الإنسان، ثم التأكد من أنه ابن عبد المطلب، جد الرسول الذي حظي بمكانة كبيرة بين الناس لمواقفه العديدة الشهيرة؛ حفز زمزم، ومواجهة حملة أبرهة الأشرم وغيرها. ومن ثم بدأ بوضع قاعدة لحواره: " إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك "، أي سيسأله بصراحة ويرجو ألا يغضب الرسول أو يتضايق من تساؤلاته. وقد أفسح الرسول المجال أمامه، فتساءل مركزا على: بعث النبي إلى جميع الناس وهو مفهوم عالمية الدعوة الإسلامية، دون جنس أو عرق أو وطن أو زمان. وعن الصلوات المفروضة، وعن الصوم، والصدقة المفروضة (الزكاة). ثم يختم مقولته أنه مؤمن بما جاء به الرسول، وسيخبر قومه، موضحا أصل نسبه ونسب قبيلته.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم.

الموقف دال على اتساع صدر الرسول، وأنه يهتم في ذلك بالجميع، مهما تكررت الأسئلة، وتعدد السائلون، ونجد أن جواب الرسول بصيغة تأكيدية "اللهم نعم" وهي صيغة بها لفظ الدعاء "اللهم" ثم الإيجاب "نعم"، فواضح أن الرجل موقن بالله تعالى، وإنما أراد التوثيق. وسيتولى إبلاغ قومه.

وعن أبي أيوب، أن أعرابيا، عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سفر . فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار . قال فكف النبي صلى الله عليه وسلم ثم نظر في أصحابه ثم قال " لقد وفق - أو لقد هدي - قال كيف قلت " . قال فأعاد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة"¹ .

هنا نجد مشهدا حواريا، حدث بشكل مفاجئ، ضمن الحوار الموصول بين الرسول ومحاوريه. فالرسول على راحلته سائر، ويوقفه رجل، ويطلب منه أن يخبره عما يقربه من الجنة ويبعده عن النار. إنه سؤال بسيط، ولكنه الأساس في الدعوة الإسلامية كلها، إنه يسأل عن طريق الخير والجنة. كان الموقف عفويا، ولكن الرسول لم يطلب من الرجل أن ينتظر حتى يترجل من فوق الناقة، أو يؤجل الجواب إلى حين، وإنما أجابه فور الاستفسار، معلقا لمن حوله " لقد وفق، لقد هدي " ذلك أن استفسار هذا الرجل البسيط يعبر عن جوهر الدين، وروح العبادة؛ ألا وهو سبل الخير والجنة.

واضح من سؤال الرجل أنه مسلم، بسيط، معلوماته في الدين قليلة، وهذا ما جعل الرسول يوجز القول معداً سبل النجاة له: توحيد الله، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صلة الرحم. الجديد عما سبق أن التأكيد على صلة الرحم، وتعزيز العلاقة مع الأقارب والأصهار، فلا قطيعة معهم، وإنما حب ومودة وإيثار.

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان.

لقد أوقف الرجل الناقة وهو يشد خطامها، ثم طلب الرسول من الرجل أن يدع الناقة بعدما أجابه، والرجل يخاطب الرسول " يا محمد"، وهذا يتكرر في مواضع عدة في هذا الحديث وفي غيره، دون أن ألقاب مسبقه، وهو رسول الله وزعيم المسلمين وقائدهم، والرسول يقبل هذا الخطاب، من أي فرد، وفي أية حال، راكبا أو قاعدا أو ماشيا، إنه مدرسة متحركة.

عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق؛ أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء"¹.

هذا الحديث لم يذكر في إطار حوار مباشر، أي لم يأت جوابا عن سؤال أو في نقاش مع رجل، ولكنه جاء إخبار مباشر من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مستمعيه، وهذا يستلزم الطبيعة الإخبارية، ولكنه في باطنه أساس مهم في الحوار مع أهل الكتاب، وقد بدأ الحديث بلفظة " من قال... "، وهذا يعني توجيه سام إلى القول، والقول هنا لا يشمل التردد باللسان، وإنما أيمان القلب بالمنطوق، وقد شمل الحديث أساس العقيدة الإسلامية: الأيمان بالله وحده وبنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم نبوة عيسى، وبشريته، وأنه ابن للسيدة مريم العذراء، وضعته بكلمة من الله وروح منه، وهذا جوهر المنظور الإسلامي إلى نبوة عيسى عليه السلام، ثم أن الجنة حق والنار حق.

عزز الحديث السابق - زيادة على التوحيد - قاعدتين: الأيمان بنبوة عيسى، وهذا جزء من يقين المسلم بالكتب والديانات السماوية والنبوات السابقة عامة، وديانة عيسى عليه السلام خاصة... ثم ركز الحديث على الأيمان المطلق (الحق) بالجنة والنار، وهذا أساس ركين في عقيدة المسلم، فالجنة / أمل المؤمن، والنار / خوف المؤمن، كلتاها من الغيبات، لم نرهما، ولكن اليقين

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان.

بهما أساس في العقيدة، فهما باب الأمل، وباب الخوف، ومن أيقن بهما، وتمثلهما في قلبه، وسلوكه، كانتا واقعين أمامه، يعمل طمعا في لذائذ الجنة الأبدية، وخوفا من سمردية العذاب في النار.

وعن عبد الله، قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله يؤاخذ الرجل بما عمل في الجاهلية قال من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما كان عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر¹.

كان سؤال الرجل بسيطاً: هل يحاسب المسلم إذا أسلم على ما قدّم في جاهليته من آثام ومعاص. وقد أجاب الرسول أن هذا يتوقف على ما أعطاه العبد المسلم من أعمال صالحة أو طالحة، فإذا كان صالحاً، غفر الله حقبة الجاهلية، وقبل ما عمل في الإسلام، لأن الإسلام يجب ما قبله، أما إذا كان طالحاً في إسلامه، فهو مؤاخذ على أعمال الحقتين: جاهليته وإسلامه.

وفي نفس هذا السياق، يكون الحديث الآتي:

عن مسرة بن معبد، من بني الحارث بن أبي الحرام من لحم عن الوضين، أن رجلاً، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد وكانت عندي ابنة لي فلما أجابت وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها فدعوتها يوماً فاتبعني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديت بها في البئر وكان آخر عهدي بها أن تقول يا أبتاه يا أبتاه فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وكف دمع عينيه فقال له رجل من جلساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أحزنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له

¹ سنن الدارمي، باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من الجهل والضلالة.

كف فإنه يسأل عما أهمه ثم قال له أعد علي حديثك فأعاده فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا فاستأنف عملك.¹

هذه لوحة إنسانية عالية الشجن، رجل من المسلمين، يصف حاله في الجاهلية، حين كان يئدون البنات وهن أحياء، وكما ذُكر في القرآن الكريم "وَإِذَا أُلْمُوا بِدَثِّ سُبُلَتِ  بِأَيِّ ذَنْبٍ فُتِلَتْ"²، لقد كان لهذا الرجل المسلم ابنة صغيرة، كانت متعلقة بأبيها تعلقا كبيرا، إذا دعاها أجابته وهي سارة، وكبرت البنت، والأب يحتفي بها دائما، ولكن غلبت عليه الجاهلية، وتقاليدها، حين كانوا يئدون البنات، خوفا من العار إذا أسرت في الحرب، وصارت جارية تباع وتسترق وتستباح للمنتصر. فيناديها الرجل، وتذهب معه بالقرب من أحد الآبار، وهناك يلقيها في البئر، وتسقط البنت وهي تصرخ " يا أبتاه، يا أبتاه ". لقد تحجر فؤاده، وهو يلقي فلذة كبده، خاضعا لعادات فاسدة.

أبكت القصة الرسول بكاء شديدا، حتى اخضلت لحيته، ولام الصحابة الرجل على إحزانه الرسول، ولكن الرسول يطلب من أن يعيد القصة، لأن الرجل يسأل عن شيء أهمه "شغل باله وأحزنه"، فيريد أن يفضي بمكنون خاطره إلى الرسول، يعيد الرجل القصة ويتجدد بكاء النبي الشديد، ثم يخبر الرجل أن الله غفر لأهل الإسلام ما عملوا في جاهليتهم، فليستأنف عمله الصالح في إسلامه، مطمئنا إلى اتساع مغفرة الله تعالى.

جاء ذكر الرجل لقصته من باب السؤال غير المباشر، خوفا أن تكون أفعاله في الجاهلية محسوبة عليه، وأراد أن يخرج مكنون همه إلى الرسول، لعله يجد مخرجا، وقد بكى الرسول مدينا الفعلة، ونرى كيف كان أهل الجاهلية منزوعي الرحمة، غلاظ النفس.

¹ سنن الدارمي، باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من الجهل والضلالة.

² سورة التكوين، الآية: 8، 9.

وهكذا، كانت علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم مع البسطاء من الصحابة رضوان الله عليهم وحديثي الإسلام، علاقة حية، متجددة، تعتمد على اكتساب القلوب، وترسيخ الأيمان، والفوز بقلوب الناس مهما كان مستواهم العقلي، والثقافي، وأيا كانت مناباتهم وأصولهم، إنها القلوب التي كان الرسول يتطلع إليها دائماً.

وعن مسرة بن معبد، من بني الحارث بن أبي الحرام من لحم عن الوضين، أن رجلاً، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد وكانت عندي ابنة لي فلما أجابت وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها فدعوتها يوماً فاتبعني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديت بها في البئر وكان آخر عهدي بها أن تقول يا أبتاه يا أبتاه فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وكف دمع عينيه فقال له رجل من جلساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أحزنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كف فإنه يسأل عما أهمه ثم قال له أعد علي حديثك فأعاده فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا فاستأنف عملك¹

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة، فلما قفلنا كنا قريباً من المدينة، تعجلت على بعير لي قطوف، فلحقني راكب من خلفي فنخس بعيري بعنزة كانت معه، فسار بعيري كأحسن ما أنت راء من الإبل، فالتفت فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بعرس. قال: "أتزوجت؟" قلت: نعم. قال: "أبكر أم ثيباً؟" قال: قلت: بل ثيباً. قال: "فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك". قال: فلما قدمنا ذهبنا لندخل، فقال: "أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشاء - لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة"².

¹ سنن الدارمي، باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من الجهل والضلالة.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب: فسنيسر للعسرى.

وقد جاءت زيادة في رواية أخرى لمسلم عن جابر: قلت: يا رسول الله، إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن. قال: "فذاك إذا؛ إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يُعَلِّم الناس الصواب بالحوار؛ يُزِيل عنهم به ما يعترضهم من الشبهات؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به. قال: "وقد وجدتموه؟". قالوا: نعم. قال: "ذاك صريح الإيمان".¹

ومن حواراته صلى الله عليه وسلم المشهورة حواراه مع الأنصار رضي الله عنهم، جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن تقسيم غنائم حنين حيث قال: لما أعطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أعطى من تلك العطايا في قريش ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة... فأمر سعد بن عبادة فجمعهم، فأتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله؟ وعالة فأعطاكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟"

قالوا: بلى والله ورسوله آمن وأفضل.

ثم قال: ألا تحببونني يا معشر الأنصار؟" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ الله ورسوله المن والفضل.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أما والله لو شئتم لقلتكم، فلصدقتكم ولصدقتكم: أتيتنا فكذباً فصدقناك، ومخدولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى

¹ - رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه.

إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم! فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار ولو سلك الناس شعباً، وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار" قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: "رضينا برسول الله قسماً وخطاً"¹

عن سيدنا أنس رضي الله عنه: "أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، يهدي النبي صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية، فيجهّزه النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله: إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضروه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، ولا يصره الرجل، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم حين عرفه، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكن -عند الله- لست بكاسد. أو قال: لكن -عند الله- أنت غال"².

هنا شكل آخر من الحوار المبني على الصحبة بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من أهل البادية البسطاء أهل الفطرة السليمة نستفيد منه ما يلي :

- الهدية وأهميتها في غرس المحبة وتقوية الصحبة بينهما. " يهدي النبي صلى الله عليه وسلم الهدية."

- خدمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنفسه لصاحبه. "فيجهّزه النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج"

- الكلمة الطيبة أن زاهر منه وهو منه فبيته هو بيته والعكس صحيح. "أن ظاهراً بديننا ونحن حاضروه."

¹ ابن هشام، السيرة النبوية: ج 2، ص: 499.

² الشمائل المحمدية، للإمام الترمذي، رقم: 229.

- إظهار المحبة لمن نحب وبذلك شهد سيدنا أنس بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ظاهرا لما رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاهه. " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه."

- المزاح مع سيدنا زاهر رضي الله عنه "فاتن من خلفه ولا يبصر الرجل" ودور هذا المزاح واللعب في تحقيق الحوار الوجداني وهو أعلى درجة في الحوار مع الآخرين .

- السؤال "أرسلني من هذا؟".

- اغتنام اللحظة وهي لما علم سيدنا زاهر انه رسول الله "فالتفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم" فبأي ملتصقا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما لذلك من بركة " فجعل لا يتلو ما الصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم حين عرفه."

- سؤاله صلى الله عليه وسلم لصاحبه وهو في السوق أمام الناس في موقف يثير انتباه الحاضرين، ليعلمهم بمكانة سيدنا زاهر رضي الله عنه، وهذا ليس فقط مع الصحابي الجليل بل هو حوار سمعي وبصري مع الناس ومع الصحابي زاهر، إضافة إلى ذلك هو حوار حسي رائع "يقول من يشتري العبد" صغره ليكبره، فيرد عليه صاحبه فيزيد نفسه تصغيرا ليعلم مكانته عند الله سبحانه، "إذا والله تجدني كاسدا"، ثم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة سيدنا زاهر عند الله والناس تسمع "لكن عند الله انت غال."

من هذا الحديث الجميل تظهر الشخصية الحوارية للرسول صلى الله عليه وسلم في كمال وإتقان للحوار وأسلوبه ومقدماته ومالاته فهو رسول لله والرسول كامل في كل الصفات. وأضيف مشهدا آخر للحوار النبوي مع أصحابه بدايته مع الفضل بن عباس عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه، فقال: "خذ بيدي يا فضل! فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر فجلس عليه ثم قال: "صِخْ في الناس!" فصحت في الناس، فاجتمع إليه ناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس! ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهره فهذا ظهري

فليستقد منه. ألا ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه. ألا لا يقولن رجل إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني. ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقا إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس. ألا وإني لا أرى ذلك مغنيا عني حتى أقوم فيكم مرارا. ثم نزل فصلى الظهر ثم عاد إلى المنبر فعاد لمقاتله في الشحناء وغيرها، ثم قال: "أيها الناس! من كان عنده شيء فليرده ولا يقول فضوح الدنيا، وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة". فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم. قال: "أما إنا لا نكذب قائلًا ولا نستحلفه، فبم صارت لك عندي؟" قال: تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتني أن أدفعها إليه؟ فقال: "ادفعها إليه يا فضل". ثم قام إليه رجل آخر فقال: عندي ثلاثة دراهم كنت غللتها في سبيل الله. قال: "ولم غللتها؟" قال: كنت إليها محتاجا. قال: "خذها يا فضل!". ثم قال: "يا أيها الناس! من خشي من نفسه شيئا فليقم أدع له". فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله! إني لكذاب، وإني لمنافق، وإني لنؤوم. قال: "اللهم ارزقه صدقا وإيمانا، وأذهب عنه النوم إذا أراد". ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله! إني لكذاب، وإني لمنافق، وما شيء من الأشياء إلا وقد أتيته. فقال له عمر: يا هذا! فضحت نفسك. فقال: "مه يا ابن الخطاب! فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة". ثم قال: "اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصير أمره إلى خير". فكلّمهم عمر بكلمة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عمر معي وأنا معه، والحق بعدي مع عمر حيث كان"¹.

ويظهر في هذا الحديث مشاركته صلى الله عليه وسلم لصغار الصحابة في أمره صلى الله عليه وسلم، فبدأ الحوار معه ببحث النبي صلى الله عليه وسلم عنه فذهب إليه وهذه إشارة جميلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم انتظار المخاور بل يجب الذهاب إليه. ثم يطلب منه أن يأخذ بيده وهذه أيضا لطيفة جميلة جدا مقدمة، والأجل منهما حاله صلى الله عليه وسلم الصحي فقد ذهب إليه وهو موعوك وقد عصب رأسه. ثم ينتقل إلى حوار آخر وهو مع

¹ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، رقم: 718.

الصحابه رضوان الله عليهم فبعد أن صاح سيدنا الفضل بن عباس في الناس واجتمعوا فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بمخاطبتهم "يا أيها الناس" وفيه من الرفق الشيء الكثير ثم يبدأ بنفسه يحاسبها "ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهره فهذا ظهري فليستقد منه. ألا ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ألا يقولن رجل إني أخشى الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني" هكذا يعرض صلى الله عليه وسلم نفسه عليهم للاقتصاص منه ورد حقوق من له حق عليه. ثم يشجع ويحفزهم على الكلام والحوار فيقول لهم: "ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقا إن كان له أو حللني فلقيت الله وأنا طيب". وهذا تهييء وتعليم للصحابه رضوان الله عليهم إلى التوبة قبل لقاء الله وهم في الدنيا وإصلاح ذات بينهم وبين الله والناس.

ف نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يكرر خطابه ومقالته لهم بعد الصلاة لأن الاعتراف بالذنب أصعب شيء على النفس خاصة أمام الناس وهو مقدمة للتوبة. ثم قال لهم: "أيها الناس وإن فضح الدنيا أيسر من فضح الآخرة". فبدأ الصحابة يتجاوبون ويطالبون بحقوقهم "فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إن لي عندك ثلاث دراهم." ويستفسر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم للتحقق وليس تكديبا له فيجيب قائلاً: "تذكر يوم مر بك مسكين فامرني أن أدفع إليه" وهذا حوار صادق بين الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابه رضوان الله عليهم. ثم يبدؤون بالاعتراف إلى الطبيب ليعالجهم بعد أن مهد إليهم الطريق فقال لهم: "من خشي من نفسه شيئا فليقل ادع له" فيقول أحدهم "يا رسول الله! وإني لمنافق وإني لنؤوم" فيجيب الرسول صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقه صدقا وإيمانا واذهب عنه النوم إذا أراد. "

وهذا الحوار من أجمل حواراته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ الجميل فيه كيف مهد إليه صلى الله عليه وسلم وكيف طوره ليصل إلى غايته من خروجه من بيته. هذه أمثلة من حواراته - صلى الله عليه وسلم - والسنة زاخرة بالحوار النبوي.

مما تقدم يتبين أهمية الحوار في تواصل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، وأن له منزلة رفيعة لأنه الوسيلة المثلى لإبلاغ رسالة الوحي، والحوار يستمد أهميته من عظمة الرسالة التي أنزلها الله لتكون آخر الرسالات السماوية، وقد تبين أيضاً أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسى قواعد الحوار وآدابه وشروطه، حتى وأن هذه القواعد والآداب والشروط قد أبانت - وبشكل جلي - أن للحوار آثاراً تربوية عظيمة، وقد التزم الصحابة بمنهج الحوار في جميع شؤون حياتهم مرشحين بذلك منهاجاً راسخاً يكون هادياً لمن جاء بعدهم، بحيث غدا الحوار وسيلة ناجعة من وسائل الأمة في الحفاظ على قيمها الثقافية من جهة، ووسيلة لاستيعاب الثقافات الجديدة من جهة أخرى، والأمة مدعوة اليوم لتفصيل هذا المنهاج لتحسين الأبناء، بعد أن أصبح العالم وفي ظل ثورة المعلومات قرية صغيرة، ومن أجل ذلك ينبغي أن تنبهي المؤسسات التعليمية والإعلامية والدينية لتفعيل الحوار في المدارس والجامعات ومنابر الخطاب الديني، بحيث يصبح الحوار ثقافة متداولة في الغرف الصفية، والمنتديات الثقافية والعلمية والبرامج التلفزيونية.

المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابييات.

المطلب الأول: في طلب العلم والاستفسار عنه:

أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: "ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كان لها حجابا من النار" فقالت امرأة: "واثنتين؟" فقال: "واثنتين"¹.

وأخرج البخاري أيضا عن ابن أبي مليكة أنه قال: "كانت عائشة رضي الله عنها لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه"². ونقل عن الغزالي: "فلم تنزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السَّلام، والاستفتاء، والسؤال، والمشاورة، وغير ذلك". وسؤال المرأة لأهل العلم عن أمر دينها مما لا تستغني عنه، وهو من الأسباب التي يباح من أجلها أن تخاطب الأجنبية (العالم) وتسأله عما بدا لها، قال تعالى: " فَدُ سَمِعَ اللَّهُ

فَوَلِّ أَلْتِ تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ

تَحَاوَرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ³، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "تبارك

الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك". قالت: "فما

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: هل يجعل للنساء يوم علي حدة في العلم.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه.

³ سورة المجادلة، الآية: 1.

برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية " فَذْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا-،
 وزوجها أوس بن الصامت رضي الله عنهم أجمعين .ومعنى قوله تعالى: "تجادلك" تخصمك
 وتحاورك وتراجعك في زوجها"¹ فقد كانت المسارعة إلى استفتاء النبي صلى الله عليه وسلم عمل
 الصحابيات إذا نزل بهن أمرٌ يجهلنه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: طلقت خالتي
 فأرادت أن تجذّ نخلها -تجني ثماره-، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم
 فقال: "بلى فجذّي نخلك"²؛ كتاب الطلاق: وكنّ يستفتين النبي صلى الله عليه وسلم في أمورهن
 الخاصة التي يُسْتَحْي منها :جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "يا رسول
 الله! إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟" قال النبي صلى الله
 عليه وسلم: "إذا رأت الماء". فغطّت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت: "يا رسول الله وتحتلم
 المرأة؟" قال: "نعم، تربت يمينك! فبِمَ يُشَبِّهها ولدها؟"³ .

وفي رواية لمسلم قالت أم سلمة رضي الله عنها: قلت: فضحتِ النساء⁴ .!"وقول أم
 سليم رضي الله عنها: "إنّ الله لا يستحيي من الحق" تقديم وتوطئة للسؤال الذي يُستَحْي منه، بل
 يحسن أن يُقدّم به لمثل هذا السؤال، بدلاً من قول بعض الناس: "لا حياء في الدّين"، ثم إن هذا
 القول "إن الله لا يستحيي من الحق" أي أن الله عز وجل لا يأمر بالحياء في مثل هذا الموضع،
 فقد يؤدي إلى الامتناع من السؤال والتوقف عن معرفة الحكم، وقد يترتب على ذلك أن تظل
 المرأة تقيم عبادتها بشكل خاطئ، فتأثم بذلك.

وعن عائشة رضي الله عنها: "أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من
 الحيض فأمرها كيف تغتسل قال: "خذي فرصة من مسك فتطهري بها". قالت: "كيف

¹ تفسير ابن كثير؛ ج8، ص: 34

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها.

أُطهر؟" قال: "تطهري بها!" قالت: "كيف؟" قال: "سبحان الله تطهري". فاجتذتها إلي فقلت تتبعي بها أثر الدم"¹. ولذلك استحقت الصحابييات المدح نظرا لحرصهن على الخير، وعلى تعلم أمر دينهن مما تصلح به عبادتهن، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن الدين ويتفقهن فيه"².

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - أنه قال: "يا معشر النساء، تصدّقن، وأكثرن من الاستغفار، فإنّي رأيتكن أكثر أهل النار"، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: "تكثرن اللعن، وتكفرن العشير"³.

عن علي بن محمد ومحمد بن طريف قالوا: حدثنا أبو معاوية، حدثني محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: رفعت امرأة صبيّا لها إلى النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - في حجته، فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: "نعم، ولك أجر"⁴.

وعن أسماء بنت أبي بكر أنّها قالت: "سألت امرأة رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - فقالت: يا رسول الله، أرايت إحدانا إذا أصاب ثوبها الدم من الحيضة كيف تصنع؟ قال: "إذا أصاب إحداكن الدم من الحيض، فلتقرصه، ثم لتنضحه بالماء، ثم لتصل"⁵.

وعن عائشة قالت: "جاءت هند إلى النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - فقالت: يا رسول الله، إنّ أبا سفيان رجلاً شحيح، لا يُعطيني ما يكفيني وولدي إلّا ما أخذت من ماله وهو لا يعلم، فقال: "خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"⁶.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض.

⁴ صحيح أبي داود، رقم: 1525.

⁵ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب غسل دم الحيض.

⁶ رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب.

وعن ابن عباس قال: "كان زوج برة عبدا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها ويكي ودموعه تسيل على خده، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - للعباس: "يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث برة، ومن بغض برة مغيثا؟"، فقال لها النبي - صلى الله عليه وسلم -: "لو راجعته، فإنه أبو ولدك"، قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: "إنما أشفع"، قالت: لا حاجة لي فيه"¹

المطلب الثاني: في الشكوى.

عن أياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: "قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لا تضربوا إماء الله"، فجاء عمر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ذرن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم"².

عن زينب أنها كانت تفلي رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنده امرأة عثمان بن عفان، ونساء من المهاجرات، وهن يشتكين منازلهن أنها تضيق عليهن، ويخرجن منها، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تورث دور المهاجرين النساء، فمات عبد الله بن مسعود، فورثته امرأته دارا بالمدينة؛

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

² "أي: خيركم الذين لا يضربون نساءهم، ذرن؛ أي: اجترأن، ونشزن، وغلبن".

المطلب الثالث: في الحياة العامة:

دلت الأحاديث المتكاثرة أن النساء كن مع الرجال جنباً إلى جنب في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يستدعي بالضرورة حوارات معه عليه الصلاة والسلام تناسب سياق الحديث، ونحن نورد فيما يلي بعضها:

عن أسماء بنت يزيد قالت: "مر علينا النبي صل الله عليه وسلم في نسوة فسلم علينا"¹.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: شهدت صلاة الفطر مع نبي الله... قال: فنزل نبي الله كأنني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء فقال: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك...." الآية، ثم قال حين فرغ منها: "آتن على ذلك؟"، فقالت امرأة واحدة منهن، لم يجبه غيرها: نعم.²

كان النساء يأتين رسول الله كلما عنَّ لهن سؤال، أو بدت لهن حاجة دون اللجوء إلى زوج أو محرم ليقوم هو بسؤال رسول الله، فقد لا يتيسر هذا للرجل وقد لا يستجيب بسهولة وقد يرفض وقد يبطئ وقد لا يحسن فهم السؤال والجواب ونقلهما، إلى غير ذلك من الاحتمالات. فالأيسر إذن أن تذهب صاحبة الحاجة لتحقيق حاجتها من أقرب طريق، ولو اقتضي الأمر لقاء الرجال أي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم وهذه بعض النماذج:

عن بريدة رضى الله عنه قال: بينا أنا جالس عند رسول الله إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أُمي بجمارية وإنها ماتت. قال: وجب أجرك وردها عليك الميراث.³

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى رسول الله فقالت: إن أُمي نذرت أن تحج فلم تحج حتي ماتت أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها)⁴

¹ رواه الإمام أحمد في المسند، رقم: 27561.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء مرة مرة.

⁴ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب النذور والحج عن الميت.

وهناك قصة فيها بعض طرافة وغرابة، ذلك أن رجلاً من الأنصار بعث امرأته لتسأل رسول الله عن أمر نحسب أنه هو أولى بالسؤال عنه منها، وإذ لم يكتب الرجل بجواب الرسول الكريم بعثها لتسأل للمرة الثانية وكل ذلك حدث دون حرج لا من الرجل ولا من المرأة. ثم إن رسول الله لم ينكر كيف تسأل المرأة وتعيد السؤال وزوجها مقيم غير مسافر. وهذا نص الحديث :

عن عطاء أن رجلاً من الأنصار قبّل امرأته على عهد رسول الله وهو صائم فأمر امرأته فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن رسول الله يفعل ذلك. فأخبرته امرأته فقال: إن النبي يرخّص له في أشياء، فارجمي إليه فقولي له. فرجعت إلى النبي فقالت: قال إن النبي يرخّص له في أشياء فقال: أنا أتقاكم لله وأعلمكم بحدود الله. عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها، فرآها أبو طلحة زوجها فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر فقال لها رسول الله ما هَذَا الْخَنْجَرُ؟ قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد المشركين بقرت به بطنه فجعل رسول الله يضحك.¹

عن أم سنان الأسلمية قالت: لما أراد رسول الله الخروج جئته فقلت: يا رسول الله أخرج معك في وجهك هذا، أحرز السقاء وأداوى المرضى والجريح إن كانت جراح - ولا يكون - وأنظر الرجل. فقال رسول الله اخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم فإن شئت فمع قومك وإن شئت فمعنا. قلت : معك قال فكوني مع أم سلمة زوجتي. قالت فكنت معها.²

عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟ فقالت : بل مسلم، فقال : لا يغرس مسلم غرساً ولا زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة.³

¹ رواه الإمام أحمد، رقم: 23682

² ابن سعد، الطبقات الكبرى: م 8، ص: 292.

³ رواه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه، باب: تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال : اتقي الله واصبري، قالت إليك عني فإنك لم تصب بمصيبي ولم تعرفه فقبل لها : إنه النبي، فأنت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.¹

عن جابر بن عبد الله قال: طُلقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها فزجرها رجل أن تخرج فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بلى فجدى نخلك فإنه عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفاً.² تجد نخلها أي تجمع ثمار نخلها.

وعن أبي هريرة قال : أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بصبي لها فقالت : يا نبي الله ادع لي الله له "وفي رواية إنه يشتكى وإني أخاف عليه " فلقد دفنت ثلاثة. قال : دفنت ثلاثة؟ قالت : نعم. قال : لقد احتَظَرْتُ بحظار شديد من النار.³

وعن عروة بن الزبير قال سمعت عائشة، رضى الله تعالى عنها، تقول: أهدت أم سنبلة لرسول الله لبنا فدخلت على به فلم تجده فقلت لها إن رسول الله نهانا أن نأكل طعام الأعراب فدخل رسول الله وأبو بكر فقال يا أم سنبلة ما هذا معك فقالت يا رسول الله لبن أهديته لك قال اسكبي يا أم سنبلة فناول أبا بكر ثم قال اسكبي يا أم سنبلة فتناول رسول الله فشرب قالت فقلت يا بردها على الكبد قالت عائشة يا رسول الله حدثتنا إنك نهيت عن طعام الأعراب فقال يا عائشة إنهم ليسوا بأعراب هم أهل باديتنا ونحن أهل حاضرتهم، وإذا دعوا أجابوا، فليسوا بأعراب.⁴

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

³ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب، نزول عيسى بن مريم عليه السلام حاكما بشرية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

⁴ المستدرک علی الصحيحین، رقم: 7168.

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله دخل على أم السائب فقال : مالك يا أم السائب
تتفرفين¹ قالت : الحمى لا بارك الله فيها، فقال : لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم
كما يذهب الكير خبث الحديد.²

وعن عائشة قالت : دخل رسول الله على ضباعة بنت الزبير فقال لها : لعلك أردت
الحج ؟ قالت والله لا أجديني إلا وجعه، فقال لها : حجي واشترطي قولي : اللهم محلي حيث
حبستني، وكانت تحت المقداد بن الأسود.³

وعن يزيد بن الأصم قال :.. فقال بن عباس... إن رسول الله بينما هو عند ميمونة
وعنده الفضل بن العباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم فلما أراد
النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكل قالت له ميمونة : إنه لحم ضب فكف يده وقال : هذا لحم
لم آكله قط وقال لهم : كلوا، فأكل منه الفضل وخالد بن الوليد والمرأة وقالت ميمونة : لا آكل
من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله.⁴

وعن أم هانئ ابنة أبي طالب : قالت : لما كان يوم الفتح جاءت فاطمة فجلست على
يسار رسول الله وأم هانئ عن يمينه، فجاءت الوليدة بإناء فيه شراب فناولته فشرب منه ثم ناوله
أم هانئ فشربت منه ثم قالت : يا رسول الله لقد أفطرت وكنت صائمة، فقال لها أكنت تقضين
شيئا؟ قالت : لا، قال : فلا يضيرك إن كان تطوعاً.⁵

¹ تتفرفين: ترتعدين.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، رقم: 53.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب تزويج المعسر، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب
ودوب الإيمان بنينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته .

⁴ رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون
ذلك كله من الإيمان.

⁵ الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط.2، 1399هـ/1979م.

وعن عمران قال كنا في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم... فاشتكى إليه الناس من العطش فنزل فدعا فلانا... ودعا عليا، فقال اذهبا فابتغيا الماء فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين من ماء على بعير لها... قالوا لها فانطلقني فجاءا بها إلى... ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين... ونودي في الناس اسقوا واستقوا... وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءة منها حين ابتداء فيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها قال لها تعلمين ما رزئنا من مائك شيئا ولكن الله هو الذي أسقانا فأنت أهلها وقد احتبست عنهم قالوا ما حبسك يا فلانة قالت العجب لقيني رجالان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ ففعل كذا وكذا فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض أو إنه لرسول الله حقا فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي منه فقالت يوما لقومها ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم في الإسلام فأطاعوها فدخلوا في الإسلام.. وفي رواية : فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا¹.

وجاء فيما رواه الإمام مسلم أن فاطمة بنت قيس جاءت إلى رسول الله وذكرت له أنه خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم _رضي الله عنهما_ فقال رسول الله: "أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، أما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد. قالت فاطمة: فكرهته، ثم قال: "انكحي أسامة. قالت فاطمة: فنكحته، فجعل الله فيه خيراً كثيراً، واغتبطت².

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد.

² رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاث لا نفقة لها.

المطلب الرابع: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع بريرة رضي الله عنها:

كما حاور الرسول صلى الله عليه وسلم السيدة بريرة الصحابية الجليلة صاحبة الموقف المشرف مولاة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم، كانت مولاة لبعض بني هلال فكاتبوها، ثم باعوها من عائشة رضي الله عنها.

ذكرت كتب السيرة والسنة فضائل كثيرة للصحابية بريرة، وقد جاء الحديث عنها في مواضع لا تحصى، وكان لها نصيب وافر في خدمة السيدة عائشة رضي الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وكذلك في الجهاد في سبيل الله، حيث كانت تخرج مع السيدة عائشة رضي الله عنها تؤدي دورها مع الصحابيات الأخريات من سقاية المجاهدين، وتطبيب الجرحى، وكانت ذات شجاعة نادرة وبطولة. وليس عجباً أن تكون كذلك، فهي تعيش مع السيدة عائشة أم المؤمنين، وابنة الصديق، وزوجة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكانت بريرة، رضي الله عنها، مثلاً في الكرم والجود والعطاء، وعاشت صابرة مؤمنة تحافظ على دينها وإسلامها، وكانت حياتها مثال الزهد والتقوى والخوف من الله.

تحكي لنا كتب السيرة أن لهذه الصحابية موقفاً مشرفاً مع السيدة عائشة، وكذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في حادثة الإفك، قبل نزول البراءة من الله، وذلك عندما دعاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بناء على مشورة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسألها "أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟" فقالت بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن (الدواجن) فتأكله¹.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب: ما جاء في البينة على المدعي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن زوج بريرة عبد أسود يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس بن عبد المطلب: "يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو راجعته". قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: "إنما أنا أشفع". قالت: لا حاجة لي فيه¹.

كما حاور النبي صلى الله عليه وسلم الصحابية الجليلة بنت عميس رضي الله عنها زوج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فهي ممن أسلم قديما وبايع وهاجر إلى الحبشة. فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: "...فكان ناس من الناس يقولون لنا يعني لأصحاب السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة".

قال: فدخلت أسماء بنت عميس وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ فقالت أسماء بنت عميس، فقال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم. فغضبت وقالت: كلا يا عمر، كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعط هالككم وكنا في دار - أو في أرض - البعد بالحبشة، وذلك في ذات الله عز وجل وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيم الله لا أطمع طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله والله لا أكذب ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قلت له: قالت: قلت له كذا وكذا. فقال رسول الله صلى الله

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة.

عليه وسلم: ليس بأحق بي منكم وله لأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان، قالت: فلد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالا ليسألوني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم أفرح به ولا أعظم في أنفسهم مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم¹.

وها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يسأل الصحابييات رضي الله عنهن وهن جنبا إلى جنب مع الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانت الكريمة منهن، وكلهن كريمات، تنقز القرب. وكانت الفقيرة المتواضعة تجاهد بما لها ونفسها، تغزل وتنفق. روى أبوداود أن صحابييات خرجن في غزوة خيبر فسألهن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصدهن فقلن: " خرجنا نغزل الشعر فنعين به في سبيل الله، ونداوي الجرحى، ونناول السهام، ونسقي السوق"².

إن النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين أولى اهتماما خاصا للصحابييات رضوان الله عليهن، حيث هن نصف المجتمع وأصله وسبب صلاحه، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على محاورتهن لتعليمهن ووعظهن وتربيتهن.. وذلك بحسن الخطاب وحسن الاستماع، والرفق واللين، واعتماد الحجج والبراهين العقلية والمنطقية، والبعد عن التعنيف والسب والشتم، وإعطاء المخالف الفرصة كاملة ليعبر عن رأيه، وقبول الحق والإذعان له.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزو خيبر. والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب مداواة النساء الجرحى في الغزو.

المبحث الثالث: حوارہ صلی اللہ علیہ وسلم مع أبناء الصحابة

في هذا المبحث سنرى نماذج من السيرة النبوية لحوار النبي صلى الله عليه وسلم مع الصبيان أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، كيف صاحبهم وعاملهم وأدبهم ومازحهم وأرشدهم وعلمهم وزكاهم... من خلال حوارهم لهم بوجدانه وعقله وسلوكه صلى الله عليه وسلم.

إن الحوار الذي دار بينه وبين غلام صغير، كما يرويه سهل بن سعيد رضي الله عنه، يبين الجانب التربوي المقصود للغلام والحاضرين، ولم يشأ النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكسر قلب الغلام، ومشاعره المرفهة، فاستأذنه أن يبدأ بالكبار:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم بقدرح، فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره، فقال: "يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ"، قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحدا يا رسول الله، فأعطاه أياه"¹

فالغلام جالس عن يمين النبي، والأشياخ عن يساره، ومن السنة البدء باليمين، وأيضاً من المتعارف عليه احترام الكبار، وتقديمهم في كل شيء، فاستأذن النبي الغلام أن يبدأ بتقديم الماء للكبار، ولكن الغلام رفض أن يتنازل عن حقه، يريد أن يفوز بشرف الشرب من يد الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعطاه النبي - صلى الله عليه وسلم - الماء بادئاً به.

أي احترام لمشاعر الإنسان يحمله هذا الحوار؟! وأي رحمة تفوح من خلاله؟! لن ينسى الغلام هذا الموقف أبداً، وسيظل يذكر بالتأكيد إكبار النبي صلى الله عليه وسلم له، واحترام رأيه وحقه.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوماً كان أو غير مقسوم.

حوار آخر دار بين النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - وبين غلام كانت يده تطيش في الطعام، فيأكل من كل جهة، وأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعلمه بطريقة لا تريق ماء وجهه:

عن علي بن عبد الله، أخبرنا سفيان، قال الوليد بن كثير: أخبرني أنه سمع وهب بن كيسان، أنه سمع عمر بن أبي سلمة، يقول: " كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك" فما زالت تلك طعمتي بعد".¹

وللعلم كان الغلام يأكل بيمينه، وبعدها ذكر اسم الله؛ ولكن يده كانت تطيش في الطبق، فتلطف الرسول في إرشاده، وكأنه يأمره بشيء عام، وليس بشيء ملاحظ عليه، إنه أدب الحوار حتى مع الصغار.

ثم تأمل معي هذا الحوار الذي دار بينه وبين غلام كان يرمي الشجر بالحجر؛ ليأكل من البلح:

عن معتمر، قال: سمعت ابن أبي الحكم الغفاري، يقول: حدثني جدي، عن عم أبي: رافع بن عمرو الغفاري، قال: كنت وأنا غلام أرمي نخلا للأنصار، فأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل: إن هاهنا غلاما يرمي نخلنا، فأتي بي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا غلام، لم ترمي النخل؟" قال: قلت: آكل، قال: "فلا ترم النخل، وكل ما يسقط في أسافلها"، ثم مسح رأسي، وقال: "اللهم أشبع بطنه"²

فهو هنا عليه الصلاة والسلام يعلمه الفرق بين الحلال والحرام، تمامًا مثل الفرق بين ما يسقط منها بفعل الرياح، أو الطير، أو غيره، وبين ما نسقطه نحن برميها بالحجارة، إنه يعلمه أن

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب: التسمية في الطعام والأكل باليمين.

² مسند الإمام أحمد، ج: 33، ص: 452، رقم: 20343.

يحتاج دائماً في طعامه، ولا يأكل إلا حلالاً، وكان يمكن للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن ينصحه مباشرة، لكنه آثر أن يحاوره، ليسمع منه، ثم يوجهه إلى ما فيه الخير.

وكثيراً ما كان النبي ينتهز فرصة وجود أحد الصغار، ليغرس فيه التعاليم، حتى يشب عليها، فتكبر معه، وكان لا يترك فرصة للنصح والإرشاد إلا واغتتمها:

عن حنش الصنعاني، عن عبد الله بن عباس، أنه حدثه: أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف " ¹

كلام في العقيدة، لكن الغلام لن ينساه أبداً، وسيُحفر في ذاكرته، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قاله له وحده وهو يركب خلفه، مما أعطاه شعوراً بالأهمية عند النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه أيضاً إكبار من النبي صلى الله عليه وسلم للغلام.

وها هو يخير غلاماً بين أبيه وأمه - بعدما انفصلا - ولم يُجبره على أحد منهما، احتراماً لرغبة الصغير:

عن هلال بن أسامة، أن أبا ميمونة سليمان، من أهل المدينة رجل صدق قال: بينا أنا جالس عند أبي هريرة، رضي الله عنه جاءته امرأة فارسية معها ابن لها وقد طلقها زوجها فقالت: يا أبا هريرة ثم رطنت فقالت بالفارسية زوجي يريد أن يذهب بابني قال: فجاء زوجها فقال: من يجافني؟ فقال أبو هريرة: إني لا أقول في هذا إلا أني سمعت أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقالت: فداك أبي وأمي إن زوجي يريد أن يذهب بابني وهو يسقيني من

¹ مسند الإمام أحمد، ج.4، ص: 409، رقم: 2969.

بئر أبي عتبة وقد نفعتني فقال: "استهما عليه" فقال زوجها: من يجافني في ولدي يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا غلام هذا أبوك وهذه أمك فخذ بيد أيهما شئت" فأخذ الغلام بيد أمه فانطلقت به¹

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل أسلوب المداعبة والمزاح في حوار مع الأبناء نورد هنا نموذجا.

أخرج الإمام البخاري عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا²، حتى يقول لأخ لي³ صغير: "يا أبا عمير، ما فعل النغير⁴5

وفي رواية لأحمد عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه قال: فطيما، قال: وكان إذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه قال: أبا عمير، ما فعل النغير؟ قال: نغر كان يلعب به، قال: فرما تحضره الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس، ثم ينضح بالماء، ثم يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقوم خلفه، فيصلي بنا، قال: وكان بساطهم من جريد النخل⁶.

نجد في هذا المشهد كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم المداعبة والمزاح مع أبي عمير رضي الله عنه أسلوبا حواريا يفهمه الصبي ويحقق التواصل معه، فأبي اهتمام وأي عناية بالصغار

¹ أبو عبد الله الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط: 1، بيروت، 1411هـ - 1990م، ج. 4، ص: 108، رقم: 7039.

² يلاطفنا بطلاقة الوجه والمزح.

³ هو أخوه من أمه أم سليم ابن أبي طلحة رضي الله عن الجميع

⁴ مصغر نغر وهو طير كالعصفور محمر المنقار يسميه أهل المدينة البلبل

⁵ رواه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب: الخميصة السوداء.

⁶ المسند الجامع، ج. 2، ص: 162، رقم: 981.

منه صلى الله عليه وسلم. إن هذا الأسلوب الحوارى يجعل الصبي سهل الانقياد والاتباع فمزاحه صلى الله عليه وسلم مع أبي عمير بتصغير اسمه ومناداته بالكنية رغم صغره وتكراره للممازحة والمداعبة "يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ التُّغَيْرُ" مما يسهل تعليم الصبي وتوجيهه. ثم النبي صلى الله عليه وسلم كانت تحضره الصلاة فيجتمع الصبية فيصلون خلفه وهذا هو حوار القدوة وهو من أرقى الحوار حيث سبقه مقدمات من مزاح ومداعبة ثم أكمله بتهيء مكان الصلاة واجتماع أهل البيت للصلاة معه.

وتذكر السيرة النبوية نموذجاً آخر من حواراته، لكن هذه المرة مع البنات باعتبارهن كذلك من صغار السن، لئلا يرى سمو أخلاقه وتعامله مع بنات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولنقف على تميز تعامله وتجاوره معهن.

عن أم خالد بنت خالد: أتى النبي صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: "من ترون أن نكسو هذه" فسكت القوم، قال: "أئتوني بأم خالد" فأتي بها تحمل، فأخذ الخميصة بيده فألبسها، وقال: "أبلي وأخلقى" وكان فيها علم أخضر أو أصفر، فقال: "يا أم خالد، هذا سنه" وسناه بالحبشية حسن¹

عن حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، عن أم خالد بنت خالد بن سعيد، قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعلي قميص أصفر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سنه سنه" - قال عبد الله: وهي بالحبشية حسنة -، قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعها"، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبلي وأخلفي ثم، أبلي وأخلفي، ثم أبلي وأخلفي"².

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب: الخميصة السوداء.

² رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: من تكلم بالفارسية والبطانة.

قال ابن حجر رحمه الله: أي ذكر الراوي من بقائها أمدا طويلا، وذكر بعضهم دكن أي اتسخ، ثم قال بن حجر رحمه الله: قال أبو عبد الله هو المصنف "البخاري": لم تعيش امرأة مثل ما عاشت هذه يعني أم خالد.¹

وفي رواية ابن أبي الدنيا في كتاب العيال تفصيل وزيادة، فأورد بسنده إلى عمرو بن يحيى بن سعيد، عن جده سعيد بن عمرو قال: أقبل خالد بن سعيد، وعمرو بن سعيد حتى دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفهم من الحبشة فقال خالد: يا رسول الله، فما بالنا بدر لم نشهدها؟ فقال: "يا خالد أما ترضى أن يكون للناس هجرة ولكم هجرتان؟" قال: بلى يا رسول الله، قال: "فذاك لكم" قال: ومع خالد ابنة عليها قميص أصفر فقال لها: اذهبي فسلمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فانكبت على النبي صلى الله عليه وسلم فجعلت تريبه قميصها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "سنة سنة" قال: حسن بلغة الحبشة "أبلي وأخلقني ثم أبلي وأخلقني"²

من هذا الحديث النبوي الواقعي والعملي نستنتج الملاحظات التربوية التالية³:

- اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين وأولادهم، واستقبالهم بالفرحة والبهجة والسرور عند عودتهم، ووعدهم بالأجر المضاعف عند الله.
- إهداء الرسول صلى الله عليه وسلم البنات الثياب الجميلة، وتخصيصه بالبنات المهاجرة زيادة رعاية.
- اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالأطفال وحفظه لأسمائهم.

¹ فتح الباري ج: 6، ص: 184.

² أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، العيال، المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار ابن القيم، ط.1، السعودية - الدمام، 1410هـ - 1990م، باب حمل الولدان وشمهم وتقيلهم، ج. 1، ص: 404، رقم: 239.

³ محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، منهج التربية النبوية للطفل، ج. 2، ص: 514-515-516.

- جواز لعب الصغير بجسد الكبير ولحيته وشعره وخده وما إلى ذلك، ما عدا العورة.

- يسمح للصغير ما لا يسمح للكبير.

- مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم فرحة الطفلة بلباسها الجميل.

- دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للطفلة بما تفرح به وتحبه بالبركة وطول العمر.

- خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بما تفهم من لغتها الحبشية حيث ولدت في الهجرة في الحبشة، ونشأت فيها مع والديها المهاجرين.

- تكرار الدعاء مع الطفلة زاد في إدخال السرور على قلبها.

- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم للطفلة والاهتمام بها.

- مساعدة النبي صلى الله عليه وسلم لبنات المهاجرين ومساعدته لكسوتهن، وإصلاح شأنهن.

- تسمية البنات منذ طفولتهن، ومنادتهن بتلك الكنية "أم خالد".

- حمل الطفلة إلى مجالس الكبار "فأتي بها تحمل".

- مناداته الطفلة الصغيرة بالكنية تحببها لقلبها "يا أم خالد".

- ثناءه ثناءه صلى الله عليه وسلم على لباس الهدية الذي أهده لأم خالد

لتزداد بهجة وفرحة: "هذا سنه" "هذا سنه" أي: حسن.

- حصول البركة للطفلة في كبرها، لمعاشرتها الصالحين في طفولتها ودعائهم

لها، حيث عاشت البنت عمرا مديدا، وعاشت ثيابها معها حتى تغير لونها.

- تفاعله صلى الله عليه وسلم مع البنت أثناء مداعبتها واهتمامه بما تعرضه

عليه من ثوبها "فانكبت على النبي صلى الله عليه وسلم تريه قميصها".

- اهتمامه صلى الله عليه وسلم بحفظ اسم البنت "أيتوني أم خالد".

- إلباس النبي صلى الله عليه وسلم بيده للبت العائدة من الهجرة، زيادة في افراحها، وإدخال السرور على قلبها "فأخذ الخميصة بيده فألبسها".

- تأديب الأب لابنته لما أخطأت "فزبرني أبي.." فبادر النبي صلى الله عليه وسلم بتخفيف ردع الأدب لابنته المخطئة "قال: دعها".

وروى ابن أمانة أن فتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أدنه قدنا منه قريباً قال: فجلس. قال: أتحبه لأهلك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لآمهاهم". قال: "أفتحبه لابنتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم" قال: "أفتحبه لأختك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم" قال: "أفتحبه لعمتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم" قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم" قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحسن فرجه" فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء¹

إنه بصدق؛ أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض كما قال الشاعر، لكن يكون لمشيمهم على الأرض معنى ومغزى وذكر خالد لوالدنا ولأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذا نحن حملناهم رسالة الإسلام يبلغونها جيلاً بعد جيل. فهو المبعوث إلى الناس أجمعين هادياً ومهدياً ورحمة للعالمين، الذي وجد العالم يريزح تحت ركام من التصورات الخاطئة والمفاهيم الفاسدة والعادات الجاهلية، التي كانت الأنثى -بالخصوص- ضحية من ضحاياها، لكن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم واجه هذه التصورات وحطم تلك العادات الجارفة بنشر مبادئ الرحمة والرفق والمساواة.²

¹ مسند الامام أحمد: رقم 22211.

² محمد باعسو، قطوف حافية من الرحمة النبوية، مطبوعات الهلال، ط.1، 2000م، ص: 33، بتصرف.

ونخلص في نهاية هذا المبحث إلى أن التربية النبوية للبنت وأطفال الصحابة عموماً هي تربية عملية واقعية، يمتزج فيها الحوار العاطفي والنفسي والاجتماعي والبدني..، فتفاعل فتكون تربية علمية وعملية، يحصل ذلك في كل مشهد وموقف نبوي مع طفل من أطفال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أو طفلاً من أقربائه كعبد الله بن عباس، أو من أولاد المهاجرين كأم خالد، أو من أبناء الأنصار كأبي عمير، لهذا كان المنهج التربوي والتعليمي النبوي للطفل عموماً منهجاً عملياً وواقعياً يبنى أساساً على الحوار. ما أشد حاجتنا اليوم إلى الحوار! الذي بدأ ينقطع حتى داخل الأسرة الواحدة، مسبباً بذلك كثيراً من المشكلات والأزمات.

وهكذا فالحوار هو البديل عن الفوضى العارمة في الأفكار والمفاهيم والاتجاهات، فحين ينغلق الأفق وتسد المنافذ أمام الحوار القائم على معايير منطقية وفي جو تسوده الحرية والاحترام، سينغلق كل صاحب فكر على نفسه ويحيط مريديه بسياس بحجبهم عن الآخر، وفي هذا خطر جسيم على المجتمع، يجعله عرضة للفوضى والحزب الداخلي في أية لحظة، فالحوار هو أهم وسيلة لتعميق الوحدة، وتعظيم القواسم المشتركة بين أبناء المجتمع.

والحوار ينضج الأفكار، ويسهم في أن تستخرج الأمة أفضل ما لديها مما يسهم في نهضتها ورفقيها، فالأمة ترقى وتتقدم بسمو الفكر الذي يحمله أبنائها، وعليه فإن فتح أبواب الحوار بين جميع أبناء المجتمع في كل ما يعرف لهم من قضايا فكرية واجتماعية وسياسية، والاستجابة لمخرجات هذا الحوار هو السبيل الأمثل لتجاوز حالة الجمود الفكري والحضاري التي تعيشها الأمة.

وللحوار آثار نفسية على المتحاورين، من حيث تدريب الإنسان على قبول الحق الإذعان إليه، واحترام الآخرين وتقدير آرائهم، كما أنه يسهم في تحرير الإنسان من مشاعر العدوانية للآخرين، ومن الخوف والقلق والتوجس من الآخر، وهو وسيلة لتعديل السلوك من خلال تغيير قنوات الأفراد إذ الخطوة الأولى في تعديل السلوك هي تغيير الأفكار والقناعات، ودمج هذه القنوات في البناء الفكري للشخص وهذا سينعكس حتماً على سلوكهم.

الفصل الثالث:

الحوار مع الملوك والقادة وأهل الديانات السماوية.

المبحث الأول: الحوار مع الملوك والقادة.

المبحث الثاني: الحوار مع أهل الديانة اليهودية.

المبحث الثالث: الحوار مع أهل الديانة النصرانية.

المبحث الأول: الحوار مع الملوك والقادة.

إن من خصائص الدعوة الإسلامية أنها جاءت للعالمين، قال سبحانه وتعالى وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ¹، تمثلت هذه الخاصية في الحياة النبوية من خلال دعوة مجموعة من القادة والملوك إلى الإسلام عن طريق التراسل، كما تشير إليه نصوص السيرة النبوية، هذه المراسلات تعتبر نوعاً حوارياً لتضمنها مراجعة بين الطرفين، كما تمكنا من الحديث عن الحوار المكتوب، الذي لا يشترط فيه لقاء بين المتحاورين، ولتوضيح هذا النوع نسوق مجموعة من نماذج الحوار عن طريق التراسل، تمكن الباحث من دراستها وبيان أهميتها في التواصل وإقامة العلاقات بين الأمم، أساسها تحقيق التعايش وضمان الحقوق بين الطرفين.

ذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية، فقال: "أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم"²، ثم بعث من يومه رسلاً من أصحابه إلى ملوك الأرض، وكتب لهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر، وعباد إلى ابن الجلندي الأزديين ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي، إلى ثمامة بن أثال وهودة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام³.

¹ سورة الأنبياء، الآية: 106.

² ابن هشام، السيرة النبوية: ج:2، ص:606.

³ ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، م:2، بيت الأفكار الدولية، د.ط، د.س، م:2، ص:128.

ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب هذه الكتب، أشار عليه بعض أصحابه بأن يتخذ خاتماً لأن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا محتوماً، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة نقشه: محمد رسول الله¹. وفي هذا الأمر المتصل بقضية الحوار المكتوب نجد دالتين: دلالة إدارية وأخرى علمية.

الدلالة الإدارية تمثلت في احترام شكليات التراسل بين الرؤساء والملوك في علاقاتهم، ولهذا الاعتبار الشكلي أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأي الصحابي لضمان تحقيق الهدف من العملية الحوارية. وجعل الخطاب المكتوب كأنه شفوي من خلال ختمه لتأكيد أن الكلام صادر عنه.

أما الدلالة العلمية في الحوار المكتوب التي نستنتجها من هذه المراسلات هو توثيق الخطاب والتأشير عليه بما يثبت النسبة إلى صاحبه، يعبر عنها في الوقت الحاضر في الكتابة الأكاديمية بالإشارة إلى دار النشر باعتبارها وسيطاً بين المؤلف والقارئ. إشارة تأسست على عقد بين الكاتب ودار النشر حيث تضمن الأخيرة حقوق المؤلف.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السنة السادسة للهجرة، تاريخ هذه الحوارات الكتابية، لم تكن فيها لدولة الإسلام من القوة والهيبة التي تستطيع بهما أن تتحدى أصغر الإمارات، بل الدول العظمى، ومع ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الدول، وأوفد رسله إلى ملوكها، وفي هذا إشارة إلى أن دين الإسلام تأسس على ثقافة الحوار منذ أيامه الأولى، هذا بالإضافة إلى الإيمان واليقين الذي تحلى به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الإسلام سيعم وينتشر إلى هذه البقاع².

وهذه الدول هي: دولة الروم وعلى رأسها هرقل، ودولة الفرس وعلى رأسها كسرى، ودولة الحبشة وعلى رأسها النجاشي، ودولة القبط في مصر وعلى رأسها المقوقس، ومن هذه

¹ الإمام البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب: باب دعوة اليهود والنصارى.

² فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم، د.ط، دمشق، د.ت، ص:31.

الدول العظمى ثلاث تدين بالنصرانية، وكان عدد من أمراء العرب وملوكهم يدينون بها تبعاً للولاء السياسي لدولة الروم.

أولاً: رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة.

حمل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري¹، ومما ورد فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فأني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى"².

وبعد أن قرأ النجاشي الرسالة، جرى بينه وبين حاملها عمرو الضمري، وقد كان بينهما صلة قديمة، الحوار التالي³:

قال عمرو بن أمية الضمري: يا أصحابكم! إن علي القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا، وكأننا في الثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لنناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع الحز وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن

¹ صحابي جليل مشهور، أسلم حين انصرف المشركون من أحد، له ذكر في عدة مواطن، كان من أشهر رجال العرب جرأة ونجدة، بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى النجاشي في زواج أم حبيبة رضي الله عنها، عاش إلى خلافة معاوية، فمات بالمدينة.

- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.4، ص:496.

² صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الهلال - بيروت، ط: 1، ص:248-249.

³ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط.2، 200م/1423هـ، ج.4، ص:65.

مريم، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر. ثم نزل النجاشي عن سريرته وجلس على الأرض، ووضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، وأسلم وشهد شهادة الحق، ثم كتب إلى الرسول الكريم بالجواب التالي: "إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا¹، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين².

ثم راسله النبي عليه الصلاة والسلام مرة ثانية يوكله في خطبة وعقد زواجه صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، كما طلب منه في الرسالة ذاتها أن يرسل إليه من لجأ إلى مملكته من المسلمين ففعل، ثم دعا بحق من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ رسول الله ذلك قال: "لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها"³.

اتضح من هذه المراسلات المتبادلة أنها عبارة عن حوار كتابي تم فيه المراجعة في الكلام بين المتحاورين الرسول صلى الله عليه وسلم وملك الحبشة النجاشي، اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري رسولاً للنجاشي لم يكن فقط إيصال الرسالة وإنما تحاور نيابة

¹ الثفروق: هو قمع التمرة أم ما يلتزق به قمعها.

- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص: 885.

² ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م: 2، ص: 132.

³ ابن سعد، الطبقات الكبرى ج. 1، ص: 258.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الملك من أجل دعوته إلى الإيمان برسالة الإسلام، فنجح في تحقيق هدف الحوار الكتابي، متبعا في ذلك منهج المصطفى عليه الصلاة والسلام في الحوار، وتجلى هذا المنهج فيما يلي:

- الابتداء بالتسمية ودلالاتها واضحة للمتلقى
- الإخبار بأن محمدا رسولا من الله تعالى إلى الخلق أجمعين.
- ذكر رتبة المخاطب في الكتاب الحواري أنه ملك الحبشة، وفي ذلك احترام لأهل البلد واعتراف بالمكانة الاجتماعية التي يحظى بها النجاشي في قومه.
- ذكر ما يتم قبوله من طرف المتحاور فيما يتصل بعقيدته، الهدف من ذلك تقبل رسالة الحوار، واعتبار أن بعضا من الحق قد يمتلكه الآخر.
- بيان رأي الإسلام في عيسى عليه السلام وأمه مريم الباتول، وفي ذلك وضوح في الخطاب.
- الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم.

حاور رسول الله صلى الله عليه وسلم هرقل الروم عن طريق التراسل، أكثر من مرة كما تدل على ذلك النصوص، أولاها بعد صلح الحديبية، ومرة أخرى، وهو في غزوة تبوك من السنة التاسعة، والنصوص التي تتحدث عن هذه المراسلات وفيرة جدا، وفي بعضها ما ليس في الآخر، وسأشير إلى أهمها وأكثرها دلالة على المقصود مع مراعاة الصحة والثبوت¹.

روى مسلم رحمه الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر يدعو إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي²، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر،

¹ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 33.

² هو دحية بن خليفة الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد أحدا وما بعدها، وكان دحية جميل الصورة، لذلك كان جبريل عليه السلام يأتي النبي عليه الصلاة والسلام في صورته أحيانا، بعثه رسول الله إلى قيصر سنة ست في

وكان هذا الأخير موجودا ببيت المقدس، فلما جاءه كتاب رسول الله قرأه ثم بعث يلتمس من يسأله من العرب عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فمثل بين يديه أبو سفيان بن حرب في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام، وكان القيصر محاطا بعظماء الروم، فدعا بترجمان له، وشرع يسأل أبا سفيان رضي الله عنه في حوار طويل:

قال هرقل: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبا.

قال هرقل: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني

سائل هذا الرجل فإن كذبتني فكذبوه، ثم قال لأبي سفيان: كيف نسبه فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

قال هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل من آبائه من ملك؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزدون.

قال هرقل: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

الهدنة: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج.2، مؤسسة الرسالة، ط.2،
1402هـ/1982م، ج: 3، ص: 499-500.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة ولا ندري ما هو فاعل فيها.

قال هرقل: فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان: نعم.

قال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال هرقل: ماذا يأمركم؟

قال أبو سفيان: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا

بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال هرقل للترجمان، قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا؟ وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أعلم أنه منكم، فلو أني أعلم أني

أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عند قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فقرأ، فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين¹"، "وَقُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"²، فلما فرغ القيصر من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، فأخرج أبا سفيان وأصحابه³.

وكان هرقل فيما يبدو من كلامه السابق عالماً بالكتب الدينية، على دراية باقتراب زمان ظهور النبي الذي بشرت به تلك الكتب، وعندما سأل أبا سفيان ازداد يقينا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبي المنتظر، فعزم على الإسلام، لكنه خشي على نفسه من الروم وخاف على ملكه أن يزول، ففي تنمة رواية البخاري للحديث إشارة إلى أن هرقل كتب إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، يستفسره في أمر خروج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سار إلى حمص، فلم يبرحها حتى أتاه كتاب من صاحبه يخبره بخروج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه نبي، فجمع هرقل عظماء مملكته ثم قال لهم: "يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فتفرقوا عنه وهموا بالفرار لما سمعوا مقالته، فلما أيس من إيمانهم، قال: "إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه"⁴.

¹ رواه الإمام مسلم في صحيحه، رقم: 1773.

والأريسيون: قيل هم الفلاحون والزراع، ومعنى أن عليه إثم الأريسيين تحميلة إثم رعاياه الذين يتبعونه وينقادون بانقياده، وقد نبه بمؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب والأسرع إلى الانقياد.

² سورة آل عمران، الآية: 63

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

⁴ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط. 5، 1985م، ص: 111.

وجاء في بعض الروايات أن قيصر بعث جوابا للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه:
"إلى أحمد رسول الله، الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع
رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجّدتك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني
دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيرا لهم، ولوددت أني عندك،
فأخدمك، وأغسل عند قدميك"¹.

ونجد عند الإمام السهيلي شارح سيرة ابن هشام رواية أخرى لبعثة دحية الكلبي إلى
قيصر، جاء فيها: "لما قدم دحية الكلبي على قيصر، قال له: يا قيصر أرسلني إليك من هو خير
منك، والذي أرسله هو خير منه ومنك، فاسمع بذل ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم،
وإن لم تنصح لم تنصف، قال: هات، قال: هل تعلم أكان المسيح يصلي؟ قال: نعم، قال: فإني
أدعوك إلى من كان يصلي المسيح له، وأدعوك إلى من دبر خلق السماوات والأرض والمسيح في
بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم عنده،
وعندك من ذلك أثارة من علم، تكفي من العيان وتشفي من الخبر، فإن أجبت كانت لك الدنيا
والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، واعلم أن لك ربا يقصم الجبابرة ويغير
النعم، فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه، ورأسه وقبلة، ثم قال: أما والله ما تركت كتابا إلا
وقرأته، ولا عالما إلا وسألته، فما رأيت إلا خيرا، فأمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له،
فإني أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غدا ما هو أحسن منه، فأرجع عنه فيضرنني ذلك ولا ينفعني،
أقم حتى أنظر فلم يلبث أن أتاه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم"².

وللباحث أن يلاحظ دقة اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لسفرائه، ممن تميزوا برجاحة
العقل، وعمق المعرفة وبعد النظر، والقدرة على الحجاج والحوار الهادف البناء، مع جمال الصورة
وكمال الخلق والخلق، والمعرفة بلغة المخاطب.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

² الإمام السهيلي، الروض الأنف، ج: 4، ص: 389-390.

وعند الإمام الطبري في تاريخه رواية أخرى للحادثة نفسها يضيفها إلى ابن إسحاق، ومما جاء فيها: "أن هرقل قال لدحية بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وإنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى "صغاطر" الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم، فهو والله أعظم في الروم مني، وأجوز قولاً عندهم مني، فانظر ما يقول لك، قال: فجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وبما يدعو إليه، فقال صغاطر: صاحبك والله نبي مرسل، نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه، ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداء، ولبس ثياباً بيضاء، ثم أخذ عصاه، فخرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشر الروم، إنه قد جاءنا كتاب من أحمد، يدعوننا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله، قال: فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه، فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك، إنا نخافهم على أنفسنا فصغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني¹.

ومن كل ما تقدم يستطيع الباحث أن يجزم بتعدد المراسلات بين النبي صلى الله عليه وسلم وهرقل، ويلاحظ كذلك معرفة هرقل وأهل العلم من النصرانية في مملكته بخبر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأوصافه ودعوته، ويلاحظ أيضاً تلمظ النبي عليه الصلاة والسلام في مخاطبة محاوريه، بحيث وصف هرقل بعظيم الروم، وخاطبه بما هو أهله من المنزلة الرفيعة بين قومه وشعبه، كما أن النبي عليه الصلاة والسلام أوجز له القول في بيان ماهية دعوة الإسلام، وغاية هذا الدين الخاتم، وما يجب أن يلتقي عليه أصحاب الديانات السماوية خاصة والناس عامة².

¹ ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م.2، ص:131.

² الإمام النووي، رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي، ج.12، ص:92-93.

وتظهر الروايات جميعها يقين هرقل وعلماء مملكته أن الإسلام سيعم دولتهم، ويشمل
ساحتهم، نظرا لحاجة البشرية لشريعته، ومبادئه الثابتة، وللمعاني النبيلة التي يدعو إليها، وسيبقى
الإسلام مطمح النفوس الخيرة، وضابط التعايش البشري السليم¹.

ومما يدل على تقدير ملوك الروم لشخص النبي صلى الله عليه وسلم، ما تناقلته الكثير
من المصادر التاريخية عن حسن صنيعهم مع كتاب رسول الله إليهم، ومن ذلك ما ذكره ابن
حجر العسقلاني أن هرقل وضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصبة من فضة
تعظيما له، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه كابرا عن كابر في أرفع صوان وأعز مكان حتى كان عند ملك
طليطلة، ثم صار عند سبطه، ولما رآه أحد قواد المسلمين بكى وسأل هذا السبط أن يمكنه من
تقبيله، فامتنع، ويشير ابن حجر أنه بلغه أن سيف الدين فليح المنصوري قال: "أرسلني الملك
المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الفرنجة في شفاعته فقبلها،
وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، فقال لي: لأتحفك بتحفة سنية، فأخرج لي صندوقا مصفحا
بذهب، فأخرج منه مقلمة ذهب، فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه، وقد التصقت عليه
قطعة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر، مازلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه
ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه، ونكتمه عن
النصارى ليدوم الملك فينا"².

وذكر صاحب التراتيب الإدارية أن الكتاب النبوي الشريف الوارد على هرقل متوارث
بين ملوك الروم، محفوظ مصون يلف بالديباج، ويدخر أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق، لا
يخرج ولا يسمح بإخراجه، ينظر فيه بعين الإجلال، يكرمونه غاية الكرامة بوصية توارثوها كابرا
عن كابر، وخلفا عن سلف³.

¹ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 46.

² ابن حجر، فتح الباري، ج: 1، ص: 42-43.

³ عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، ج: 1، ص: 160.

ثالثاً: رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك القبط في مصر.

كان المقوقس يحكم دولة القبط في بلاد مصر والنوبة والجنوب واسمه جريج بن ميناء¹، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه حاطب بن أبي بلتعة اللخمي² بكتاب يدعو فيه إلى الإسلام جاء فيه³:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، "قُلْ يَٰ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ بِٱشْهَادِ ٱنَّا مُسْلِمُونَ"⁴.

فخرج به حاطب حتى قدم الإسكندرية، فلما دخل على المقوقس دفعه إليه ثم قال له: "إنه قد كان رجل قبلك يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك، قال المقوقس: هات، قال حاطب: إن لديك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن

¹ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 50.

² حاطب بن أبي بلتعة اللخمي المكي، من مشاهير الصحابة المهاجرين، كان أحد فرسان قريش ومن رماحها الموصوفين في الجاهلية، شهد بدرًا والمشاهد كلها، وهو الذي كتب إلى قريش يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم، توفي سنة ثلاثين للهجرة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وله خمس وستون سنة. ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج. 2، ص: 4.

³ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج. 4، ص: 66.

⁴ سورة آل عمران، الآية: 63.

أدرك هذا النبي، ولسنا ننهك عن دين المسيح بل نأمرك به"، قال المقوقس: "إني قد نظرت في أمر هذا النبي فرأيت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى إلا عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأُنظر في ذلك"¹.

وأخذ المقوقس كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعله في حق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب باللغة العربية، فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام"².

ودفع الكتاب إلى حاطب وأمر له بمائة دينار وخمسة أثواب، وقال: ارجع إلى صاحبك، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، فإن القبط لا يطاوعوني في اتباعه، وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر صاحبك على البلاد، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده، فارحل من عندي، قال حاطب: فرحلت من عنده ولم أقم إلا خمسة أيام، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له ما قال لي، فقبل هديته، وقال: "ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه"³.

وأورد الحافظ الذهبي رواية أخرى للحوار الذي دار بين حاطب والمقوقس، وفيها يقول حاطب رضي الله عنه: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فجئته بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزلني في منزله، وأقامت عنده، ثم بعث إلي، وقد جمع بطارقه فقال: إني سأكلمك بكلام وأحب أن تفهمه عني، قلت: هلم، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت: بلى، هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على

¹ الإمام السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج: 4، ص: 390.

² صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، ص: 250-251.

³ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 51.

قومه حيث أخرجوه، قلت: عيسى، أليس تشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخذه قوم، فأرادوا أن يصلبوه أن يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه إلى السماء الدنيا، قال: أنت حكيم جاء من عند حكيم¹.

كل النصوص المتقدمة تؤكد بمجموعها وقوع المحاورة بين حاطب رضي الله عنه وبين المقوقس، وتؤكد مجيء الهدايا الكثيرة من المقوقس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مع قطعية الرسالة النبوية إليه، وتقبلها بقبول حسن إلا أنه لم يسلم².

وثبت في الكثير من الأحاديث المرفوعة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وصيته بالأقباط من أهل مصر؛ منها قوله (صلى الله عليه وسلم): "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما"³.

رابعا: كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى.

كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس، وبعث كتابه مع عبد الله بن حذافة السهمي⁴، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ليدفعه إلى كسرى، وفيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك

¹ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، م. 2، ص: 19.

² ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م. 2، ص: 134.

³ النووي، رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر، ج. 16، ص: 79، رقم: 2543.

⁴ عبد الله بن حذافة السهمي: صحابي جليل، أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، توفي بمصر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، ط. 1، 1433هـ/2012م، ج: 3، ص: 213.

بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"¹.

فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ثم كتب إلى باذان عامله على اليمن يأمره أن يبعث إلى الحجاز رجلين جلدتين من أهل اليمن ليأتياه بالنبي عليه الصلاة والسلام، فلما قابلا رسول الله أغلظا له في القول وأمره بأن يوافي كسرى شاهنشاه (ملك الملوك)، فأنظرهما النبي عليه الصلاة والسلام إلى الغد، وفي ذلك الوقت حدث أن انهمز كسرى أمام جنود قيصر وقام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، فلما غدا على الرسول الكريم مبعوثا باذان من اليوم الثاني أخبرهما بما حدث للفرس، وقال لهما: "أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك"، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، ثم ما لبث أن جاءه كتاب يخبره بمقتل شيرويه لأبيه، ويأمره أن يترك أمر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حين، فكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن²، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه تمزيق كسرى لكتابه قال: "مزق الله ملكه"³.

¹ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج.4، ص:65.

² ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م.2، ص:133-134.

³ صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، ص:251.

خامساً: دلالات رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم.

من مجموع مراسلات النبي صلى الله عليه وسلم يمكن استخلاص جملة من الدلالات من أهمها¹:

1. اعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم على منهج القرآن الكريم أرضية لعرض كل ما يتعلق بحقيقة المسيح والنصرانية.

2. المبدأ الذي وضعه الرسول عليه الصلاة والسلام في موضوع اللقاء مع النصارى هو قول الله تعالى: "فَلْ يَتَأْهَلْ أَلِ كِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"².

3. صبغة السلم والسلام والأمان في مراسلة النبي صلى الله عليه وسلم لملوك عصره من خلال عبارات من قبيل: "أسلم تسلم"، "سلم أنت"، ومن شأن إقرار هذا المبدأ تعبيد الطريق أمام اللقاء والحوار خاصة بين المسلمين والنصارى.

4. حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على مكانة الملوك والأمراء وعدم المساس بممالكهم وملوكهم إذا هم أسلموا، وهذا يدل على أن هدف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الرسائل هو الدعوة إلى الله تعالى.

5. التأكيد على ما عند النصارى من علم بظهور النبي صلى الله عليه وسلم، مع تطابق الصفات التي يجدونها عندهم في كتبهم مع صفات النبي صلى الله عليه وسلم.

¹ بسام عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص: 139

² سورة آل عمران، الآية: 63.

6. ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء الأنبياء عليهم السلام، خاصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فيه تذكير للمسيحيين بأصول دينهم، وأن المنشأ واحد لكل الأديان السماوية.

المبحث الثاني: حوار مع أهل الديانة اليهودية:

كان وجود اليهود في الجزيرة العربية "الحجاز" قبل الإسلام بسنين عديدة، وكان لوجودهم دور اجتماعي واقتصادي وسياسي وسط قبائل الحجاز، وذلك لأهمية المنطقة جغرافيا وموقعها الاستراتيجي، وتؤكد بعض المصادر العربية أن اليهود هم من القبائل العربية المتهودة، فذكر اليعقوبي أن أشهر قبائل اليهود بنو النضير وبنو قريظة التي استوطنت يثرب تنتمي إلى قبيلة جذام اليمانية التي هاجرت إلى الحجاز، والتي استقرت - بعد اعتناقها اليهودية - في مدينة يثرب¹.

وتهود القبائل العربية هو أمر فيه اختلاف كبير بين الباحثين، نظرا لهجرة اليهود خاصة بعد السبي وأيضا في اضطهاد الرومان، الذي دفع العديد منهم إلى الهروب من بطش البابليين إلى الحجاز والشام وشمال إفريقيا.

عاش اليهود وسط الحضارات الجديدة واندمجوا فيها، وهو ما نتج عنه تهود بعض القبائل الوثنية، يقول حسين هيكل: "هاجر اليهود إلى الحجاز من بلاد الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد بعد نجاح الرومان في فرض سيطرتهم على بلاد الشام ومصر، وعلى اليهود

¹ رياض مصطفى أحمد شاهين، النشاط الاقتصادي لليهود بالحجاز في الجاهلية وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، مجلة الجامعة الإسلامية "سلسلة الدراسات الإنسانية" م.12، العدد:2، 2004، ص: 24.

ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، مما أدى إلى هجرة هذه القبائل اليهودية إلى الحجاز التي كانت بعيدة عن السلطة الرومانية"¹.

ومن بين القبائل اليهودية نجد قبيلة بني قينقاع التي اختلفت الروايات حولها، فمنها ما هو أقرب إلى الحقيقة والتي تنص على أن بني قينقاع هي من بقايا الجماعة التي رافقت سيدنا موسى عليه السلام للحج، حيث تخلفت جماعة منهم، وسكنت في موضع سوق قينقاع، فكانوا أول من سكن موضع المدينة. ويلاحظ أنه بالمقابل لهذا الرأي هناك رأي آخر، أقرب إلى الحقيقة: فحواه أن اليهود هاجروا إلى الحجاز من الشام بعد الاضطهاد الروماني².

وقسم إسرائيل ولفنسون وجود اليهود في بلاد العرب إلى طورين أساسيين: الطور الأول يشمل حوادث لبطن بني إسرائيل في هاته البلاد، والطور الثاني يتناول أخبارا لجموع من اليهود كان لها شأن عظيم في تاريخ الجزيرة العربية، ويقف آخر الطور الأول عند نهاية القرن الخامس ق.م، أما الطور الثاني فينتهي بإجلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية.³

هذا التقسيم الناتج عن هجرات اليهود من وإلى الجزيرة العربية كان سببا في نشوء قبائل يهودية ذات تعاملات ثقافية، اقتصادية وسياسية مع باقي القبائل العربية.

أشارت بعض المصادر العربية القديمة حضور اليهود في بلاد العرب، وذكر ولفنسون قول صاحب كتاب الأغاني حيث قال: "كان ساكنوا المدينة في أول الدهر قبل بني إسرائيل قوما من الأمم الماضية يقال لهم العمالق وكانوا قد تفرقوا في البلاد، وكانوا أهل غزو وبغي شديد وكان

¹ خليل إبراهيم السامرائي، المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة، منشورات مكتبة البسام، ط.1، الموصل، 1984، ص17.

² رياض مصطفى أحمد شاهين، النشاط الاقتصادي لليهود بالحجاز في الجاهلية وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص:24.

³ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مكتبة الاعتماد، د.ط، 1345هـ/1937م ص:1.

ملك الحجاز منهم يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء إلى فذك، وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود إلى الجبابة من أهل القرى يغزونها فبعث موسى إلى العماليق جيشا من بني إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعا إذا ظهرها عليهم ولا يستبقوا منهم أحدا، فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق فقتلوهم أجمعين إلا ابنا للأرقم كان وضيا جميلا فضنوا به على القتل وقالوا نذهب به إلى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا إلى الشام فوجدوا موسى قد توفي، فقالت لهم بنو إسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شابا جميلا فنفسنا به عن القتل وقتلنا نأتي به موسى فيرى فيه رأيه، فقالوا لهم هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأن لا تدخلوا علينا الشام أبدا، فلما صنعوا ذلك قالوا كان خير لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز ونرجع إليها فنقيم بها فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها وكان الجيش أول من سكن اليهود بالمدينة.¹

هذه الرواية وغيرها المبتوثة في كتب التاريخ، تشير إلى عدم وجود دليل قاطع على يهودية أصلية للقبائل التي عاشت في الجزيرة العربية قبل الإسلام، يشير المؤرخ اليعقوبي إلى أن وجود طوائف يهودية كثيرة في الحجاز غير صحيح، وهم فخذ من جذام إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير، فسموا به وكذلك قريظة²، ويضيف اليعقوبي في حديثه حول هاته القبائل في وقعة بني قريظة: ثم كانت وقعة بني قريظة وهي فخذة من جذام أخوة النضير ويقال أن تهودهم كان في أيام عادياه بن السموأل ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه وقد قيل إن قريظة اسم جددهم بعقب الخندق³.

وهذا أمر شائع في المصادر عن جل القبائل اليهودية في الحجاز إلا القليل منها، غير أن ولفنسن ذكر محاولة بعض المؤرخين الغربيين ربط هذه القبائل بجذور عبرية: ولكن من جهة أخرى

¹ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 6.

² أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مطبعة بريل، ج.2، د.ط، ليدن، 1883، ص: 7.

³ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج.2، ص: 52.

تجتهد طائفة من المؤرخين الإفرنج في أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقا عبريا، على أن الاستدلال ببحث لغوي كهذا على جنسية اليهود في بلاد العرب لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه، فمن الحق أن أسماء القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبي ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التي نزلت بها أسماء لها. بل الواقع أن اليهود في دورهم الثاني لم يكونوا يعرفون بأنسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التي جاءوا منها فكان يقال مثلاً: فلان الأورشليمي والآخر الحبروني وهكذا...¹ وهذا التطور في الألقاب عند اليهود كان نتيجة الهجرات المتعاقبة التي قاموا بها والتي حاولوا فيها الاندماج مع محيطهم سواء الحضري أو البدوي.

كان لليهود في الحجاز دور هام في مختلف المجالات الاقتصادية، السياسية والتجارية في هذه الرقعة الجغرافية، وهذا أمر طبيعي نظراً لما حملوا معهم من صناعات وخبرة تجارية وسياسية من مدنها التي هاجروا منها.

فأصبح لهم دور مهم في اقتصاد الحجاز، من خلال أنشطتهم في مختلف المجالات الاقتصادية، الزراعية.... فتخير اليهود أماكن إقامتهم في الحجاز، فسكنوا مناطق وسط البادية توفرت فيها الشروط اللازمة لممارسة الزراعة كالمدينة المنورة، وخيبر، وفدك، ووادي القرى، هذه المدن والقرى أو التجمعات الحضرية تمتاز بخصوبة تربتها وغناها بالمعادن والمياه الجوفية.²

وأضاف ولفنسون إلى أن اليهود أدخلوا إلى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار، وطرقاً حديثة في الزراعة³ فكان سبباً في تطور أساليب الزراعة في الجزيرة العربية.

¹ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 15.

² خالدة عبد اللطيف حسن ياسين، موقف النبي صلى الله عليه وسلم من يهود الحجاز دراسة منهجية، دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، 2009، ص: 46.

³ المرجع السابق، ص: 49.

بجانب الزراعة، نجد أن يهود الجزيرة العربية تحكموا أيضا في مجال الصناعة، حيث طوروه وأصبحت معظم الصناعات خاصة في المدينة وضواحيها تحت سيطرتهم، كصناعة الخمر، والأواني الفخارية، وصناعة الأثاث... وكانت التجارة بنوع خاص أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخبيري الذي أرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة. ويمكن أن يقال أن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز نظرا لما كان عندهم من مال وثروة.¹ إضافة إلى تجارة الرقيق والصياغة... هذا يدل على الدور المهم الذي لعبته هذه القبائل وسط القبائل العربية بالحجاز لتصبح محور العديد من المجالات خاصة الصناعية والزراعية.

سياسيا كان لليهود دور بارز نظرا لسيطرتهم على أنواع من التجارة، فكان انتشارهم على طول طريق القوافل البرية من اليمن حتى فلسطين، واتصلهم الوثيق بيهود حمير ويهود طبريا، إضافة إلى خبراتهم التجارية وامتلاكهم رأس المال، جعل منهم حليفا مناسباً للفرس -نظرا لعدائهم لبيزنطة- فتحكم الفرس بمساعدة اليهود في معظم طرق التجارة البرية غربي الجزيرة العربية، وتعاضم دور اليهود الذين خدموا مصالح الفرس، بعد سيطرتهم على اليمن أثناء حكم السلالة الحميرية، رافقه سيطرة يهود الحجاز في يثرب وخيبر وفدك ومقنا ووادي القرى على مقاليد الأمور هناك.²

هذه السيطرة اليهودية والتحالف الفارسي اليهودي، جعل القبائل اليهودية وجها لوجه مع الإمبراطورية البيزنطية التي كانت في صراع عسكري استراتيجي على منطقة مرور القوافل من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط، وهو ما شكل تهديدا مستمرا للقبائل اليهودية وعلى تواجدتها داخل هذه الرقعة الجغرافية. إلا أن ظهور الإسلام كدين جديد في قريش وانتشاره داخل الجزيرة

¹ إسرائيل ولنفسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 18.

² خالدة عبد اللطيف حسن ياسين، موقف النبي صلى الله عليه وسلم من يهود الحجاز دراسة منهجية، ص: 60.

العربية شكل تحولاً جديداً ومهماً في اللعبة السياسية داخل هذه الرقعة، تغيرت فيها معالم الكثير من المجالات.

اعتبر ظهور الإسلام في منطقة الحجاز أمراً فارقاً سمي كل ما جاء قبله بما قبل الإسلام، وهذا يدل على الحدث التاريخي المهم الذي غير مجرى التاريخ بإذن الله سبحانه وتعالى، هذا الدين الجديد الذي اعتبرته القبائل اليهودية تهديداً حقيقياً لسيطرتهم الدينية والاقتصادية على منطقة الحجاز خاصة يثرب، حيث دعا فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بعالمية رسالته وبأنه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة والسلام انطلاقاً من الآية الكريمة قال تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"¹، قال الإمام الطبري في تفسيرها: "يقول تعالى ذكره: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لبلاغاً لمن عبد الله بما فيه من الفرائض التي فرضها الله إلى رضوانه، وإدراك الطلبة عنده يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي. ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، أجمع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟ فقال بعضهم: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر"².

ويضيف الإمام الزمخشري فيقول: "أرسل صلى الله عليه وسلم رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع. فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله: أن يفجر الله عيناً حديقة، فيسقي ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفروطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه، حيث حرماها ما ينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أن عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال"³.

¹ سورة الأنبياء، الآية: 106.

² الإمام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج. 18، ص: 550.

³ الإمام الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ج: 3، ص: 139.

واشتراك الإسلام مع اليهودية في مصدر الديانة كان سببا في بعث المكين رسائل للقبائل اليهودية حتى يجدوا عندهم ما يتغلبون به على محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه. أخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل: قالوا سلوه عن الروح. قال فسألوه عن الروح فأنزل الله: **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُعْطِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا فَلِيلًا**¹. ويفسر الإمام الطاهر بن عاشور هذه الآية بقوله: "وقع هذه الآية بين الآية التي معها يقتضي نظمه أو مرجع الضمير "يسألونك" هو مرجع الضمائر المتقدمة، فالسائلون عن الروح هم قريش. وقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى " ويسألونك عن الروح" وظاهر هذا أنهم سألوه عن الروح خاصة وأن الآية نزلت بسبب سؤالهم وحينئذ فلا إشكال في أفراد هذا السؤال في هذه الآية على هذه الرواية وبذلك يكون موقع هذه الآية بين الآيات التي قبلها والتي بعدها مسببا على نزولها بين نزول تلك الآيات"².

وبضيف الطاهر بن عاشور قوله: "وأما ما روي فيما رواه الإمام البخاري عن ابن مسعود أنه قال: بينما أنا مع النبي في حرث بالمدينة إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ويسألونك عن الروح" الآية. فالجمع بينه وبين حديث ابن عباس المتقدم: أن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم قد ظن النبي أنهم أقرب من قريش إلى فهم معنى الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين مما أجاب به قريشا. فكرر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنهم وقريشا سواء في

¹ سورة الإسراء، الآية: 85.

² الإمام الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج. 15.

العجز عن إدراك هذه الحقيقة أو أن الجواب لا يتغير¹ تفسير ابن عاشور يوضح لنا العلاقة بين القبائل العربية واليهود، والتحالفات القبلية بينهم، خاصة بعد مجيء الإسلام كدين جديد يهدد المنظومة الدينية، الاجتماعية، الاقتصادية... وغيرها.

ويرد الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره لهذا الآية فيقول: "للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة، روي أن اليهود قالوا لقريش اسألوا محمدا عن ثلاث فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي: اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام: غدا أخبركم ولم يقل إن شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يوما ثم نزل الوحي بعده: وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنَّنِي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ² ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى: و يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وبين أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.³

ويذكر ولنفسن التقاء النبي صلى الله عليه وسلم باليهود قبل دخوله إلى المدينة فيقول: يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتصل باليهود منذ حدوثه لا سيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة رضي الله عنها إذ كانت الأعمال التجارية في مدينة مكة مرتبطة ارتباطا شديدا بيهود يثرب وخيبر.⁴

وعالمية الرسالة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أدت إلى نشوء حوار بينه وبين الأقوام الأخرى فبدأ الحوار مع الديانات الأخرى عند دخوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ذلك نظرا لعدم وجود هاته الديانات في المجتمع المكي، لذا كانت بداية الدعوة حوارا بين

¹ المرجع السابق، ص: 196.

² سورة الكهف، الآية: 23.

³ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج: 9، ص: 391.

⁴ إسرائيل ولنفسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 94.

القبائل المكية الوثنية، وعند دخوله صلى الله عليه وسلم يثرب انتقل الخطاب والحوار من الوثنية وتثبيت عقيدة التوحيد إلى تصحيح العقيدة وإثبات رسالته صلى الله عليه كخاتم النبيين صلوات الله عليهم جميعا.

وبعد الهجرة النبوية للمدينة كان الالتقاء المباشر للإسلام بالديانات السماوية الأخرى لأن المجتمع المكي كان شبه خال من هاته الديانات عكس ما كان في المدينة، فدخوله صلى الله عليه وسلم جعل المدينة المنورة تنقسم إلى يهود ومشركين ثم أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما دعاه صلى الله عليه وسلم إلى فتح باب الحوار بين القبائل اليهودية، كقبيلة بني النضر، خيبر، بني قريظة...، وإرادته صلى الله عليه وسلم في تنظيم مجتمع المدينة لفطنته صلى الله عليه وسلم بما ستؤول له الأوضاع داخل مجتمع المدينة من مشاكل متعددة قد تنشأ نتيجة التوترات، كما لم يخف عليه أن صراعا عقديا ودوافع بشرية ستحدث بين المجموعات المختلفة التي أصبحت تعيش في وسط جغرافي واحد، تتجاذبها دوافع فيها تجانس تارة و تنافر أخرى، وحتى لا يتولد عن ذلك صراع فكري يثير الحقد فلا بد من توجيهات واضحة وقوانين محددة تمكن الأفراد والجماعات من معرفة حقوقهم وواجباتهم، لذلك وضع الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة تنظيمية كعقد سياسي، اجتماعي، تنظيمي.¹

قال الإمام الواقدي: "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وادعته اليهود كلها، وكتب بينه وبينها كتابا وألحق رسول الله كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانا..."².

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية الحوار بإنشاء تحالفات قوية داخل المدينة، وأيضا قدرة الحوار في التأثير على النفوس وفي هداية أصحابها إلى الإعراض عن تقليد الضالين

¹ محسن بن محمد عبد الناظر، حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، دار الدعوة للنشر والتوزيع، ط.1، لبنان، 1409هـ/ 1989م، ص:8.

² أحمد قائد الشعيبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، س:25، ع:110، وزارة الأوقاف والشؤون القطرية، قطر، 1426هـ، ص:47.

والمضلين، فلقد علمه ربه سبحانه عن طريق الوحي الجلي أن بعض الكافرين يتركون ملة آبائهم عندما يتبن لهم عن طريق الحوار صدق النبي المرسل إليهم.¹

وكانت العلاقة بين القبائل اليهودية والإسلام في بدايتها علاقة عقدية متينة من خلال الآيات التي نزلت في الفترة المكية والتي صرحت بوحدانية الرسالة، قال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ² يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "معنى شرع أوضح وبين لكم مسالك ما كلفكم به، وأصل "شرع" جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان فسمي الدين شريعة، فشرع هنا مستعار للتبيين كما في قوله "أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله" وتقدم في قوله تعالى "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا"³ في سورة العقود. والتعريف في الدين تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و"من" للتبويض. والتوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إقناعه والعمل به. و معنى كونه شرع للمسلمين من الدين ما وصى به نوحا أن الإسلام دين مثل ما أمر به نوحا وحضه عليه... فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامثال أمره واجتناب منهيه على العموم وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٢﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

¹ محسن بن محمد عبد الناظر، حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، ص: 14.

² سورة الشورى، الآية: 11.

³ سورة المائدة، الآية: 50.

الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَمِجِ الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى¹. وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريحه².

هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم، أكدت أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم هي امتداد للأديان السماوية السابقة وختامها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو امتداد لرسول الله وأنبياءه صلوات الله عليهم المذكورين في الكتب السابقة. في هذا إشارة لليهود الذي حاوروا النبي صلى الله عليه وسلم بما عندهم في كتابهم المقدس.

وحوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في مع يهود المدينة، ذكره ابن هشام في سيرته فقال: "وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفتدون عانيهم، بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛... وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم؛ وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم؛ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا؛ وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله؛ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه"³.

وكانت هذه المعاهدة بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود سببا في تمتع اليهود في هذه الفترة بسلام وأمن في المدينة المنورة، يشير ولفنسن لهذا الأمر فقال: وكان روح هذه المعاهدات

¹ سورة الأعلى، الآية: 14-15-16-17-18-19.

² الإمام الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج. 25، ص: 50.

³ ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 2، ص: 144.

ملائم كل الملائمة للحالة التي كان عليها المسلمون واليهود في الفترة الأولى بعد مجيء النبي "صلى الله عليه وسلم" إلى يثرب... فأراد أن يؤلف بين القلوب فأحل للمسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم "إِلْيَوْمَ أَهْلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَمِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" ¹ في تفسير الطاهر بن عاشور نجد قوله في هاته الآية: "والكلام عن الطيبات تقدم أنفاً، فأعيد ليبنى عليه قوله "وطعام الذين أوتوا الكتاب" وعطف جملة "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم" على جملة "اليوم أحل لكم الطيبات" لأجل من في هذه الرخصة من المنة لكثرة مخالطة المسلمين أهل الكتاب، فلو حرم الله عليهم طعامهم لشق ذلك عليهم.... وحكمة الرخصة في أهل الكتاب: لأنهم على دين إلهي يحرم الخبائث، ويتقي النجاسة، ولهم في شؤونهم أحكام مضبوطة متبعة لا تظن بهم مخالفتها، وهي مستندة للوحي الإلهي، بخلاف المشركين وعبداء الأوثان، ... ثم الطعام الشامل للذكاة إنما يعتبر طعاماً لهم إذا كانوا يستحلونه في دينهم، ويأكله أحبارهم وعلمائهم، ولو كان مما ذكر القرآن أنه حرمه عليهم، لأنهم قد تأولوا في دينهم تأويلات وهذا قول مالك". ²

يضيف ولفنسن ³ بقوله: كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين، ولكن اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل

¹ سورة المائدة، الآية: 5.

² الإمام الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج.6، ص: 121.

³ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 122.

والاحترام لتعاليم الرسول و لأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحكم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم، وبشرط ألا يكلفهم بالاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد أن ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسل وظهر الأنبياء سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم.¹

هذه القولة تشير إلى مظهر آخر بكون علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود، علاقة متذبذبة بين علاقة القبول من خلال اعتبار الديانة توحيدية وسماوية وأن نبيها "رسول من الله سبحانه" وهذا في مقابل الديانات الوثنية وعبداء الأصنام، وعلاقة رفض للدين الجديد باعتباره يمس بشكل مباشر مكانة الديانة اليهودية العقدية وسط القبائل العربية الوثنية، وأيضا يمس بشكل كبير المصالح الاقتصادية، السياسية والتجارية لهم.

ومن أمثلة الحوار مع اليهود في حكم الدولة الإسلامية، ما جاء من إنصاف لهم في وثيقة المدينة، وذلك بعدم التدخل في شؤونهم الداخلية، وأحوالهم الشخصية فيما يتعلق بالحكم والقضاء، وتركت لهم حرية الاختيار في الاحتكام إلى أهل ملتهم أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم. نتيجة لهذا التخيير تحاكم اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يتظالمون به في الدية، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم الشرف على قتلى بني قريظة، فإذا قتل قرظي نضري دفع الدية كاملة، وإذا قتل نضري قرظي دفع نصف الدية، وقد خير الله نبيه صلى الله عليه وسلم بين قبول الحكم فيهم أو ردهم إلى أحبارهم، قال تعالى " فَإِنْ جَاءُوكَ بِأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ¹ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ² وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً³ وَإِنْ حَكَمْتَ بِأَحْكُمْ

¹ المرجع السابق، ص: 122.

بَيْنَهُمْ بِالْفِئْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ¹ هذه الآية تدل على حوار وقع بينهم في إيفاد نفر منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتحكيم في شأن من شؤوهم مالت أهواؤهم إلى تغيير حكم التوراة فيه بالتأويل أو الكتمان، وأنكر عليهم منكرون أو كالبوهم بالاستظهار على تأويلهم فطمعوا أن يجدوا في تحكيم النبي صلى الله عليه وسلم ما يعتضدون به. وظاهر الشرط يقتضي أن الله أعلم رسوله باختلافهم في حكم حد الزنا، وبعزمهم على تحكيمه قبل أن يصل إليه المستفتون. وقد قال بذلك بعض المفسرين فتكون هذه الآية من دلائل النبوة. ويحتمل أن المراد: فإن جاؤوك مرة أخرى فاحكم بينهم أو أعرض عنهم. وقد خير الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في الحكم بينهم والإعراض عنهم. ووجه التخيير تعارض سببين؛ فسبب إقامة العدل يقتضي الحكم بينهم، وسبب معاملتهم بنقيض قصدتهم من الاختبار أو محاولة مصادفة الحكم لهواهم يقتضي الإعراض عنهم لئلا يعرض الحكم النبوي للاستخفاف. وكان ابتداء التخيير في لفظ الآية بالشق المقتضي أنه يحكم بينهم إشارة إلى أن الحكم بينهم أولى ويؤيده قوله بعد "وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين" أي بالحق.² فحكم بينهم رسول الله بحملهم على الحق في ذلك فجعل الدية سواء.³

ومن نماذج الحوار النبوي الشريف مع اليهود في بيعة العقبة الثانية عندما اتفق الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد الأنصار وأرادوا توثيق البيعة قام الهيثم بن التيهان، أحد شيوخ الخزرج، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه

¹ سورة المائدة، الآية: 44.

² الإمام الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج. 6، ص: 202-203.

³ أحمد قائد الشيعي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، ص: 58-59.

وسلم، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم"¹.

وشرح ابن هشام قول النبي صلى الله عليه وسلم "الهدم الهدم" يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم.²

وفي بيعة العقبة الثانية بدأ الحديث عن الجانب السياسي في حديثه صلى الله عليه وسلم في الأديان، فذكر بنودا سياسية تقتضي حماية المعاهدين لبعضهم البعض، والدخول في حلف بين القبائل التي دخلت في البيعة.

عند بدء تنظيم مجتمع المدينة الجديد وضع اليهود في مكان مناسب، في محاولة لهدايتهم وردهم إلى طريق الإسلام بمواعدهم ومعاهدتهم وإقرارهم على دينهم وأموالهم، ولم يطلب منهم أكثر من التزام جانب الحياد في غزواته على أن ينصروه إذا ماداهم المدينة عدو. يقول ابن إسحاق في هذا: "وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. و كان تاريخ هذه الموقعة بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بنحو خمسة أشهر. وقد جاء هذا الدستور في شكل كتاب أو صحيفة من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم وأنهم أمة واحدة من دون الناس. ولم يحمل هذا الدستور اليهود أعباء مالية أكثر مما قد نسميه ضريبة حماية ينفقونها مع المؤمنين ما داموا محاربين، واعتبرهم وهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"³.

فكان من أهم بنود هذه المعاهدة:

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص: 57.

² ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص: 90.

³ عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ط.1، جامعة الملك سعود، 1402هـ، 1982م، ص: 46.

- الدفاع المشترك: فقد جاء في المعاهدة وأن الله أتقى ما فيه هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم - أي المسلمون واليهود- النصر على من داهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- عدم الاعتداء وحسن الجوار: جاء في الصحيفة وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلى على نفسه، وأنه لا يحول هذا الكتاب- أي صك المعاهدة- دون ظالم أو آثم. وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم.

- حرية عقيدة الطرفين: وبهذا الشأن جاء في صلب المعاهدة وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو آثم فإنه لا يوقع - أي لا يهلك - إلا نفسه وأهل بيته، وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود عوف، وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف وأن لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف....¹

هذه الرحمة النبوية والعدل الرباني كان سببا في دخول عدد من اليهود للإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فرحمته صلى الله عليه وسلم وحلمه مع الأقوام بالمدينة دفعت بالباحثين عن الحق خاصة اليهود منهم، دفعتهم إلى القبول الأولي للدين الجديد من خلال ما سمعوه من آيات ورأوه من صفات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن بين أبرز هذه النماذج:

- عبد الله بن سلام: ابن الحارث، الإمام الخبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. حدّث عنه أبو

¹ علاء بكر، يهود أسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، ع: 24، ط. 1، 1430هـ/2009م، ص: 37.

هريرة، وسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، وعبد الله بن معقل، وعبد الله بن حنظلة بن الغسيل، وأبو بردة بن أبي موسى، وقيس بن عباد، وأبو سلمة ابن عبد الرحمن، وعطاء بن يسار، وزرارة بن أوفى، وآخرون. وهو ممن شهد فتح بيت المقدس، حسب الواقدي، قال محمد بن سعد: اسمه: الحصين، فغيره النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله، وقيل إنه أسلم وقت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقدمه. قال ابن سعد: هو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام وهو حليف القوافلة. قال عوف الأعرابي: حدثنا زرارة بن أوفى، عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس عليه، وكنت فيمن انجفل، فلما رأيته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته يقول: يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام¹ وروي حميد، عن أنس: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه إلى المدينة، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي. ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال: "أخبرني بهن جبريل آنفا" قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: "أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه، فإذا سبق ماء الرجل، نزع إليه الولد. وإذا سبق ماء المرأة، نزع إليها" قال: أشهد أنك رسول الله. وقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت؛ وإنهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني، فأرسل إليهم فسلهم عني. فأرسل إليهم. فقال: "أي رجل ابن سلام فيكم؟" قالوا: حبرنا وابن حبرنا؛ وعالمنا وابن عالمنا. قال: "أرايتم إن أسلم، تسلمون؟" قالوا: أعاذه الله من ذلك. قال فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا؛ وجاهلنا وابن جاهلنا. فقال: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت.²

¹ رواه الإمام أحمد في مسنده، 5-451. والترمذي، رقم: 2487، وابن ماجه، رقم: 1334

² شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج.2، ص: 414-415.

النموذج الثاني هو زيد بن سعدة، ويقال زيد بن سعية، والنون أكثر في هذا، كان من أحابار اليهود، أسلم وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، توفي في غزوة تبوك مقبلا إلى المدينة. روى عنه عبد الله بن سلام أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه غضبه، ولا يزيد شدة الجهل عليه إلا حلما فكنت أتلطف له لأن أخالطه، وأعرف حلمه وجهله، قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا، وقد أصابتهم سنة وشدة، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت. فلم يكن معه شيء، قال زيد: فدنوت منه فقلت: يا محمد إن رأيت أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا. فقال: "لا يا أخا يهود، ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمى حائط بني فلان" فقلت: نعم، فبايعني وأعطيته ثمانين دينارا، فأعطاه الرجل، قال زيد: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر، وعثمان في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضي يا محمد حقي؟ فوالله - ما علمتكم يا بني عبد المطلب - لسيء القضاء مطل. قال: فنظرت إلى عمر وعيناها تدوران في وجهه، ثم قال: أي عدو الله، أتقول على رسول الله ما أسمع. فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسفي رأسك. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر في سكون وتبسم، ثم قال: "يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج؛ أن تأمره بحسن الاقتضاء، وتأمرني بحسن القضاء، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا مكان ما روعته". قال زيد: فذهب عمر، فقضاني وزادني. فأسلمت.¹

¹ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، رقم: 1842، ص: 431.

وأفعاله صلى الله عليه وسلم تجاه مجتمع المدينة، كانت سببا في دخول العديد من اليهود إلى الإسلام، والذود عنه في مواجهة أتباع أديانهم السابقة، فكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم حوارا من نوع آخر نهجه عليه الصلاة والسلام.

ومن نماذج الصحابة ذوي الأصل اليهودي الذين دخلوا للإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، نجد الصحابي الجليل ميمون بن يامين، وقد روى سعيد بن جبير عنه فقال: جاء ميمون بن يامين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رأس اليهود بالمدينة، فأسلم وقال: يا رسول الله، اجعل بينك وبينهم حكما؛ فإنهم سيرضون بي، فبعث إليهم رسول الله فحضرُوا، وأدخله بيتا وقال: "اجعلوا بيني وبينكم حكما" فقالوا: رضينا بميمون بن يامين، فأخرجه إليهم، فقال لهم: أشهد أنه على الحق، وأنه رسول الله، فأبوا أن يصدقوا، فأنزل الله عز وجل: **قُلْ آرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَبَرْتُمْ بِهِ مَسَ آضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**^{1 2}

هذه نماذج ضمن عدة نماذج لمن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاورهم إما قولا أو فعلا، وهو ما يؤكد حلمه ورحمته صلى الله عليه وسلم. وعالمية الرسالة الإسلامية يثبتها ما كان في مجتمع المدينة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وما عاشه المسلمون مع اليهود من عدل، ورحمة، وإعطاء الحقوق لأصحابها. فكان أبرز ما تمتع به مجتمع المدينة هو حرية المعتقد داخل حصن الإسلام، والدفاع عن المتحالفين ونصرتهم.

¹ سورة فصلت، الآية: 51.

² ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة رقم: 5160، ص: 1177.

المبحث الثالث: الحوار مع أهل الديانة النصرانية.

كان حضور القبائل النصرانية في الحجاز أمرا اتفقت عليه جميع المصادر التاريخية، قبائل كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية مع باقي القبائل العربية في هذه المنطقة. وكان دخول النصرانية مبكرا إلى جزيرة العرب، ليبدأ التبشير بها ويروي بعض المؤرخين أن أول هجرة مسيحية بدأت عام 70م بعد تدمير أورشليم، ثم توالى الهجرات كلما حصل اضطهاد في فلسطين: هجرات نصرانية ويهودية، وهجرات مجموعات عقائدها مزيج بين اليهودية والنصرانية وجدت سبيلها إلى جزيرة العرب، وكانت هذه الهجرات نتيجة اضطهاد بيزنطة أو اختلاف معهم.¹

بالإضافة إلى هذا الهجرات هناك قبيلتان عربيتان مسيحتان مهمتان كان لهما دور كبير في نشر النصرانية في القبائل العربية الوثنية، هما المناذرة والغساسنة الذي بشروا في الجزيرة وبنوا أديرة على خطوط التجارة وفي المدن الحجازية، وأرسلوا رهبانا قاموا بعمليات التبشير.² وقد أثرت هذه الأديرة تأثيرا مهما في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية، حيث وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجئ يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب. وبقيت شهرة الأديرة بالخمور المعتقة قائمة حتى في أيام الإسلام. ومن خلال هؤلاء الرهبان وقيامهم بشعائهم الدينية عرف الضيوف شيئا عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر، وقد أشير إلى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي، وذكر عنهم أنهم كانوا يأخذون المصاييح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل.³

وقد توغل المبشرون في عمق أراضي الجزيرة العربية غير عابئين بالمصاعب والمشقات، ومنهم من رافق الأعراب وعاش في كنفهم في الخيام، فعرفوا بأساقفة الخيام، وأساقفة الوبر. وكان

¹ الأب سهيل قاشا، صفحات من تاريخ المسيحيين العرب قبل الإسلام، المكتبة البولسية، ط.1، 2005، ص: 41.

² المرجع السابق، ص: 41.

³ د.جواد علي، المسيحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات الشريف الرضي، د.ط، 1380هـ، ص: 588.

مطران بصرى يشرف على نحو عشرين أسقفا انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان، فكانوا يعيشون مع القبائل في البادية¹، فأصبح وجود الرهبان على طول القوافل التجارية وفي البوادي العربية أمرا شائعا، رغم أن هؤلاء الرهبان لم يستطيعوا دخول مكة نظرا لقوة الدين الوثني في تلك البقعة بخلاف باقي البطون، وأيضا كان وجود الكعبة كمحج للقبائل عاملا أساسيا في عدم استقرار الرهبان فيها. فجل من كان بمكة تجار نصارى تحالفوا اقتصاديا مع القبائل القرشية.

ومن بين أمثلة الوجود النصراني الموالي في مكة الذين تم بيعهم لتجار قريش فحافظوا على نصرانيتهم ودليلنا على ذلك ما ادعاه أهل مكة أن رجلا نصرانيا هو الذي يلقي محمدا "صلى الله عليه وسلم" القرآن قيل اسمه: سلمان الفارسي، أو يسار، أو جبر، أو يعيش، أو بلعام. وقد أشير إلى قول قريش هذا في الآية: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"² روى المفسرون أن اسمه جبر، قال: كان غلاما لعامر بن الحضرمي، وأنه كان قد قرأ التوراة والإنجيل، وكان الرسول يجلس إليه عند المروة فكانوا يقولون والله ما يعلم محمد كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام الحضرمي³.

فعاشت النصرانية في الجزيرة العربية علاقة شد وجذب بينها وبين القبائل العربية الوثنية نتيجة:

- ما أثارته النصرانية من قضايا لاهوتية لم تصل إلى أعماق الحياة العربية، ومن هنا كان الإنجيل من حيث أنه كتاب النصرانية ظل في الهامش بالنسبة للتفكير العربي الديني.

- قوة الحياة العربية التي تمتعت بقوة خارقة في مقاومة التبدل والتغيير، لذلك

لم يكن الإنجيل ليتحدى العرب ويثيرهم، فالشعور العربي كان يحتوي على عناصر الترابط

¹ محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، ط.1، 1430هـ/2009م، ص: 266.

² سورة النحل، الآية: 103.

³ إياد محمد إسماعيل أبو ربيع، المواقف والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين خلال فترة صدر الإسلام (40 ق.ب- 40هـ/570-660 م)، برنامج التاريخ العربي الإسلامي، د.ط، جامعة بيرزيت، 2013، ص: 31-32.

اجتماعيا وخلقيا ومثاليا لم يكن من اليسير اختراقه، خاصة أن الآراء الدينية التي حملتها النصرانية إلى العرب كانت بعيدة عن تصوراتهم الدينية.

- ربط العرب بين النصرانية والدولة البيزنطية، وعدوا من ثم قبول النصرانية معناه الولاء لبيزنطة، وهو أمر رفضوه.

- اختلفت مبادئ النصرانية عما ألف العرب الوثنيون¹.

بعد ظهور الإسلام دينا جديدا في المنطقة بدأت التغيرات الاستراتيجية للديانات المخالفة، والرغبة في السيطرة على طرق القوافل التجارية جعل الإسلام محط أنظار سكان الجزيرة العربية وأتباع الديانات، وهذا ما لم تحد عنه النصرانية كدين استقر في بطون الجزيرة العربية وله تحالفات مع قبائل قريشية ومع الساسانيين والبيزنطيين. فكانت مجمل علاقات الرسول بالنصارى سليمة لقلّة احتكاكه بهم، وكانت معظمها مراسلات ومعاهدات، استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم كسب النجاشي في إيواء المهاجرين إبان الفترة المكية، فتوثقت الصلات بينهما، وقد حاولت قريش بعد بدر "2هـ/624م" إغراء النجاشي لتسليمهم اللاجئين ليقوموا بمساومة الرسول صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر، غير أن النجاشي رفض طلبهم².

وكان هذا التحالف مع الملك النجاشي سببا في انتشار خبر الدين الجديد عند أتباع الدين النصراني في القبائل العربية مما أدى إلى طرح أسئلة داخل هذه القبائل وأتباعها النصارى خاصة عند سماعهم خبر بشرية عيسى التي ذكرها الدين الجديد. ومما ذكره المؤرخون أن وفدا من نصارى نجران وفد على المدينة لمقابلة الرسول "صلى الله عليه وسلم" وكان ذلك سنة "9هـ/631م" وكان فيهم ثلاثة رهبان من علمائهم، وقد استقبلهم الرسول صلى الله عليه وسلم ودارت بينهم مناظرة حول صفة المسيح عيسى بن مريم فهم يرون أنه ابن الله، والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد بشرية المسيح، فما زال الجدل بينهم حتى انتهوا إلى المباهلة؛ وهي الدعاء إلى الله

¹ محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 282-283.

² إياد محمد إسماعيل أبو ربيع، المواقف والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين خلال فترة صدر الإسلام "40ق.ب-40هـ/570-660م"، ص: 84.

برفع الأكف بأن يهلك المبطل منهما وينجي الحق. وهذا ما سيأتي شرحه لاحقا في حوارهِ صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران.

المطلب الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم وورقة بن نوفل.

لعل أول محطة تستوقف الباحث في تاريخ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين، الحوار الذي جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم وورقة بن نوفل، بعيد نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم بغار حراء¹.

أورد ابن هشام في كتاب السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحي، ذهبت زوجته خديجة، رضي الله عنها، إلى ورقة بن نوفل وكان ابن عمها، فأخبرته، فقال ورقة: "قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقلولي له: فليثبت"، فرجعت خديجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من اعتكافه ثانية من غار حراء صنع كما كان يصنع، فبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل، وهو يطوف، فقال: يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له ورقة: "والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى²

¹ هو ورقة بن نوفل بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كان واحدا من القرشيين الأربعة الذين فارقوا دين قريش، فأخذوا يقرأون الكتب ويجوبون الآفاق بحثا عن الدين الحق، فكان ورقة بن نوفل قد خرج إلى الشام فاعتنق المسيحية، وصار علما من أعلام أهل الكتاب في مكة المكرمة، أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه بأنه نبي هذه الأمة، ثم آمن به وصدقته، لكن العلماء اختلفوا في إثبات صحبته، توفي قبل أن يظهر النبي عليه الصلاة والسلام بدعوته. أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تميز الصحابة، ج.6، ص:474.

² ذكر ورقة بن نوفل سيدنا موسى عليه السلام ولم يذكر عيسى عليه السلام وهو الأقرب، لأن نزول جبريل على سيدنا موسى عليه السلام متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى عليه السلام فإن كثيرا من اليهود ينكرون نبوته. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج.1، ص:25.

ولتكذبه، ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله¹.

وفي رواية البخاري: "فانطلقت به خديجة - أي النبي صلى الله عليه وسلم - حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، رضي الله عنها، وكان امرؤًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب²، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن أدرك يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب³ ورقة أن توفي⁴.

لقد كان الحوار الأول بين النصرانية والإسلام نموذجًا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين أهل الأديان السماوية التي خرجت من مشكاة واحدة، ذلك لأن ورقة كان يقدر مسؤولية الشهادة بالحق بناء على العلم الذي وهبه الله إياه مثلما يقدر عقوبة كتمانها، فكان المصدق الأول للنبي صلى الله عليه وسلم، بل كان المهدى الثاني لروع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بعد خديجة، رضي الله عنها، والموضح لحقيقة الوحي الذي نزل على النبي عليه الصلاة والسلام، ثم صدق بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى الثبات على ما جاءه من الحق، وتمنى أن يعيش طويلا ليناصر الرسول صلى الله عليه وسلم⁵.

¹ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، م. 1، ص: 155.

² لأن ورقة بن نوفل كان عالما باللسان العبراني متمكنا منه، فكان يكتب به كما يكتب باللسان العربي. ابن حجر، فتح الباري، ج. 1، ص: 24.

³ لم ينشب: معناه لم يلبث، ابن منظور، لسان العرب، م. 1، ص: 757.

⁴ رواه الإمام البخاري في صحيحه، رقم: 3.

⁵ بسام عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص: 112.

كان من الأولى أن يكون ورقه قدوة للنصرانيين وغيرهم من أهل الكتاب، فيسيروا على نهجه، فهو من جهة لم يستكبر على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وإن لم يأتته داعيا بل مستفتيا، ولم تأنف نفسه التصديق والإيمان بنبوته صلى الله عليه وسلم، ومن جهة أخرى بين له حقيقة ما جاءه من غير تحريف ولا تزوير، فأكد له أن الله اختاره فأرسل إليه وحيه بواسطة الملك جبريل عليه السلام، كما أرسله سلفا إلى سيدنا موسى عليه السلام، ويزداد موقف ورقة جمالا عندما يعلن استعداداه لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم تثبيتا له وحملا له على الصبر وإعلاما له بما ينتظره من تكذيب قومه وإذائهم¹.

المطلب الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران.

نجران قرية عظيمة من قرى اليمن، دخلت إليها النصرانية قديما وتمكنت فيها قبل الإسلام، وكان أهل نجران متميزين عن باقي العرب، إذ كانوا أهل كتاب وعلم سالف، وثراء ونعمة واستقرار وحضارة تزيد على ما حولهم من المدن والقرى، ولهذا أفاضت المصادر التاريخية بذكر وفد نجران وما كان من شأنه مع النبي صلى الله عليه وسلم².

ومن خلال مجموعة من النصوص يتبين أن لأهل نجران ثلاث وفادات على الرسول صلى الله عليه وسلم، الأولى إلى مكة، والثانية والثالثة إلى المدينة المنورة.

- الوفادة الأولى:

قال ابن إسحاق: "ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، عشرون رجلا، أو قريبا من ذلك، من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، دار الفكر المعاصر، ط. 10، بيروت، 1411هـ/1991م، ص: 65.

² فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 104.

منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركبا أحق منكم، أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيرا"¹.

و لموقفهم ذاك من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله عز وجل في حقهم قوله جلت قدرته²: "الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ ءُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاَلَّوْا ءَامَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ۖ وَكَيْفَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ "³. والراجح أن أهل نجران وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة عندما سمعوا من أحوال المهاجرين المسلمين إلى الحبشة، وشرحهم عقيدتهم أمام النجاشي، وإكرامه لهم، ولربما جاؤوا بتوجيه من النجاشي نفسه، لما كان بينهما بحكم الحوار والاشتراك في العقيدة من أواصر، ونظرا لتبعية نصارى اليمن لملوك الحبشة النصارى⁴.

- الوفادة الثانية:

كان هذا اللقاء إثر الكتاب الذي وجهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام، ونصه: "بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله

¹ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، م.2، ص:30.

² سيد قطب، في ظلال القرآن، ص:2700.

³ سورة القصص، الآيات:52-55.

⁴ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص:106.

إلى أسقف نجران، وأهل نجران، إن أسلمتم فأني أحمد إليكم الله، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد، فأني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فأذنتكم بحرب والسلام¹.

فلما أتى الأسقف كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأه دعر دعرًا شديدًا، ثم بعث إلى رجال من أهل نجران يستشيرهم، فأخبروه جميعًا بما عندهم من علم عن وعد الله تعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام بالنبوة في ذريته، ثم جمع أهل نجران قاطبة فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألهم رأيهم، فأشاروا عليه بأن يبعث ثلاثة من خيرتهم ومن ذوي الرأي فيهم، فيأتوهم بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما قدم الوفد المدينة وضعوا ثياب سفرهم ولبسوا حللاً يجرونها وخواتيم من الذهب، فأعرض الرسول الكريم عنهم ولم يلقهم حتى تحللوا من زينتهم، فلما قابلوه سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى عليه السلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل: "إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"  الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ² تبين هذه الآية ما نشأ من

الأوهام عند النصارى عن وصف عيسى بأنه كلمة من الله، فضلوا بتوهم أنه ليس خالص الناسوت، وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليه عيسى، ورد مطاعنهم في الإسلام وهو أقطع دليل بطريق الإلزام؛ لأنهم قالوا بإلهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمة من الله وليس له أب فقالوا: هو ابن الله، فأراهم الله أن آدم أولى بأن يدعى له ذلك، فإذا لم يكن آدم إلهاً مع أنه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالخلوقية من آدم... والخطاب في "لا تكن من الممترين" للنبي

¹ البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، ج.5، دار الكتب العلمية، د.ط، 1985م/1405هـ، ص:385.

² سورة آل عمران، الآية: 58.

صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى.¹

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ² هذه الآية هي تفریع عن قوله سبحانه "الحق من ربك فلا
تكن من الممترين"، لما فيه من إيماء إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه
الآيات: أي فإن استمروا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى
المباهلة والملاعنة. ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك
من العلم وبيئت لهم، فلم يبق أوضح مما حاججتهم به فعلمت أنهم إنما يحاجونك عن مكابرة
وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا... ومعنى "فنجعل لعنة الله" فندع بإيقاع
اللعة على الكاذبين. وهذا الدعاء إلى المباهلة إلجاء لهم إلى أن يعترفوا بالحق أو يكفوا.

روى المفسرون وأهل السيرة أن وفد نجران لما دعاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
إلى الملاعنة قال لهم العاقب: فلاعنه فوالله لئن كان نبيئنا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا
فلم يجيبوا إلى المباهلة وعدلوا إلى المصالحة. والمباهلة لعلها من طرق التناصف عند النصارى
فدعاهم إليها النبي صلى الله عليه وسلم - لإقامة الحجة عليهم. والظاهر أن المراد بضمير المتكلم
المشارك أنه عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، والذين يحضرهم لذلك
وأبناء أهل الوفد ونسائهم اللائي كن معهم... والمراد هنا بدليل فرع عليه قوله: "فنجعل لعنة الله
على الكاذبين" وهذه دعوة إنصاف لا يدعوا لها إلا واثق بأنه على الحق. وهذه المباهلة لم تقع
لأن نصارى نجران لم يستجيبوا إليها. وقد روى أبو النعيم في الدلائل أن النبي هيا عليا وفاطمة

¹ الإمام الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج.3، آل عمران، ص: 266

² سورة آل عمران، الآية: 58-59.

وحسنا وحسينا ليصحبهم معه للمباهلة ولم يذكروا فيه إحضار نسائه ولا إحضار بعض المسلمين.¹

وعند الإمام البغوي في تفسيره لهذه الآية يقول : فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدا، فخلا بعضهم إلى بعض فقالوا للعاقب وكذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، والله ما لآعن قوم نبيا قد عاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فإن أبيتن إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول لهم: "إذا أنا دعوت فأمنوا" فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألو الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض منكم نصرائي إلى يوم القيامة، فقالوا يا أبا القاسم: قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أبيتن المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم" فأبوا فقال: "فإني أنا بذككم" فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكننا نصلحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألفا في صفر وألفا في رجب، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال: "والذي نفسي بيده إن العذاب قد تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولأضطرم عليهم الوادي نارا، ولا ستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم"².

¹ الإمام الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج.3، ص: 266.

² الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي معالم التنزيل، تحقيق: سليمان مسلم الحرش - عثمان جمعة خميرية - محمد عبد الله النمر، م.2، دار طيبة، ط.1، الرياض، 1409هـ/1989م، ج.2، آل عمران، ص: 48.

فلما أبوا أن يقرؤا بذلك دعاهم الرسول الكريم في اليوم الموالي إلى المباهلة، فرأوا أن ينزلوا عند حكم النبي عليه الصلاة والسلام فيهم خوفا من عواقبها، ثم كتب لهم كتابا أقرهم فيه على دينهم ومنحهم جوار الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن تحفظ مقدساتهم وأماكن عبادتهم، وفرض عليهم فيه الجزية¹.

- الوفادة الثالثة:

أما الوفادة الثالثة لوفد نجران على النبي صلى الله عليه وسلم فكانت بالمدينة المنورة في عام الوفود، فدخلوا المسجد وكانوا ستين راكبا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، وهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، والشمال بكسر التاء المشددة، وهو الملجأ والغياث، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وحبيرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأكرموا، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما حضرت صلاتهم قاموا فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أقاموا عند النبي عليه الصلاة والسلام يحاورونه ويسمعون ما ينزل عليه من الوحي².

ثم دعاهم الرسول إلى الإسلام فأبوا وطلبوا منه أن يقرهم على دينهم، وأن يبعث معهم رجلا من الصحابة ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من أموالهم، فوافقهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلبهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه³.

¹ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير البلاد، ج.4، ص:27-28.

² عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، م.2، ص:173.

³ رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: ما جاء في أهل نجران.

- كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عبيدة بن الجراح، م.2، حديث:3745، ص:586.

- النووي، رواه الإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، ج.15، ص:155، رقم:2419-2420، الإمام أحمد، المسند، ج.16، ص:609، رقم:23270.

وذكر ابن سعد في الطبقات أن السيد والعاقب لم يلبثا إلا يسيرا حتى رجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلما وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري¹.

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن قصة وفادة نصارى نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم حبلى بالدروس والفوائد التي توضح سبق الإسلام إلى الإقرار بمبدأ الحوار بين الأديان، ومن ذلك؛ جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله².

ويبدو ذلك واضحا جليا في سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، حيث كان يحاججهم ويحاورهم، ويعطيهم المدة الكافية للتأمل والنظر، والرد الهادئ الصحيح، حتى وصل بهم إلى المباهلة والدعاء المشترك بأن يقسم الله الكاذب المتكبر على الحق، وترك لهم مجال الاختيار بالجزية، بمقدار لا يشق عليهم ولا يثقل كاهلهم ولا يذل كرامتهم، وكتب لهم بذلك الكتب تقرهم على ما هم فيه، فيدخلون في نظام الدولة الإسلامية، مصانة أرواحهم وأبدانهم وذرياتهم وأموالهم، محفوظة لهم عقيدتهم، ويبقى أحبارهم ورهبانهم وساداتهم، كل واحد في مكانه ما قبله أهل ملته، ولم يخرج على العهد والميثاق بنقض أو خيانة³.

إن دراسة حوار النبي صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران تتيح تأصيلا واقعيا لمظاهر التسامح الديني في أجلى صوره وأدق تفاصيله، إذ سمح لهم الرسول الكريم بدخول المسجد النبوي وإقامة صلاتهم بطريقتهم دون منع أو إكراه، وهم يومئذ في موقف ضعف، والمسلمون في موقف قوة، ولم يخافوا على أنفسهم أو ممتلكاتهم، وهم يعلنون عقيدتهم وعبادتهم على الملأ في عاصمة الإسلام⁴.

¹ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج.1، ص:358.

² ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير البلاد، ج.4، ص:32.

³ بسام عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، ص:116-117.

⁴ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص:117.

المطلب الثالث: حوار النبي صلى الله عليه وسلم والعبد النصراني عداس¹.

جرى هذا الحوار عقب خروج النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ورفض أهلها الإيمان بدعوته، وإلحاقهم الأذى الشديد بشخصه الكريم، فأوى النبي عليه الصلاة والسلام إلى بستان لعقبة وشيبة ابني ربيعة، اللذين أعطيا عبدا لهما نصرانيا، اسمه عداس، قطفا من العنب ليقدمه للرسول صلى الله عليه وسلم، فأقبل إليه ووضع يده بين يديه، فمد الرسول الكريم يديه وقال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالوا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فقالوا: ويحك يا عداس! لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه².

وهي حادثة تظهر البساطة الفطرية التي طبعت حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع الفتى النصراني، وتجلي بوضوح ما كان عند النصارى الأوائل من الإنصاف في الاعتراف بالحق متى تبين.

وتتجلى آثار هذا الحوار في إيمان عداس بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ذكر الحافظ السهيلي أن عداسا لما أراد سيده الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال لهما: أقتال

¹ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج.4، ص:4.

² ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م.1، ص:554.

ذلك الرجل الذي رأيته بحائطكما تريدان، والله ما تقوم له الجبال، فقالا له: ويحك يا عداس، قد سحرك بلسانه¹.

وروي عنه أيضا أنه جلس يوم خروج قريش لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم، والناس يمرون عليه، فلما رأى شيبة مولاه وربيعه وثب وأخذ بأرجلهما وهو يقول: بأبي وأمي أنتما والله، إنه لرسول الله وما تساقان إلا إلى مصارعكما، ثم مر به العاص بن شيبة فوجده يبكي، فقال: مالك؟ فقال: يبكي سيداى وسيدا هذا الوادي، فيخرجان ويقاتلان رسول الله، فقال له العاص: إنه لرسول الله؟ فانتفض عداس انتفاضة شديدة، واقتشر جلده وبكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة².

المطلب الرابع: حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع عدي بن حاتم الطائي.

كان عدي بن حاتم الطائي من سادات وأشراف قبيلة طيء، ومساكنهم بين العراق والحجاز، وكان يدين بالنصرانية، وعندما وصلت جيوش النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلته، هرب بأهله إلى الشام، وخلف أخا له فأسرت، فلما قدموا بها المدينة، من عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإعتاق، ووصلها بنفقة، فأنت أخاها بالشام ونصحته بالقدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج عدي حتى قدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخله وسلم عليه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: من الرجل؟ "قال: عدي يحكي ما وقع" فقلت: عدي بن حاتم، فقام صلى الله عليه وسلم فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته فوقف لها طويلا، تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي، والله ما هذا بملك ثم مضى بي إلى بيته، حتى إذا دخله، تناول وسادة من آدم محشوة ليفا، فقذفها إلي، وقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت، فاجلس عليها، فقال: بل أنت. فجلست عليها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك، ثم

¹ الحافظ السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، م.1، ص:134-135.

² ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.4، ص:386.

قال: إيه يا عدي بن حاتم! ألم تكن ركوسيا¹، قلت: بلى، قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع²؟ قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك؟ قلت أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لعلك يا عدي، إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فو الله ليوشكن أن يفيض المال فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت لهم، قال عدي: فأسلمت³.

وبصور النص المذكور آنفا كيف يؤدي الحوار اللين الحكيم إلى قلب أفكار وقناعات، بل كيف تكون الأحكام المسبقة عن الشيء، دون معرفته وخبرته، حائلا بين الناس وبين حقيقة هذا الشيء، وتلك هي حال عدي بن حاتم، فقد هرب من الإسلام حفاظا على رئاسته وزعامته، وكان أبغض ما يبغض دين الله الإسلام، ووقعت أخته أسيرة ضعيفة لدى المسلمين، فعرف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لها قدرها ومكانتها في قومها ومكانة أهلها في العرب أجمعين، فهي ابنة حاتم الطائي التي انطلقت بذكر كرمه وشهامته الأخبار في بلاد العرب قاطبة، أطلقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسر دون شيء، وأكرمها وحملها وأعطاها النفقة، فانطلقت إلى أخيها لتأتي به من غير عهد ولا ميثاق، فأخذه المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى بيته، ليرى كل خطوة خطاها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وكل كلمة قالها، وكيف أثره

¹ الركوسية بفتح الراء: قوم لهم دين بين النصارى والصابئين. - محمد ابن منظور، لسان العرب، م.6، ص:101.

² المربع: أي ربع الغنيمة؛ كانوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضا وغنموا، أخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصا دون أصحابه،

وذلك الربع يسمى المربع - محمد بن منظور، لسان العرب، م.8، ص:101.

³ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، م.4، ص:153.

رسول الله في مجلسه، وكيف حاوره بأناة ورفق، فاقتنع وأعلن إسلامه، بعد أن كشف له الرسول كل ما كان يدور بخلفه من نظرة مادية دنيوية كانت حائلة بينه وبين الإيمان¹.

¹ فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص: 140.

الفصل الرابع:

الحوار النبوي في بناء المشترك والعمران الإنساني

المبحث الأول: القيم في الحوار النبوي لبناء المشترك الإنساني.

المبحث الثاني: مقاصد الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني.

المبحث الثالث: منهج الحوار النبوي وبناء العمران الإنساني.

المبحث الأول: القيم في الحوار النبوي من أجل بناء مشترك إنساني.

إن القرآن الكريم أكد على جدوى الحوار، ودعا إلى ممارسته في إطار سنة الاختلاف والتنوع المقررة في قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"¹، إذ في هذا الإطار تم فتح الدعوة إلى الحوار الذي يقر الاختلاف ويدعو إلى الحقيقة والتوحيد، قال تعالى: "فَلْ يَتَأْهِلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"².

ولقد أخلصت التربية النبوية لروح الحوار القرآني وسمته؛ نظرا لكونها التطبيق العملي والتنزيل الواقعي للمنهاج الذي رسم معالمه القرآن الكريم. فإذا كان القرآن قد أسس للحوار، بمختلف أبعاده، ودعا إليه وأعطى نماذج حية منه؛ فإن السنة النبوية قد واصلت هذه الدعوة وممارستها. وهكذا شكلت مواقف النبي صلى الله عليه وسلم الحوارية نماذج راقية للتواصل البشري. ومما زاد من سمو هذه الأساليب الحوارية وغناها حسن خلق النبي صلى الله عليه وسلم الذي زكاه المولى عز وجل في قوله: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"³.

¹ سورة هود، الآيتان: 118-119.

² سورة آل عمران، الآية: 64.

³ سورة القلم، الآية: 4.

ولهذا نجد أن الحوار النبوي اشتمل على عدة وظائف كما تم التطرق إليها في المباحث السابقة، غير أن هناك وظيفة أخرى معتبرة وهي وظيفة التأسيس للمشارك الإنساني من خلال التواصل مع الذات أو مع الآخر القريب المسلم، أو الآخر البعيد الغير المسلم، وغاية ذلك كله؛ عمارة الأرض، بالمعنى الواسع للعمران كما سنتناوله في ختام هذا الفصل.

سبقت الإشارة إلى مفهوم الحوار، لذا يتم التركيز هنا على دراسة مفهوم المشترك وعلاقته بالحوار مضمون هذا المبحث، من خلال طرح التساؤلات التالية:

- ما مفهوم المشترك الإنساني؟

- ما هي تحليلات الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني؟

- ما مقاصد الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني؟

هذه التساؤلات يمكن معالجتها من خلال مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم المشترك الإنساني.

اهتم الباحثون في السنوات الأخيرة بالمشارك الإنساني باعتباره مفهوماً يؤسس للتعایش السلمي بين أفراد المجتمع الواحد وبين مجتمع ومجتمع آخر، ويرجع هذا الاهتمام إلى الضرورة الآنية التي يمر منها العالم المتمثلة في كثرة الحروب، والتوجه الليبرالي الذي تؤطره نزعة السيطرة، هذه المعطيات أسهمت في ظهور إنتاجات فكرية، تقولُ بسيادة الحضارة الغربية على باقي الحضارات، وتروجُ لنظريات الصدام، في حين ظهرت إنتاجات أخرى تدعو إلى استحضر القيم الإنسانية الكونية التي تؤسس للتعایش والتعاون، وتضمن حق الاختلاف بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو اللغة.

كان المفكر الفرنسي روجي غارودي سباقاً إلى التقريب بين الحضارات، إذ خرج على العالم بنظريته الرائدة، الداعية إلى الجمع بين الحضارات على أساس أرضية مشتركة للتفاهم بين

الشعوب، ونظريته الموسومة بـ "حوار الحضارات"¹ تمتح من نظرية وحدة الأديان القائمة على مذهب الوجود لدى ابن عربي.

وعقب انخيار الاتحاد السوفياتي، بدأت نظريات أخرى بالظهور لتفسير كيفية تعامل القطب الأحادي مع العالم، ومن ذلك؛ نظرية "فوكوياما"²، وهي موسومة بـ "نهاية العالم"³، ومفادها تصوير الرأسمالية بأنها نهاية التاريخ على الأرض، وأن الإنسان الأمريكي هو مَنْ وصل إلى أقصى مستوى حضاري ممكن، وبالتالي فهي نظرية نهاية الإنسان والتاريخ في الآن نفسه. وهذه النظرية لم تعمّر طويلاً، إذ سرعان ما تداعت بالوتيرة نفسها التي انتشرت بها.

في أواخر صيف 1993م خرج المفكر الأمريكي هنتجتون⁴ بنظرية "صدام الحضارات"⁵، التي حاول فيها قراءة مستقبل العالم المعاصر، وقرّر أنّ الصراع المستقبلي سيكون بين الحضارات وليس صراعاً اقتصادياً أو إيديولوجياً. ثم حدّد سبع حضارات أساسية يُتوقع أن يلتهب بينها الصراع، ولا بد من زوال بعضها وخضوع البعض الآخر لهيمنة الأقوى، وقرّر في النهاية أن الحضارات المتوقعة لها الاستمرار هي ثلاث حضارات أساسية، وهي: الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية والحضارة الكونفوشيوسية، وحذّر العالم الغربي من مغبة قيام تحالف بين الحضارة الإسلامية ونظيرتها الكونفوشيوسية، في إشارة إلى إمكانية حدوث تحالف نووي بين الصين وبعض الدول الإسلامية.

¹ لمزيد من التفاصيل حول هذه النظرية، انظر: روجيه غارودي، من أجل حوار بين الحضارات، دار النفائس، لبنان، 2007؛ روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، عويدات للطباعة والنشر، 2003.

² أمريكي الجنسية، ياباني الأصل، ولد سنة 1952م.

³ فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة فؤاد شاهين وجميل قاسم ورضا الشابي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1993.

⁴ توفي سنة 2008.

⁵ صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي. والنظرية نشرها هنتجتون تحت عنوان "صدام الحضارات"، في صحيفة "الشؤون الخارجية"، صيف 1993.

في مقابل نظريات الصدام والصراع، نجد أن البديل الإنساني هو حوار الحضارات، وفي هذا السياق نثمن نظرية الأستاذ زكي الميلاد، الموسومة بـ "تعارف الحضارات"، وقد أوردتها كمخرج من إشكالية ثنائية الصدام/ الحوار، فاقترح التعارف كمرحلة انتقالية، تمتد خلالها جسور الثقة بين الحضارات قبل الانخراط في حوار فاعل وبناء، قال تعالى: "يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"¹.

ومن أهم النظريات الداعية إلى الحوار والتقريب بين الحضارات؛ نظرية "المشترك الإنساني"، التي جاء بها راغب السرجاني، باعتبار أن ما يوحد البشرية هو أكثر مما يفرقها، وأن جل المشتركات فطرية وليست وليدة تطورات العصر، حيث استعرض تجاربه الكثيرة مع فئات عريضة ومتنوعة من البشر، ثم قال: "خرجتُ من كل ذلك بأن البشر يشتركون مع بعضهم البعض في عدد يصعب حصره من المشتركات، فجمعتُ ما أستطيعه، ثم اجتهدتُ في تبويب هذه المشتركات تحت عناوين محدّدة تجمعها في أطر معروفة، ثم بدأتُ في تصنيف هذه المشتركات... ومن ثمّ خرجتُ بهذه النظرية التي أسميتها "المشترك الإنساني" "².

فما المقصود بالمشترك الإنساني؟

المشترك لغويًا :

يجمع الشريك على شركاء وأشراك، مثل شريف وشرفاء وأشراف. والمرأة شريكة، والنساء شرائك. وشاركت فلانا: صرت شريكه. واشتركنا وتشاركنا في كذا. وشركته في البيع

¹ سورة الحجرات، الآية 13.

² المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1، 1432هـ/2011م، ص 146.

والميراث أشركه شركة، والاسم الشرك...يقال رأيت فلانا مشتركاً، إذا كان يحدث نفسه كالمهموم¹.

المشترك اصطلاحاً:

تحدث علماءنا في أصولهم عن المشترك اصطلاحاً، لكنهم قيدوه "باللفظي"، وذكروا له حدوداً شتى، أهمها:

– قول الزبيدي في مقدمة تاج العروس: "إنه اللفظ الواحد الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السَّواء عند أهل تلك اللغة"².

– وقول زكريا بن محمد الأنصاري³: "ما وُضع لمعنيين فأكثر، كالقرء للطُّهر والحيض"⁴.

فالمشترك الإنساني هو ما بات اليوم يُعرف بالعلاقات الدولية، التي لم تعد مقتصرة على الدول المعترف بها، بل تعدَّتْها إلى المؤسسات، لا سيما المؤسسات الفاعلة دولياً، مثل: الفاو، اليونيسكو... وقد اتسع اليوم مفهوم العلاقات الدولية، وصار اتساعه يفتل في حبل المشترك الإنساني، حتَّى صرنا نتحدث عن العلاقات الشعبية، والدبلوماسية الشعبية.

استشرافاً لغدٍ يكون التمكينُ فيه لأمة الإسلام، ينبغي التأسيس لفقه المشترك الإنساني؛ فالمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء، وجميع الكتب، وبحرية العبادة، ولا إكراه في الدين... كل هذا

¹ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الناشر دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1407هـ / 1987م، ج: 4-6، (شرك)، ص: 1553.

² محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 2/1424هـ، ص: 59، المجلد: 40/1،

³ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى "823 - 926 هـ / 1420 - 1520 م"، شيخ الإسلام. قاض مفسر، من حفاظ الحديث، نشأ فقيراً معدماً.

⁴ زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيفة، تحقيق مازن المبارك، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط 1، 1411هـ / 1991، (المشترك)، ص 80.

على أساس مشتركٍ إنساني مفاده تكريم الله تعالى للإنسان، فديننا يفرض علينا إعطاء الحقوق حتى لغير المسلمين.

لذا نطمحُ إلى فقه المشترك الإنساني، وما نفهمه الآن هو فقه الاختلاف فحسب. ومن أهم المشتركات الإنسانية؛ الإصلاح وإحداث التغيير، سواء في ذلك الإصلاحات الماضية، أو الحاضرة، أو حتى التي لازالت مشاريع قيد التنظير. فالمشاريع الإصلاحية الجذرية عبر التاريخ، التي شملت مختلف المجالات "المجال الفكري، السياسي، الاقتصاد، والاجتماعي..." هي تلك التي حصلت على أيدي الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وآخرها المشروع الإصلاحي الشامل الذي قاده خاتم الأنبياء، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي تُوج بتأسيس عُمرانٍ إنساني امتدت حدوده الإدارية لتشمل ثلاث قارات في ظرف نصف قرن تقريباً.

المطلب الثاني: تجليات بناء الحوار النبوي للمشارك الإنساني.

لما كانت الإنسانية لها أصل واحد، وتعيش مستخلفة في أرض واحدة وتستنشق الهواء نفسه، وتعيش على الخيرات نفسها وتتقاسم المصالح والحاجيات ذاتها، ولما كانت تستشرف مستقبلاً متآخياً ينقلها إلى وضعٍ أحسن مما هي عليه، يخلصها من المظالم التي تطأها، ويؤسس لعالم التواصل والتعاطف والتآخي، فإن المطلوب من جميع الأطراف هو استيعاب القواسم المشتركة بين الأمم والشعوب والعمل على تنميتها والحفاظ عليها، وتنظيم الاختلاف المحيط بها. ومن أجل هذا المطلب كان الإسلام دعوة عالمية، وجاء الخطاب القرآني موجهاً للإنسان كيفما كان جنسه وزمانه ومكانه، وضربَ لنا الهدى النبويّ أسمى الأمثلة المؤصّلة لفقه المشترك الإنساني، المؤسّس على أرضية الحوار، ومن تجليات ذلك؛ حواراته صلى الله عليه وسلم لأصحاب الملل الأخرى، وعلى رأسهم النصارى، وهي حواراتٌ تؤصلُ لقيم التعايش والتعارف والسلام...

ومن أهم الأسباب التي تدعو إلى الاشتغال على موضوع الأديان، ما يلاحظ من تغييب لمساحة المشترك بين الرسالات السماوية في الأوساط الفكرية والثقافية والتركيز بدل ذلك

على الفروق العقديّة والشعائريّة وما يترتب على هذا المنهج من بث بذور التعصب والتفرقة الهادمة للوحدة والاحترام والتعارف الحضاري، وإننا إذ نبحت في هذا الموضوع بالذات، فإننا نتطلع إلى تأكيد تهاافت دعاوى الصراع والمواجهة التي يتبناها أصحاب الأفق الضيق، والأحكام المسبقة، في مقابل ذلك نضع القارئ والمهتم أمام اتساع مساحة المشترك بين الرسائل السماوية.

فما هو مفهوم القيم؟

وهل تمة نموذج واضح للحوارات النبوية المؤصلة لفقه المشترك الإنساني؟

وما هي أهم القيم التي تتجلى من خلال تلك الحوارات؟

مفهوم القيم لغة واصطلاحاً:

في اللغة:

القيمة واحدة القيم، وأصله الواو، لأنه يقوم مقام الشيء. يُقال: قومت السلعة. والاستقامة: الاعتدال. وقومت الشيء فهو قوم أي مستقيم. والقوام: العدل، قال تعالى: "وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَوَاقاً"¹. وقوام الرجل أيضاً: قامته وحسن طوله². والقائم في الملك: الحافظ له. والمقام والمقامة: المكان الذي تقيم فيه. وماء قائم: أي دائم. وما لفلان قمة: إذا لم يدم على الشيء³.

مما سبق يتضح أن مادة "قوم" استُعملت في اللغة لعدة معانٍ، منها:

- قيمة الشيء وثمنه.

¹ سورة الفرقان، الآية: 67.

² انظر الصحاح في اللغة، ج 2، ص 102.

³ انظر المحيط في اللغة، ج 2، ص 7.

- الاستقامة والاعتدال في نظام الأمر والعبادة.

- الثبات والدوام والاستمرار.

ولعل أقرب هذه المعاني لموضوع بحثنا هو الثبات والدوام والاستمرار على الشيء.

في الاصطلاح:

عُرفت القيم في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها أن القيم هي: "مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه"¹.

كما عرفت بأنها: "القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية وتختلف بها عن الحياة الحيوانية، كما تختلف الحضارات حسب تصورها لها"². وعموماً، يمكن القول إن القيم هي حكم يصدره الإنسان بالرجوع إلى مبادئ مع تحديد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك. فالقيم راجعة إلى الشرع القويم، مستمدة منه، من خلال مبادئ ومعايير يلتزمها الإنسان في حكمه على الأشياء.

حوارات نبوية مؤصلة لفقه المشترك الإنساني:

نحاول في هذه النقطة من البحث إخضاع الحوار الإسلامي المسيحي للمنطق القرآني الذي تمثله الرسول صلى الله عليه وسلم، قصد الوصول إلى المبادئ والأسس القمينة بنجاح أي حوار من هذا القبيل، وكشف اللثام عن المعوقات التي يجب تجاوزها للوصول إلى تحقيق التعارف الذي دعا إليه القرآن الكريم، التماساً للكلمة الحكيمة التي أوصى بها الحديث الشريف، وبيان مدى قصور نظر أصحاب نظريات العنف، وحتمية الصراع. وهذا لا محالة يشكل أرضية تمهد لرؤية صائبة لواقع العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب المعتقدات الأخرى، ومنهم

¹ عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط: 4، جدة، ج: 1، ص: 78.

² عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، الثقافة الإسلامية تخصصاً ومادة وقسماً علمياً، ط: 1، الرياض، 1417 هـ. 1996 م، ص: 14.

المسيحيون، على أمل عيش مشترك يحفظ كرامة وحقوق الإنسانية جمعاء، ويُؤسّس لعمرانٍ إنساني يُؤاخي بين قاطني الكرة الأرضية.

وإذا ما استقرأنا كتب الحديث، وجدناها حبلً بنماذج راقية لحوارات النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب، ولكننا سنكتفي هنا بإيراد نموذج واحد منها، وهو حوارُه لنصارى نجران¹، نورد نصه كاملاً ثم نقوم بدراسته، لاستخراج آداب وضوابط وسير الحوار... جاعلين نصب أعيننا توظيفه صلى الله عليه وسلم للمشارك الإنساني في إقناع الآخر.

نص الحوار:

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع قال: "إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أَلستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى. قال: أَلستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: أَلستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا. قال: أَلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، أَلستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: أَلستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما تغذي المرأة الصبي، ثم كان يأكل الطعام، ويشرب الشراب، ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً. فَأَنْزَلَ اللَّهُ "أَلَمْ يَلَهُ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ"².

¹ نجران اسم لمنطقة بالمملكة العربية السعودية، وتقع في جنوب غرب المملكة على الحدود مع اليمن.

² سورة آل عمران، الآية: 1

دراسة نص الحوار:

بعض مصادر نص الحوار:

وردَ هذا الحوار في عددٍ من المصادر، منها:

- ← السيرة النبوية لابن هشام، ج 2 ص 145.
- ← زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، ج 3 ص 25-26-27-28، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرئؤوط، مؤسسة الرسالة.
- ← تفسير القرآن العظيم لفخر الدين الرازي، ج 2، ص 471-472، دار المعرفة، بيروت.
- ← الكشف للزمخشري، ج 1، ص 381-382-383، دار إحياء العلوم، بيروت.
- ← الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 8، دار ابن كثير.
- ← الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج 2، ص 112، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ← السيرة الحلبية لعلّي برهان الحلبي، ج 3، ص 239، المطبعة المصرية، ط 1.

السياق التاريخي للحوار:

بعد غزوة تبوك التي أظهر الله تعالى فيها دينه وانتصر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام على جيوش الروم جاءت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية المختلفة لملاقاة الرسول صلى الله عليه

¹ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، فصل توضيح الدعوى والرد عليها، "قدوم الوفود على الرسول دليل على عموم".

وسلم ومجالسته ومحاورته¹ خصوصاً من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام، ومن تلك الوفود وفد نجران. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب كتاباً إلى "أبي حارثة" أسقف نجران، دعا فيه أهالي نجران إلى الإسلام، فتشاور أبو حارثة مع جماعة من قومه فال الأمر إلى إرسال وفد مؤلف من ستين رجلاً من كبار نجران وعلمائهم لمقابلة الرسول "صلى الله عليه وآله" والاحتجاج أو التفاوض معه، وما أن وصل الوفد إلى المدينة حتى جرى بين النبي وبينهم نقاش وحوار طويل.

قال ابن إسحاق: "وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران بالمدينة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يُصَلُّون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دَعُوهُمْ" فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم. وقد كان وفد نصارى نجران ستين راكباً منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب، أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم. وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات؛ لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم"².

¹ انظر الوفود التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عند: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن ابراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط 2، 1419هـ/ 1999م، ج 1، ص 179.

² ابن القيم، زاد المعاد: ج: 3، ص: 549.

طرفا الحوار:

الطرف الأول: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

الطرف الثاني: وفد نصارى نجران، يتقدمهم فريق الحوار المتكون من:

العاقب: أمير القوم وصاحب رأيهم ومشورتهم؛

الأيهم: ثمال القوم وصاحب رحلهم ومجتمعهم "التمال: الملجأ والغياث، الذي يقوم

بأمر قومه ويحميهم"؛

أبو الحارث بن علقمة: أسقف القوم وإمامهم وصاحب مدراسهم "الأسقف رجل دين

مسيحي فوق القس ودون المطران. والمطران: رئيس ديني عند النصارى فوق الأسقف ودون

البطريك. والبطريك: ج بطارك وبطاركة وبطاريك: يطلق على رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار

معينة أو طائفة من الطوائف " روما- الإسكندرية"، ودونه المطران".

موضوع الحوار:

تأسس الحوار الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران على مجموعة

من القضايا العقدية الكبرى، حيث ركز على توحيد الله عز وجل في العبادة، وعلى توحيدة في

أفعاله، ونفي الولد عنه، وعلى مخالفته للمخلوقات، وعلى بشرية عيسى عليه السلام، ومشابته

لآدم عليه السلام في الخلق من غير أب. وقد جادل كل طرف من أطراف الحوار في هذه القضايا

بما يعتقدونه من الحجج والبراهين.

منهج الحوار:

تميز أسلوب الحوار الذي جمع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونصارى نجران بعدة مميزات وضوابط، نجملها فيما يلي:

من طرف النبي صلى الله عليه وسلم "المنهج النبوي في الحوار":

أولاً - التركيز على القواسم المشتركة مع المخالف.

وهذا أدعى لقبول الحق، وقد اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبراز ذلك حيث ابتدأ كتابه إلى أهل نجران بقوله: بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد.

وليس يخفى ما في ذكر هؤلاء الأنبياء من إشعار للمخاطب بنوع من التواصل، وهذا بدوره يقرب النفوس النافرة، ودليل تأثير هذا الأسلوب ما جاء في قصة عدّاس النصراني لما سأله رسول الله عليه وسلم عن دينه وسأله عن البلاد التي جاء منها، وأجابه بأنه من نينوى، فمباشرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى"، فقال عدّاس: "وما يدريك ما يونس بن متى؟"، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ذاك أخي، وكان نبياً وأنا نبي"، فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، وأسلم على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما عاد إلى ابني ربيعة، وهما سيدها آنذاك قالوا له: "ويلك يا عداس! مالك تقبل هذا الرجل ويديه وقدميه؟" قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي".

يُستفاد من هذه النقطة أن البدء بالمشترك الإنساني من شأنه تأليف القلوب وتحييها لقبول صوت الحق حتى ولو صدرَ من أعدى الأعداء، فافتتاح الحوار مع المخالف عقدياً بالمشترك الإنساني سنة نبوية أصيلة، جسدتها حواراته صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: وضوح الهدف من الحوار:

وقد كان هذا الهدف واضحاً عند النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهو دعوة النصارى إلى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، المستحق للعبادة، لم يتخذ شريكة ولا ولداً، واحد في ذاته وصفاته وأفعاله وحكمه، بل إن هذا هو الهدف من جميع حواراته صلى الله عليه وسلم - مع غير المسلمين في عصره، ولهذا نقرأ قوله صلى الله عليه وسلم: "أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد".

ثالثاً: عدم إثارة الطرف الآخر أو الإساءة إليه أو إلى ما يعتقد.

فلا يوجد في حواراته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران شيء من ذلك سواء في كلماته، أو في أسئلته، لا يوجد ما يجرح مشاعرهم، أو يستثيرهم، لأن ذلك يجعلهم في نفرة من قبول الحق، وقد يتجرأ المخالف على الدين أو على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي سينحرف الحوار عن منهجه فيؤدي ذلك إلى قطع كل الحبائل التي يمكن أن تقرب بين وجهات النظر. وقد أمرنا الله تعالى بذلك فقال سبحانه: "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آثِمَةٍ غَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"¹

¹ سورة آل عمران 109.

رابعاً: مواجهة الطرف الآخر من خلال أفكاره:

وهذا منهج رائع في حوار - صلى الله عليه وسلم - مع النصارى حيث إنه أدانهم من أفواههم، وقد ظهر ذلك في الأسئلة التي وجهها إليهم:

ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟

ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

"ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟" قالوا: "بلى"، قال:

"فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟"

خامساً: الدعوة بالتي هي أحسن وعدم إكراه الآخر على الاستجابة:

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يُكره نصارى نجران على قبول دعوته ودخول الإسلام، مع أنه كان في موطن القوة والنصر من الله تعالى، عملاً بقوله تعالى: "لا إكراه في الدين". وعلى الرغم من تعنت الطرف المخالف، فإن ذلك لم يحمله صلى الله عليه وسلم على إجبارهم أو إكراههم، بل خيرهم، حين قال في كتابه إليهم بعد أن دعاهم إلى الإسلام: "فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام". وعندما التقى به وفدهم، دعاهم إلى الإسلام، وحاورهم، ولم يجبرهم على قبول ما دعاهم إليه. وهذا منهج أصيل، على المسلمين تبنيه في يوم قريب تكون السيادة فيه لهم على باقي الأمم.

سادساً: صدق القول وقوة الخطاب:

ويظهر ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم للمحاورين من نصارى نجران: أسلموا. فقالوا: أسلمنا قبلك. فقال لهم صلى الله عليه وسلم: كذبتُم. إنما منعكم من الإسلام أنكم تدعون الله ولداً، وتعبدون الصليب وتأكلون الخنزير....

سابعا: عدم الحوار إذا رأى التعاضم والتكبر.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى وفد نصارى نجران قد لبسوا الذهب والحرير، وصاحب ذلك الفخر والخيلاء والكبر والتعاضم فإنه لم يرد عليهم السلام، ولم يبدأ معهم في حوارٍ إلى أن خلعوا تلك الملابس وتروضت نفوسهم للحوار، فرد عليهم السلام وبدأ في الحديث معهم، لأن التكبر والتعاضم يمنعان من قبول الحق، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عنهم: "والذي بعثني بالحق نبياً لقد أتوني في المرة الأولى وإن إبليس معهم"، وفي هذا ملمحٌ لطيف، وهو أنه صلى الله عليه وسلم خاف عليهم من تلبس الشيطان ومن الكبر أن يصرفهم عن الحق، ففعل كل ذلك لمصلحتهم.

ثامنا: السماحة ولين الجانب.

لما قدم نصارى نجران المدينة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم فقاموا يصلّون في مسجده صلى الله عليه وسلم، فأراد الناس منعهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "دعُوهم". فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم. وهنا يبرز جانب السماحة منه صلى الله عليه وسلم، وجانب الرفق والتلطف مع المخالف، ولو تأملنا هذا الفعل منه صلى الله عليه وسلم لوجدنا الدلالات الآتية:

أ- أنهم نصارى، يقولون بالتثليث، ويعبدون الصليب، ومع ذلك يأذن لهم بدخول المسجد النبوي الشريف.

ب- قيامهم بتأدية صلاتهم في مسجده عليه الصلاة والسلام، مع أنها تخالف صلاة المسلمين.

ت- استقباهم للمشرق، وهذا فيه مخالفة لقبلة المسلمين.

ولا شك أن فعله - صلى الله عليه وسلم - ذلك هو من التسامح الداعي إلى ترغيبهم في قبول الحق وتأليف القلوب.

وذلك التسامح واللين نجده أيضاً في تعامله - صلى الله عليه وسلم - مع عدي بن حاتم الطائي حينما استقبله وأخذ بيده، واستضافه في منزله، وأكرمه حينما قدّم له وسادة وأجلسه عليها، وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الأرض، يقول عدي - رضي الله عنه - : "فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك"، وعدي آنذاك مخالف لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دينه، ويدين بدين باطل، ومع ذلك يتبسط معه - صلى الله عليه وسلم - في الكلام والحوار ويلاطفه، بل ويمسك بيده، ويدخله في بيته، ويحاوره بكل أدب ورفق، والنتيجة؛ ختام الحوار بإسلام عدي رضي الله عنه، هذا هو المنهج الحوارى النبوي في هداية الخلق، الذي ينبغي استحضاره في التعامل مع المخلفين، سواء من كان منهم داخل دائرة الأمة الإسلامية أو من كان خارجها.

تاسعا: الرحمة والرفق والشفقة على المخالف:

إن وفد نجران لما التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد الحوار الذي حدث بينهم وبعد أن تبين الحق، وتمت الإجابة على أسئلتهم، ونزل بذلك القرآن، أبوا أن يُقرّوا بذلك، وأرادوا الملاءنة، وهي المباهلة التي وردت في قوله تعالى من سورة آل عمران: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَلْيُنَادِ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ" ¹

¹ سورة آل عمران، الآية: 60.

من طرف نصارى نجران:

ما ميّز منهج الحوار لدى نصارى نجران، هو:

أولاً: الاستجابة لدعوة المحاور "الرسول صلى الله عليه وسلم" وقُدومهم إلى المدينة المنورة لملاقاته.

ثانياً: حسن الإنصات.

ثالثاً: حسن الرد.

رابعاً: الجواب المقتضب: "نعم - لا".

خامساً: عدم القدرة على مجارة النبي صلى الله عليه وسلم في أدلته وحججه.

عوائق الحوار لدى وفد نصارى نجران:

لم يستجب نصارى نجران لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم رغم إفحامه لهم، وذلك ناتج عن عوائق عدّة، ومنها:

أولاً: التكبر.

روى ابن إسحاق عن أبي عبد الله الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده، قال يونس وكان نصرانياً فأسلم: إِنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران: "بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد. فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتُم فالجزية، فإن أبيتُم فقد آذنتكم بحرب، والسلام".... فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللاً لهم يجرونها من الحبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يُكلمهم، وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان،

وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهم، كانا يخرجان العير في الجاهلية إلى نجران، فيشتري لهما من برها وثمرها وذرتها، فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا: يا عثمان، ويا عبد الرحمن؛ إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد علينا سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً، فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أنعود؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم يأتوا إليه، ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلموا عليه، فرد سلامهم، ثم سألهم وسألوه".¹

ثانياً: الجحود وعدم الإذعان للحق:

روى ابن إسحاق: فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره إذ عثرت بغلة أبي حارثة فقال له كرز: تعس الأبعد! يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه النبي الأمي الذي كنا ننتظره. فقال له كرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى!! فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك".²

ثالثاً: حب الرياسة:

في الخبر السالف الذكر، قال كرز لأبي حارثة: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى!!.

¹ زاد المعاد: ج: 3، ص: 351.

² نفس المرجع، ص: 550.

أهم القيم التي تتجلى من خلال حوار النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران:

من خلال نص الحوار النبوي مع نصارى نجران، يمكن تسجيل جملة من القيم، منها ما هو إيجابي، ومنها قيمٌ سلبية صدرت عن نصارى نجران، وعموماً، يمكن إيجاز تلك القيم فيما يلي:

قيمة الصدق: وتتجلى هاته القيمة في صدق لهجة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدقه في إرادة الخير لوفد نجران، كما تتجلى في وضوح نواه صلى الله عليه وسلم. ومن جانب نصارى نجران؛ أقر بعضهم بصدق نبوة رسوله الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا الاعتراف الداخلي لم يُترجم إلى موقف عملي يُدعن للحق.

قيمة الأخلاق: الإقرار بسمو أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم.

قيمة عدم الإذعان للحق: وهي قيمة سلبية، تمثلت في عدم دخول وفد نجران في الإسلام وتشبثهم بمعتقداتهم رغم ظهور بطلانها.

قيمة الرضوخ للأمر الواقع: وذلك عند موادة الوفد للرسول صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمه وقبولهم للجزية.

قيمة الأمانة، والحكم بالعدل: وهما قيمتان مركبتان؛ الأولى تدرج ضمن مجموع قيم التزكية، والثانية ضمن مجموع العمران¹، ذلك أن نصارى نجران طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم من يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه: روى البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن مسعود، أن السيد والعاقب أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يلاعنها، فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فو الله إن كان نبيا فلاعنته لا نفلح نحن ولا عقبننا من بعدنا، قالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلا أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال رسول الله صلى الله

¹ بخصوص هذا التقسيم للقيم، انظر: فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات الأمريكية المتحدة، ط 1، 1434هـ/ 2013م.

عليه وسلم: "الأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين"، فاستشرف لها أصحابه، فقال: "قم يا أبا عبيدة بن الجراح" فلما قام، قال: "هذا أمين هذه الأمة"¹.

وانظر كيف أنّ قيمة التزكية هنا جاءت خادمة لقيمة العمران، وهذا مثال للعلاقات المستعرضة بين القيم.

قيمة اتباع الحق متى ظهر: وذلك ما يتّضح من خلال إسلام كرز بن علقمة، وكان قد تيقّن من صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد حوار مع أبي حارثة.

قيمة الحرية: ومثالها في نص الحوار؛ إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لحرية العبادة: روى ابن إسحاق: "... وإنّ الأسقف أبا الحارثة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه السيّد والعاقب ووجوه قومه، وأقاموا عنده يستمعون ما ينزل الله عليه، فكتب للأسقف هذا الكتاب وللأساقفة بنجران بعده: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم، ورهبانهم، وأهل بيعهم، ورقيقهم، وملتهم، وسوقتهم، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهناته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليهم، غير منقلبين بظالم، ولا ظالمين"².

قيمة التعايش: تتمثّل هاته القيمة في استمرار سبل التواصل والتعايش بين نصارى نجران والرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده.

إن النبي صلى الله عليه وسلم من خلال حوار مع نصارى نجران، ومع النصارى عموماً، قد رسم للأمة من بعده منهجاً واضحاً في كيفية محاورة أهل الكتاب، وهو منهجٌ فريد سار عليه وتمثله الصحابة رضوان الله عليهم في محاورة أهل الكتاب من النصارى واليهود، وهو نبراس لجميع المسلمين في مختلف الأزمنة والأمكنة يربطون من خلاله جسور التواصل والتآخي مع مخالفينهم.

¹ زاد المعاد، ج: 3، ص: 353.

² المصدر نفسه: ج: 3، ص: 356.

وبناء عليه، لا يمكن التطلع في عصرنا الحالي إلى آفاق إيجابية للحوار النصراني الإسلامي/ الإسلامي النصراني إلا بتوفر مجموعة من الشروط والمقومات المهمة، من بينها:

أولاً: الإرادة الحقيقية للحوار بين الطرفين، والاقتناع بجدواه.

ثانياً: التركيز على القواسم المشتركة بين الرسالتين، خصوصاً وأن مصدرهما واحد ويخرجان من مشكاة واحدة؛ لترغيب المخالف في قبول الحق، مع اعتماد مبدأ الإقناع أكثر من الإفهام.

ثالثاً: الانطلاق من أرضية مشتركة يتساوى فيها الطرفان على مستوى الحقوق الإنسانية العامة، بغض النظر عن الخلافات أو الاختلافات الدينية والعرقية وغيرها، فالأقليات المسلمة في ديار الغرب المسيحي على سبيل المثال لا تزال تعاني الكثير من المحاربة والمقاومة في أبسط خصوصياتها الدينية، مثل قضية الحجاب والتعليم في المدارس والجامعات، كما أن بعض الجامعات في الغرب تحظر على الطلاب المسلمين بعض الاختصاصات العلمية، ومؤسسات الدولة تحظر على المسلمين بعض الوظائف وتقصرها على المسيحيين من أبناء البلاد الأصليين!.

رابعاً: أن يكون للحوار الإسلامي النصراني أهداف واضحة ومحددة، تركز عليها أطراف الحوار بعيداً عن الملاسنة والنقاشات الجانبية التي لا تفضي إلى نتائج. وأسمى هذه الأهداف؛ تقوية فاعلية الدين، وتعميق تأثيره الروحي لتحقيق تماسك الأسرة والمجتمع، وعدم إهمال الجوانب الإنسانية، وإعادة القيم والفضائل الغائبة كحق الإنسان في العيش الكريم وسائر الحقوق التي تضمن آدميته وإنسانيته.

خامساً: ينبغي أن يتصدى للحوار الإسلامي المسيحي من تتوفر فيه شروط الحوار والمناظرة من الطرفين، كالعلم الواسع بالمواضيع المتحاوَر حولها، والاتصاف بالاعتزان، والبعد عن التعصب والتطرف، والاقتناع بشساعة المساحات المشتركة بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي.

سادساً: المعرفة العميقة لكل طرفٍ بالطرف الآخر شرطٌ أساسي لنجاح الحوار.

سابعاً: قابلية كل طرف للإذعان للحق، متى ظهر وثبت له بالحجة والبرهان صحة رأي الطرف المخالف، بعيداً عن المكابرة والجحود.

ثامناً: التأدب بآداب الحوار، من خلال تقريب الحق إلى المحاور، واحترام قوله، وعدم تسفيهه، والتَّحَلِّي بالسماحة ولين الجانب مع المخالف، وعدم إيذائه أو جرح شعوره.

تاسعاً: عدم توظيف الخلافات الإسلامية المسيحية لخدمة الأجندات السياسية أو الاقتصادية أو العرقية.

عاشراً: إعادة النظر في بعض المصطلحات التي سَيَّجت علاقة الأمة الإسلامية بالعالم النصراني، والتي ظهرت في سياقٍ معين من طرف أشخاص محددين، باعتبارها شكلت اجتهداً بشرياً مطروفاً بزمان ومكان معينين، وذلك من قبيل مصطلح دار الكفر في مقابل دار الإسلام، ومفهوم الحصانة الجغرافية للعقيدة الدينية... حيث إنّ تطورات العصر المتغيرة تستدعي الاجتهاد لعصرنا كما اجتهد مبتكرو تلك المصطلحات لزمانهم، ووضع مصطلحات جديدة على ضوء المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية.

أحد عشر: فتح حوارات داخلية بين مختلف مكونات المجتمعات الإسلامية، نبذاً للخلافات وتوحيداً للتصورات حول العديد من القضايا، إذ كيف يحاور الطرف المسلم غيره حول مواضيع وقضايا لم يحسم الخلاف حولها مع فرقته ومذاهبه، وهذا ما يفسر الحوارات الفردية غير المؤسسية من الطرف المسلم مع الطرف النصراني في الكثير من المؤتمرات والمحافل الحوارية. والأمر نفسه يطلب من المكونات النصرانية.

وبمناسبة الحديث عن القيم، يعرض لنا سؤال على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، وهو: ما الذي يُؤهل الأمة الإسلامية لتكون ذات قيمة؟

مما يؤسف له اليوم؛ أن الأمة الإسلامية منحطة، وبعد إمعان النظر نخلص، دون كبير عناء، إلى تدخل عوامل متعددة في تلك النتيجة، بعضها يرتبط بأطراف خارجية، وبعضها الآخر

داخلي، ينخر جسم الأمة من الداخل. وليس مرد ذلك الانحطاط إلى قلة الإمكانيات المادية أو الكفاءات البشرية، وإنما سببه وجود قيمتين سلبيتين، هما: سوء التدبير وكثرة التبذير. وهذا السبب هو في الوقت نفسه نتيجة لانسلاخ الأمة من قيمتها الأساسية، وهي الدين الإسلامي، يقول تعالى: "قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم"¹.

لن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بتبني إصلاح شامل، يتخذ سكتين متوازيتين، هما: إصلاح فكري، وإصلاح تربوية. ومدخل الإصلاح ليس سوى الفرد نفسه، بالعمل على تزكية النفس مما يديسيها، قال تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"².

إن من شأن تمثل هاته النماذج الحوارية النبوية أن ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل أو تجارة... ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، على أساس المشترك الإنساني، تلك الأرضية التي تذوب فيها الأجناس والألوان، ويتلاشى فيها الزمان والمكان. وليست دعوتنا لاتخاذ المشترك الإنساني أرضية صلبة للحوار من باب إقناع الغرب الأقوى اليوم بالجلوس معنا إلى طاولة الحوار، بل إنها دعوة راسخة تصدر عن قناعة تامة بضرورة الحوار وحسن الجوار، لما في ذلك من عائد نفعي على الكرة الأرضية حالا ومآلا. ولئن كُتب للمسلمين التمكين في غدٍ نراه قريبا، فإن من أكد مهامهم وأولى أولوياتهم؛ رعاية حوار الثقافات والحضارات والديانات... على أرضية المشتركات، وما أكثرها، تأسيسا وتجييدا للمنهج النبوي، يقول سيد قطب رحمه الله: وإن بعضهم ليفتري على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين. فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفا كل ما قاله فيهم وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكّي عليه³.

¹ سورة الفرقان: الآية 77.

² سورة الرعد: الآية 11.

³ يقصد قوله تعالى: "ولا تحادلوأهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"، سورة العنكبوت، الآية: 46.

⁴ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 17، 1412 هـ، ج 5، ص 2745.

المبحث الثاني: مقاصد الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني.

منذ أن أحس علماء المسلمين بعد الصدر الأول بوقوع الفصام بين تعاليم الإسلام وواقع المسلمين، وجهودُ العلماء متصلة لرتق الفتق وإعادة الاتصال الوثيق بين الإسلام من جهة والمسلمين من جهة أخرى، حتى يعودوا مصاحف تمشي على الأرض كما كان الرعيل الأول. ومن أبرز وسائل العلماء في تحقيق ذلك؛ العناية بمقاصد الشريعة، ببيان وظائفها، والحديث عن فوائد تنزيلها على الواقع¹.

ويذهب الدكتور الريسوني إلى أن الاهتمام المتزايد بمقاصد الشريعة بدأ بنشر كتابي الشاطبي: "الموافقات" و"الاعتصام"، والإقبال عليهما والترويج لهما ولمضامينهما، إلى أن أصبحت مقاصد الشريعة مادة دراسية مستقلة في عدد من الجامعات في العالم الإسلامي، واليوم يمكن الحديث عن "صحوة مقاصدية"².

معلوم أن المقصد من التشريع الإسلامي هو: تحقيق مصالح الناس في الدارين "الدنيا والآخرة"، وجلب المصالح ودفع المفاسد، وتحقيق عبودية الله تعالى.

فما هو مفهوم المقاصد؟

وما هي أهم مقاصد الحوار النبوي المؤسّسة للمشترك الإنساني؟

¹ طه جابر العلواني، تقديمه لكتاب: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للدكتور أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، ط 3، 1430هـ/ 2009م، الصفحة الأولى من من مقدمة المعهد.

² أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، مطبعة النجاح الجديدة، 1999، ص 7.

مفهوم المقاصد:

المقاصد لغة:

جاء عند ابن فارس: "قصد" القاف والصاد والdal أصول ثلاثة: يدل أحدها على إتيان شيء وأمه. والأصل الآخر: قصدت الشيء كسرتة. والقصد: القطعة من الشيء إذا تكسر، والجمع قصد.

والأصل الثالث: الناقة القصيد: المكتنزة الممتلئة لحما¹.

وجاء في لسان العرب لابن منظور:

القصْدُ: استقامة الطريق. وطريق قاصد: سهل مستقيم.

والقصْدُ: العدل.

والقصْدُ: الاعتماد والأَم، والقصْدُ: إتيان الشيء، وقصدت قصده: نحوْتُ نحوه...².

وخلاصة القول: إن القصْدَ هو العزم على الشيء والتوجه نحوه.

المقاصد اصطلاحاً:

لم يحرص شيخ المقاصد؛ أبو إسحاق الشاطبي، على إعطاء تعريفٍ للمقاصد، ذلك أنه وجه كتابه "الموافقات" للراسخين في علوم الشريعة. وكذلك الأمر بالنسبة للأصوليين وغيرهم من العلماء الذين تعرضوا لذكر المقاصد قديماً³.

¹ ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1979م، (قصد"، ج 5، ص 95.

² ابن منظور (ت 711هـ"، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (قصد"، ج 3، ص 353-357.

³ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص: 5.

ولعل من أبرز العلماء المتأخرين الذين اهتموا بتعريف مقاصد الشريعة، نجد العلامة
علال الفاسي، الذي عرفها بقوله: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها
الشارع عند كل حكم من أحكامها"¹. والملاحظ أن الأستاذ علال فاسي قد جمع في تعريفه بين
المقاصد العامة والخاصة للشريعة، كما نسجل دوران جل التعريفات المعاصرة للمقاصد في فلك
هذا التعريف، ومعه تعريف الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية. وبناء
على تعريف هذين العلمين البارزين، يمكن القول مع الدكتور الريسوي: إن مقاصد الشريعة هي
الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد.²

وخلاصة القول إن هذه التعريفات في جملتها تجعل المقاصد تمثل مراد الله في أحكامه
وتشريعاته مما فيه مصلحة للمكلفين في المعاش والمعاد.

مقاصد الحوار النبوي المؤسسة للمشارك الإنساني:

إن مما تلتقي عليه الأمم والشعوب؛ "حقوق الإنسان"، بغض النظر عما يُضاف
لإنسانية الإنسان من انتماء ديني أو عرقي أو لغوي أو جغرافي... فما يجمع بين الناس أكثر
بكثير مما يفرق بينهم، بدء بوحدة الإنسانية، متجسدة في وحدة الخلق، ثم وحدة الأبوة في آدم
عليه السلام، قال تعالى: "أياها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها
زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم
رقيبا"³. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن
أباكم واحد"⁴. وهذا هو نفسه ما يقول به العهد القديم "التوراة"، حيث نقرأ: "وجبل الرب الإله

¹ علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها، الناشر مؤسسة علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط 5، 1993، ص 7.

² نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص: 7.

³ سورة النساء: الآية 1.

⁴ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: 3700.

آدم ثراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية...¹، ثم تفصلُ التوراة في كون الله تعالى خلق حواء من آدم، ثم أنجبا ذرية كثيرة.

فالبشرية إذن تتحد في الخلق من تراب، ثم توحدُها الأبوة الآدمية، فلم الحروب والصراع بين الشعوب والأمم ما دمنا كلنا إخوة؟

مقصد حفظ الدين:

يتصل هذا المقصد بضمان حرية التعبد بالتوافق مع النص القرآني الموجه، في قوله تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"². وفي هذا إشارة إلى مشترك إنساني آخر، لا يقل أهمية عن وحدة الإنسانية، وهو وحدة النبوة في الدعوة إلى معرفة الله تعالى والإحسان إلى الخلق والسعي بالخير، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، مع العلم أن "الإسلام" هو الدين الجامع³، وهو ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وملة جميع المرسلين، فإنه ما من نبي ولا رسول إلا ودعا قومه إلى الإسلام، قال الله تعالى: "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"⁴.

والرسالات السماوية كلها تدعو إلى الاعتصام بالله وإقامة الدين توحيداً لله وعدلاً بين عباده، وتنبذ الطغيان والكفر والشرك والغفلة والظلم. والاعتصام بالله يؤهل الفرد والجماعة للحياة

¹ العهد القديم العبري، ترجمة بولس الفغالي وأنطوان عوكر، الجامعة الأنطونية، ط 1، 2007، سفر التكوين، 2-7.

² سورة البقرة، الآية، 255.

³ قال تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ". سورة آل عمران، الآية 19.

⁴ سورة الحج، الآية، 78.

الطيبة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى: "وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَغَدٌ هُدًى إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ¹.

بهذه الرؤية المستقبلية يستشرف الفكر الإسلامي أفق السلام العالمي، الذي يؤاخي بين الإنسانية ويُنهضها للقيام بواجبها الوجودي والمعرفي والسياسي والأخلاقي.

السؤال المطروح هو: هل مفهوم مقصد حفظ الدين في أصله ارتبط بالشرعية الإسلامية أم يمكن تعديته إلى الديانات الأخرى؟

ولقد أُسِّست الحوارات النبوية لمقصد حفظ الدين، حتى مع غير المسلمين، ومن أمثلة ذلك حواراه عليه الصلاة والسلام مع النصارى واليهود، وفي هذا الصدد يمكن أن نسوق الحوارات النبوية التالية:

- حوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، وعندما التقي به وفداهم، دعاهم إلى الإسلام، وحاورهم، ولم يجبرهم على قبول ما دعاهم إليه، لينتهي الحوار بعدم إسلام الوفد النصراني، وبكتابة النبي عليه الصلاة والسلام لكتاب أمان تاريخي. روى ابن إسحاق: ".... وإنَّ الأسقف أبا الحارثة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه السيّد والعاقب ووجوه قومه، وأقاموا عنده يستمعون ما يُنزل الله عليه، فكتب للأسقف هذا الكتاب ولأساقفة نجران بعده: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم، ورهبانهم، وأهل بيعهم، ورقيقهم، وملتهم، وسوقتهم، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله

¹ سورة آل عمران، الآية 101.

أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليهم، غير منقلبين بظالم، ولا ظالمين"¹. فهذا الحوار النبوي خير دليل على أن مقصد حفظ الدين لا يقتصر على أهل الدين الإسلامي فحسب، بل يتعداهم، على الأقل، إلى النصارى أيضاً.

- في كتاب المعاهدة المشهورة بين المهاجرين والأنصار واليهود إبان هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، نجد ذكراً لموقف المسلمين من دين اليهود. نقبس من نص الكتاب ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم..." .

يتضح من خلال صياغة بنود هذه المعاهدة أنها جاءت ثمرة حوارٍ مطول بين رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة، وقبائل يهود المدينة من جهة ثانية، وإلا لما تضمنت تفاصيل دقيقة تتعلق باحتمالاتٍ متنوعة، وتسمي كل قبيلة باسمها وتخصها بأحكام معينة. فالمعاهدة إذن عبارة عن حوارٍ نبوي مع عدة أطراف، منهم اليهود، الذين كُفل لهم مقصد حفظ الدين، "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم". وعليه، فهذا المقصد يشمل أهل الكتاب جميعهم.

مقصد حفظ النفس:

من ضروريات النفس صونها وحمايتها، والإبقاء على الحياة. ومن جانب العدم شرع القصاص، وحرم قتل النفس والاعتداء عليها مهما كان الاختلاف العقدي. يقول الله تعالى: "مِنْ أَجْلِ

ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

¹ زاد المعاد، ج: 3، ص: 356.

الْأَرْضِ بِكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا¹.

إنّ مما يعزز الحفاظ على النفس الإنسانية في بناء المشترك الإنساني؛ ما قرره القرآن الكريم من أن الاعتداء على حق الحياة أو إزهاق النفس الإنسانية هي جريمة عظمى، لا في حق المعتدى عليه فقط أو ذوي قرباه، وإنما في حق الإنسانية كلها. والقرآن صريح الدلالة على أنّ قتل النفس الواحدة دون وجه حق بمثابة قتل الناس جميعاً، وأن إحياءها في حكم إحياء الناس كافة.

لا خلاف بين علماء المسلمين على وجوب حفظ النفس أو الحياة، لذلك حُرّم القتل في الشريعة، وهو من الأحكام الثابتة في الشرائع التي لم تختلف باختلاف الأنبياء.

يقول الشاطبي رحمه الله: مجموع الضروريات الخمس: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة²، وهذا الحفظ يشمل جميع بني الإنسان، بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو المذهب. ويشمل الحفاظ على النفس شقيها المادي والمعنوي؛ المادي كحق الحياة وسلامة الجسد، والمعنوي كحق الكرامة والحريات العامة.

حق الحياة للنفس البشرية مقدس عند الله، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، الحر والعبد، الرجل والمرأة، الكبير والصغير، فالجميع متساوون في استحقاق الحياة. وقد روعي هذا الحق صراحة في الوصايا العشر من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: **فَلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ³**، إلى قوله تعالى: **ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْفَلُونَ³**. وهذه

¹ سورة المائدة، الآية 32.

² الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1417 هـ / 1997، ج 2، ص 20.

³ سورة الأنعام، الآية 151 - 153.

الوصايا التي تمثل أصول التشريع منذ بدء الخليقة، هي نفسها الواردة في التوراة والإنجيل. وقد أطلق عليها القرآن هذه الصفة "الوصايا" في عدة مواضع، منها قوله تعالى:

"ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون". تخرج الآيات الثلاث وكتابتها بالخط القرآني

"ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون".

"ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون".

وفي سياق هذه الوصايا نجد الشاهد على حديثنا، وهو قوله تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَئُوا" "وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ" فهذا النص حرم قتل النفس البشرية عموماً.

ومن حرص الإسلام على حماية النفوس أنه هدد من يستحلها بأشد العقوبة، يقول

تعالى: "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا"¹. فهذه الآية تقرر أن عقوبة القاتل في الآخرة؛ العذاب الأليم، والخلود المقيم في جهنم، والغضب واللعة والعذاب العظيم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا توبة لقاتل مومن عمدا"².

وفي الحديث: "من قتل مُعَاهِداً لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين

عاماً"³.

¹ سورة النساء، الآية 93.

² تفسير الطبري، ج: 9، ص: 63.

³ رواه الإمام البخاري، كتاب الديات، باب: إثم من قتل ذمياً بغير جرم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً"¹. وروى النسائي من حديث بريدة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا"²

بالرجوع إلى الأناجيل المعتمدة عند المسيحيين نجد أن هناك تشابهاً مع أحكام القرآن في تحريم القتل؛ جاء في العهد الجديد "الإنجيل" أن المسيح عليه السلام يقول: "قد سمعتم أنه قيل للقديما لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم"³.

فهذا النص صريح في تحريم القتل، وكما حرّم الإنجيل القتل، فقد حرّم أيضاً الوسائل المؤدية إليه، كالغضب والشتيم وغيرها، ومرتكب هذه الكبيرة يكون مستوجب الحكم.

ويقول العهد الجديد أيضاً: "سمعتم أنه قيل؛ عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر"⁴. وقال في وصاياه المشهورة: "لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد الزور، أكرم أباك وأمك وأحب قريبك"⁵.

ومن الحوارات النبوية المؤسسة لمقصد حفظ النفس، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"⁶.

¹ رواه النسائي في سننه، كتاب القسامة، باب القود للرجل من المرأة.

² رواه النسائي في سننه، كتاب تحريم الدم: رقم: 3990.

³ إنجيل متى، الإصحاح الخامس، 21.

⁴ متى، الإصحاح الخامس، 38.

⁵ نفسه 20.16.19.

⁶ رواه الإمام البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

ومن الحوارات الفريدة، التي انفرد بإخبارنا إياها نبينا المصطفى الأمين، ذلك الحوار الغريب الذي سيجري يوم القيامة؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجيء الرجل آخذا بيد الرجل فيقول: يا رب، هذا قتلي، فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي. ويجيء الرجل آخذا بيد الرجل فيقول: إن هذا قتلي، فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: إنها ليست لفلان فيؤء بإثمه"¹.

نخلصُ إلى أنَّ تلك الوصايا العشر كما وردت في القرآن والإنجيل تضبط علاقة الإنسان بربه وبنفسه والكون والناس. وهي كما جاء في سفر الخروج: "أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك، لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد زوراً على جارك، لا تشته بيت جارك، ولا زوجته ولا عبده ولا أمتة"². فيجوز لنا إذن أن نقول بأنَّ تلك الوصايا العشر تشكّل مشتركاً إنسانياً بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، ومن شأن دراستها بهذه الرؤية التقريب بين أصحاب الديانات الإسلامية واليهودية والنصرانية.

مقصد حفظ العقل:

ورد عند ابن فارس أن العين والقاف واللام أصلٌ واحدٌ منقاس مطرد، والعقل هو الحابس عن ذميم القول والفعل³. ونقرأ في لسان العرب أنه سمي العقل عقلاً لأنه يمسك ويلجم صاحبه عن التورط في المهالك⁴.

يتضح إذن أن مادة "عقل" في اللغة تشيرُ إلى اجتناب القبائح وكل ما يسيء إلى الإنسان من أفعال وأقوال.

¹ السنن الصغرى، كتاب تحريم الدم - تعظيم الدم، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، حديث رقم 4008.

² العهد القديم، سفر الخروج، 20:19.

³ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 4، ص 69.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، عقل، ج 11، ص 458-459.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى إعمال العقل عبر التأمل والتفكير والتدبر والاعتناء، كل ذلك بغرض الوصول إلى معرفة الخالق.

دعا الإسلام إلى ضرورة إعمال العقل والفكر، وحرم الخمر وكل مسكر، وقد جاءت حوارات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعالج ما علق بالصحابه من بقايا الجاهلية، ومن جملتها معاقرة الخمر، فقال صلى الله عليه وسلم في حوار مع أبي الدرداء رضي الله عنه: "لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر"¹.

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بأمره أن ترك باب التوبة مفتوحاً في وجه التائبين المستغفرين من معاقرة الخمر، إن صحّت توبتهم، وهذا المعنى يُستشفّ من أحاديثه المتعدّدة، وهي في أغلبها أحاديث حوارية، فقد وظف رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهج الحوارية في جل خطبه. في هذا السياق يندرج قوله عليه الصلاة والسلام: "من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، وإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردة الخبال يوم القيامة". قالوا: يا رسول الله، وما ردة الخبال؟ قال: "عصاة أهل النار"². يتضح جلياً هنا الأسلوب الحوارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالصحابه رضوان الله عليهم لم يترددوا في سؤاله عن ردة الخبال، وهو صلى الله عليه وسلم لم يتأفف من سؤالهم، بل على العكس من ذلك؛ أجابهم إجابة أشفت نهمهم العلمي.

¹ ابن ماجه: كتاب الأشربة، باب الخمر مفتاح كل شر "3371"؛ والحاكم "7231" وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

² أبو داود عن ابن عباس: كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر والترمذي (1862) وقال: هذا حديث حسن؛ والحاكم (7232) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (6312).

يروى أبو الدرداء أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أوصني يا رسول الله. قال: "لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وحرقت... ولا تشرب الخمر"¹. وهذا صنفٌ حوارِيٌّ آخر، ينهى فيه صلى الله عليه وسلم عن شرب الخمر، وذلك الصنف هو الوصية، وقد جاءت هنا بطلبٍ من الموصى له.

ورداً على سؤالٍ مباشرٍ من أحد الصحابة رضوان الله عليهم، مفاده استخدام الخمر كدواء، قال صلى الله عليه وسلم: "إنها داء، وليست بدواء"².

وبأسلوبٍ تعليميٍّ آخر، يحذّر عليه الصلاة والسلام من مغبة زيفان العقل وفقدان التركيز الناتجان عن مُعاقرة الخمر، وذلك بذكر حوارٍ تاريخيٍّ من قصص السابقين؛ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة. فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضیئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً. فسقته كأساً، قال: زيدوني. فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر؛ فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه"³.

وبعدما حُرّم الخمر وأُقلع الصحابة، جلّهم، عن معاقرة الخمر، حصل بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حوارٌ تعليميٌّ يؤصّل لمقصد حفظ العقل من جانب العدم، بإقامة الحدّ على شاربها؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: أُتي النبي صلى الله عليه وسلم برجلٍ قد شرب،

¹ ابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.

² أحمد عن وائل بن حجر الحضرمي (18879)؛ وابن حبان (6065)؛ والدارقطني (4763).

³ النسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر.

فقال: " اضربوه ". فقال أبو هريرة: فَمِنَّا الضارب بيده، والضارب بِنَعْلِهِ، والضارب بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انصرف قال بعض القوم: أَخْزَاكَ اللَّهُ. قال: " لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان " ¹.

مقصد حفظ المال:

من المقاصد الكبرى التي وُضعت الشريعة لحفظها؛ حفظ المال، سواء من جانب الوجود عبر الدعوة إلى الاقتصاد في النفقة، والتقليل، والزهد في الدنيا بمعناه الإيجابي، أو من جانب العدم عبر النهي عن التبذير والإسراف وتحريم الغلول والربا...

ومن صور حفظ المال من جانب الوجود؛ الدعوة إلى التقليل والزهد في الدنيا، ومثاله ذلك الحوار النبوي الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! دلي على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس، قال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" ².

وثمرات ذلك التقليل ينالها الفرد في الدنيا قبل الآخرة، ففي الدنيا يعيش حياة كريمة بعيدا عن الفاقة ومد اليد بالسؤال، ويظفر بحب الناس إن هو زهد فيما بأيديهم، وفي الآخرة ينال ثواب عدم التبذير، ويُحَاسَبُ حساب الفقراء اليسير، ثم يزداد أجرا إن هو ردَّ ما وقَّره على فقراء المسلمين والعالم. أمَّا ثمرات التقليل على المجتمع فجليلة، من أهمها سدُّ حاجات الأمة بأقل تكلفة، واستثمار المال في مشاريع كبرى تعود بالنفع على العام والخاص، وبالتالي بناء حضارة راقية تضاهي وتفوق الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهية، وما أحوَجنا اليوم لمثل هاته القيم الاقتصادية، استشرافاً لعمرانٍ إسلاميٍّ نَرَاهُ قَرِيباً، يُرْخِي بِظِلَالِهِ عَلَى البشرية جمعاء، ويُؤَاخِي بَيْنَ بني آدم على أرضية المشتركات الإنسانية، وَيَزْعَى تعارف الحضارات، فحوار الحضارات.

¹ البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال.

² أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، رقم: 4102، واللفظ له . والحاكم، كتاب الرقاق، رقم: 7873، وقال: "صحيح الإسناد"، وهو حديث صحيح.

وحفظ المال لا يتنافى وتقديم الهدية، فالهدية تشيع المحبة بين أفراد المجتمع، وأولى الناس بها الجار الأدنى؛ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "يا رسول الله! إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟". قال: "إلى أقربهما منك بابا". وهذا الحوار فهم منه جواز تقديم الهدية للجار، والترغيب في ذلك، وأن أولى الناس بها الجار الأدنى مسكنا، ونفهم منه جواز تقديم الدولة الإسلامية الهدية للدول الجارات، وأن أولى تلك الدول بالهدية أدناها من الدولة الإسلامية، أدناها سكنا ماديًا جغرافيًا، وسكنا معنويًا عقديًا، وتقديم الهدايا قد يكون لإشاعة المحبة كما ذكر الحديث النبوي الشريف، وقد تفرضه حاجة ملحة طارئة، كالتكبات التي تُصيب بعض الدول، فيجوز، بل يُطلب حينها تقديم هدايا لهاته الدول على شكل إعانات وأدوية ومؤونة...

ومن صور مقصد حفظ المال من جانب العدم؛ النهي عن التبذير، ومثاله ما جاء في حوار نبوي يعلم الصحابة بالموقف والحال قبل المقال؛ عن أنس رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج، فرأى قبة مشرفة فقال: "ما هذه؟" قال له أصحابه: هذه لفلان رجل من الأنصار، قال: فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم عليه في الناس أعرض عنه، صنع ذلك مرارًا، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، فقال: والله إني لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: خرج فرأى قبتك، قال: فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فلم يرها، قال: "ما فعلت القبة؟" قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه، فهدمها، فقال: "أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا يعني ما لا بد منه¹."

¹ أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما جاء في البناء، رقم: 5237 قال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار: "إسناده جيد" ص: 1592، وهو حديث صحيح.

وهذا الحوار ينهى عن تبذير المال في التكاثر والتطاؤل من غير ضرورة، وهو حديث يفهم وفق سياقه الزماني والمكاني، حيث لم يكن للتطاؤل في البنيان ضرورة كقلة الأراضي وكثرة السكان وارتفاع تكلفة السكن وغلاء الأسعار... ومن رحمته صلى الله عليه وسلم أن رخص لنا فيما نهي عنه الصحابيُّ الأنصاريُّ، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: "إلا ما لا"، أي ما لا بد منه.

وحفظ المال العام من جهة عدم يكون بأمور، منها تحريم الغلول الوارد في حديث/ حوار كركرة؛ روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: كان على ثقل النبي صلى الله عليه وسلم - يعني على الأمتعة الثقيلة - رجل يقال له: كركرة، فمات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو في النار"، فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلها.

فهذا صحابي جليل، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ردحا من الزمان، وفي ختام حياته مات شهيدا، ثم هو في النار¹ بسبب عباءة سرقها من المال العام. والغلول محرم في جميع الديانات والشرائع السابقة والمعاصرة، وذلك من المشتركات الإنسانية التي تشكل قاسما مشتركا بين العمران الإسلامي وباقي الحضارات، ونقطة التقاء يمكن أن تكون مُنطلقاً لمدّ جسور الحوار وحسن الجوار بينها.

وتحريم الربا يدخل بدوره ضمن مقصد حفظ المال من جانب عدم، جاء في حوار تفاعلي رواه لنا أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله

¹ سواءً أكان هذا الصحابي الجليل من أهل النار المخلدين فيها، أو ممن يدخل النار لمعصيته ثم يخرج منها إلى الجنة، أو كان ممن يستوجب النار بعمله لكن الله يعفو عنه يوم القيامة، فإن الشاهد عندنا من هذا الحوار هو تغليب القول في نخب المال العام.

إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"¹.

وهذا الحوار النبوي الشريف يجمع بين جل مقاصد الشريعة؛ مقصد حفظ الدين "الشرك بالله"، ومقصد حفظ النفس "قتل النفس"، ومقصد حفظ المال "أكل الربا وأكل مال اليتيم"، ومقصد حفظ العرض "قذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

وقد سيج رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظ مقاصد الشريعة بجملة تشريعات تضمن حمايتها وعدم الاعتداء عليها، ومن ذلك تشريع الدفاع عن المال والعرض والدين والنفس/ الدم حتى الشهادة؛ عن سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد"².

ويدعم المعنى السابق الحوار النبوي الذي جرى بين رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يريد اغتصاب ماله، ماذا يعمل؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك" قال: أرأيت إن

¹ رواه الإمام البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، رقم: 2766. ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم: 89.

² أخرجه الترمذي في أبواب الديات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، رقم: 1421، وقال: حسن صحيح. والنسائي، كتاب تحريم الدم، باب من قتل دون ماله، رقم: 4095، وهو حديث صحيح.

قاتلني؟ قال: "قاتله" قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "فأنت شهيد"، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: "هو في النار"¹.

مقصد حفظ النسل:

تسعى كل أمة إلى الحفاظ على نسلها وتكثيره وتجويده، لأن العنصر البشري هو أهم مقومات كل حضارة وثقافة. ولقد أثبت التاريخ أنّ استحضر غاية حفظ النسل قاد بعض الأقوام إلى إباحة بعض السلوكات المُستَهْجَنَة حسّاً وطبعاً، وقاد أخرى إلى الاستعلاء على باقي الشعوب. ولعلّ من أهم ما تمتاز به الأمة المحمّدية؛ حفظها للنسل دون الوقوع في إفراط الإباحية ولا تفريط الاستعلائية.

ومن مظاهر حرص الشريعة الإسلامية على حفظ النسل نعرض بعض الأحاديث التي تحت على:

بر الوالدين حتى ولو كانا مشركين

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدّمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدتهم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، قدّمت عليّ أمي وهي راغبة²، أفأصل أمي؟ قال: "نعم صلي أمك"³. وهذا الحوار يُستدلّ به على وجوب حفظ الرابطة مع الأبوين اللذين هما أصل النسل وإكرامهما، وإن كانا على غير ملّة الإسلام.

¹ رواه الإمام البيهقي في سننه، رقم: 6060.

² أي راغبة عن الإسلام معرضة عنه.

³ رواه الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، رقم: 5979.

صلة الرحم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي¹، فقال: "لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسفهم المل²، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك"³.

الترغيب في الزواج:

عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها⁴، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"⁵.

وترغيبه صلى الله عليه وسلم في الزواج، يدخل ضمن حفظ النسل من جانب الوجود، إذ بالزواج يكثر النسل الذي يُفاخر ويُكاثّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة.

¹ يقصدُ أصبر لهم ولا يصبرون.

² أي كأنهم يأكلون رمادا حارا لسوء صنيعهم.

³ رواه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم: 2558

⁴ أي اعتبروها قليلة.

⁵ رواه الإمام البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم: 5063.

تحريم الزنى:

ومن أهم صور حفظ الشريعة للنسل من جانب عدم؛ تحريم الزنى، ونسوق في هذا الإطار الحوار النبوي المشهور مع الشاب الذي استأذنه في الزنى:

عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه! فقال له: "ادنه"، فدنا منه قريباً، قال: "أتحبه لأهلك؟" قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم". قال: "أفتحبه لابنتك؟" قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم". قال: "أفتحبه لأختك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم". قال: "أفتحبه لعمتك؟" قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم". قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم". قال: فوضع يده عليه، وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه"، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء¹. فإذا فقدت تلك المسحة النبوية الحانية التي مسح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلب الشاب فكُبحت غريزته الجامحة، فإن الحكم الشرعي ظل وسيطلاً قائماً إلى يوم القيامة، وهو؛ تحريم الزنى حفظاً للنسل من جانب عدم.

وإذا كانت جريمة الزنى فظيعة، فإنّ من زنى بحليلة جاره قد ارتكب فظاعة زائدة، وجُرماً أشد وأنكى. ونوردُ فيما يلي حواراً جامعاً، ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصدي حفظ الدين والنفس، ورَكَز على مقصد حفظ النسل:

عن عبد الله رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: "أي الذنب أعظم عند الله؟" قال: "أن تجعل لله نداً — أي شريكاً تساويه به — وهو خالقك، قلت: إن ذلك لعظيم،

¹ أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة، 5/256، 257، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وعزاه إلى الطبراني وقال: "رجاله رجال الصحيح"، 1/129.

قلت: ثم أي؟ قال: "وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك"، قلت ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة - أي زوجة - جارك"¹.

فانظر كيف جمع هذا الحوار النبوي بين مقصد حفظ الدين من خلال تحريم الشرك بالله، ومقصد النفس وإن كانت النفس ولدك، ومقصد حفظ النسل من خلال تحريم قتل الولد والزنى بزوجة الجار.

هذه المشتركات الإنسانية شكلت أرضية فيما مضى لمد جسور التواصل بين العمران الإسلامي وباقي الحضارات، فإذا ما أخذنا الحضارة الإسلامية في الأندلس - على سبيل المثال - لمسنا تعايشاً دينياً وثقافياً منقطع النظير، تحت لواء الإمارات والدول الإسلامية المتعاقبة؛ فلا اعتداء على ديانات أهل الكتاب وخصوصيات تعبدتهم، ولا مسّ بحياتهم، بل على العكس من ذلك، عاشوا أماناً افتقدوه في ظل أعتى الإمبراطوريات الأوربية، ثم لا أحد يقرب أموالهم، إلا ما كان من جزية ارتضوها إبقاءً على دينهم، وهي في جوهرها ثمن يؤدونه مقابل الخدمات الجليلة التي تقدمها لهم الدولة الإسلامية التي يعيشون في كنفها، دون أن ننسى كيف ساوى الإسلام بينهم وبين المسلمين في الاستفادة من مقصدي حفظ العقل وحفظ النسل.

لم تقتصر مظاهر الرقي في الحضارة الإسلامية الأندلسية على المجالات الاجتماعية والفكرية والقضائية والفنية، بل امتدّ الازدهار ليشمل جل مجالات الحياة؛ الإدارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية... وتبقى الأندلس نموذجاً فذا للتعايش بين الأديان، وحوار الثقافات... حتى كتب بعضهم²: "إنّ الأندلس كلقطة حوارية واضحة، ودالة في تاريخنا العربي والإسلامي، تمثل لحظة حوار ممتازة مع الذات وداخلها، سواء مع الغرب الذي تحتضنه أو الغرب القريب

¹ أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: "فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون"، رقم: 4477 واللفظ له. ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم: 86.

² جبرون احمد، تجربة الحوار الثقافي مع الغرب قراءة تقويمية ونموذج مقترح، مطابع الشبانات الدولية، بيروت، ط 1، 2014، ص 120.

منها. ويمكن الكشف عن تفاصيل هذه اللحظة من خلال عدة محاور منها على سبيل المثال:
أمثلة التعايش والحوار في الأندلس، حوار الأديان¹ بين نخبها، التهديدات والتحديات التي
واجهت النموذج الأندلسي في التعايش والحوار... إلخ".

¹ القرطبي أبو العباس، حوار الأديان في الأندلس، تحقيق أحمد حجازي السقا، مدبولي الصغير، عربية للنشر والتوزيع.

المبحث الثالث: منهج الحوار النبوي وبناء العمران الإنساني.

يُعَبِّرُ الحوار بين الحضارات عن حاجة إنسانية تقتضيها المتغيرات والتحويلات المتسارعة التي يعرفها العالم في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ البشرية، مما يجعل الحوار بين الحضارات، اختياراً استراتيجياً تفرضه التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي، على اعتبار أن الحوار هو الوسيلة الفضلى للتعايش بين الأمم والشعوب، ولإزالة أسباب التوتر والصراع الذي يؤدي إلى نشوء الأزمات الدولية. وفي كل الأحوال، وأياً كانت دوافع أطروحة صدام الحضارات، فقد كان رد الفعل المتوازن والعادل في آن واحد هو الداعي إلى حوار الحضارات، وهي دعوة تبنيتها دوائر كثيرة عبر العالم، لاسيما في العالم الإسلامي، كما تبنيتها أصوات عاقلة في الغرب، وكانت موضوعات هذه الدعوة هي أهمية إزالة سوء الفهم المتبادل من خلال معرفة أفضل وأكثر عمقا واتساعا وشمولا بالآخر، والتخلص من الصورة النمطية السلبية التي تروج لها أحيانا بعض وسائل الإعلام وبعض المنظمات السياسية والمدنية عن الآخر؛ كونه الخطر والتهديد والعدو، وكذلك توظيف وسائل الإعلام ومناهج التعليم وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الحديثة لتحقيق رؤية واقعية محايدة لفكر وعادات وتقاليد وسلوك وممارسات الآخر، ذلك أنه لا توجد ثقافة عليا وثقافة دنيا، وإنما جميع الثقافات متساوية، وينبغي أن تحترم خصوصياتها واختلافاتها.

لقد غدا مصطلح الحوار من أكثر المصطلحات تداولاً في الآونة الأخيرة، بمعانيه الدالة على أنه "سلوك حضاري مبني على منظومة من القيم الكونية، كالقبول بالتعددية والاختلاف، واعتبار التعايش بين الأمم والشعوب، والتعاون فيما بينها"¹

ومن المهم الإشارة إلى أن الجمعية العامة للأمم المتحدة وافقت، في العام 2000، على تسمية العام 2001 بعام الحوار بين الحضارات، فعقدت عدداً من المؤتمرات للبحث في سبل تطبيق نظرية الحوار الحضاري، التي نادى بها "روجيه غاروي" في ظل الظروف السياسية المضطربة

¹ محمد الكتاني، ثقافة الحوار في الإسلام، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2007، ص5.

في العالم، لتكون رداً على "صموئيل هنتنغتون" صاحب نظرية صراع الحضارات. ومن دراسة النظريتين تبدو بوضوح مكانة العالم الإسلامي وعُمرانه؛ فالصراع الحضاري يرى أنّ العمران الإسلامي خطر يهدد الحضارة الغربية، بينما ترى نظرية الحوار الحضاري أنه تجربة إنسانية يجب أن يحتذى بها¹.

المطلب الأول: في السياق التاريخي والدلالة والمفهوم

إنّ الدعوة إلى "حوار الحضارات" هي السبيل الموضوعي والإيجابي، لأطروحة "صدام الحضارات" التي قدمها "صاموئيل هنتنغتون"، وحاول كثير من مفكري الغرب أن يؤسسوا عليها ويوصلوا لها، لاسيما عقب انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي. وتعددت تفسيرات هذه النظرية ما بين افتراض أن الدعوة لمواجهة عدو جديد على أسس حضارية وليست أيديولوجية، توفر رؤية مشتركة للغرب، وسبباً للحفاظ على تماسك تحالفه السياسي والثقافي خوفاً من منافسات اقتصادية فيما بين دوله قد تؤدي إلى صدامات تطيح بالتحالف الغربي، وما بين الافتراض أن الدعوة تعكس أحقاداً وعداوات قديمة ودفينة لدى بعض الدوائر الغربية ضد بعض الحضارات الشرقية، ولاسيما الإسلامية، وذلك لاعتبارات تاريخية وعقائدية وسياسية وثقافية.

الدلالة والمفهوم:

أما لفظ الحضارة لغوياً، فهو مأخوذ من الجذر اللغوي: "حضر، الذي يقابل: بدو. فالحضر هم من يسكنون المدن والأرياف، ويستقرون في موطنهم، بينما البدو هم من يتنقلون من أرض في البادية إلى أخرى سعياً وراء الماء والعشب، مصدر عيشهم وحياتهم. ولذلك الحضارة

¹ محمد خاقاني، أصولنا في حوار الحضارات، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية-جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار- نيسان - 2007، ص 5.

والحضارة: خلاف البدو والبادية والبداءة. وهي بمعنى الإقامة في الحَضَر. " وهي أيضا بمعنى: الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في مناطق الحضر لشعب أو لأمة معينة".¹

ولا يتعدّ كثيراً المدلول الاصطلاحي لمفهوم الحضارة عن مدلوله اللغوي؛ وفي هذا الصدد يُسهب عطا محمد زهرة في كتابه "تكامل الحضارتين الإشكاليات والإمكانات" في الشرح التفصيلي لمفهوم الحضارة، حيث يرى بدوره بأن "الحضارة من التحضر الناجم عن الإقامة في مكان ما وما ينجم عنه من تمدن، وبهذا المعنى تحدث ابن خلدون عن العمران المدني، كنقيض للبداءة، التي تشير إلى الارتحال وعدم الاستقرار"، مضيفاً أن الحضارة، التي "تبرز مع الاهتمام بالعمران وتشكيل المجتمع المدني المستقر والمتربط والمتمدن، تضم نوعين من البنى، إحداهما عمرانية وأخرى اجتماعية"، مستخلصاً أن الحضارة هي "ثمرة جهد ضخم لعمارة الأرض وفق ثقافة ما"².

ومن اللافت للنظر؛ توظيف بعض المتقدمين من علماء الإسلام ومؤرخيه ومفكريه لفظ العمران بدل الحضارة، وعلى رأسهم ابن خلدون، فهل هذا اللفظ مفهوم أم مصطلح؟ وهل هناك فرق بينه وبين الحضارة والمدنية والثقافة؟

في البدء تُستعمل الكلمة في سياقاتٍ متعدّدة، وقد يغلبُ عليها الاستعمال العامي البعيد عن العلمية، فنطلق على الكلمة في تلك الوضعية "مفهوماً". ثم يصيرُ توظيفها وفق سياقاتٍ محدّدة، تتوخّد على الأقل على مستوى اللغة، فنقول حينها بأن اللفظ أصبح "لفظاً". ثم تدخل الكلمة إلى مجال الاستعمال العلمي، فيُعطي كل علمٍ من العلوم التي وظفت الكلمة اصطلاحاً معيناً، يحده بها أهل الفنّ، فآنذاك تصيرُ الكلمة "مصطلحاً". فأين العمران من هذه المراحل؟

¹ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الكبير، مصر: المجمع نفسه 2000، ط1، ج5، ص 430، مادة: حضر.

² عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانات، قطر: إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 2014، سلسلة كتاب الأمة، العدد 161، ص26.

إنَّ الاستعمال اللغوي لكلمة "حضارة" ينهلُ جذوره من أقدم التدوينات العربية، فقد ورد ذكره في الخطب والأشعار الجاهلية. أمّا الاستعمال الاصطلاحي لهاته الكلمة فقد نشأ مع الدولة الإسلامية منذ بداياتها، إذ هو مصطلح قرآني نبوي، يقول تعالى في محكم كتابه: **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**¹.
 جاءت مادة "عَمَر" في القرآن الكريم خمساً وعشرين "25" مرة²:

- في ثلاثٍ منها على صيغة اسم علم.
- في ثلاثٍ منها اسماً لُنُسك العُمرَة.
- في ثلاثٍ منها جاءت متعلقة بعُمران المساجد.
- في ثلاثٍ منها جاءت بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض، والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة التنقل والبادية.
- في مرة واحدة بمعنى الحياة.
- في بقية المرات أشارت إلى مرور الزمن في حياة الإنسان.

ومن معاني العُمران في اللفظ القرآني، حسب الكاتب نفسه، ما يلي:

ومن معاني العُمران في اللفظ القرآني، حسب الكاتب نفسه، ما يلي:

1 - حالة الحياة:

¹ سورة الروم، الآية 9.

² فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، مرجع سابق، ص 128-143.

قد لا يعني انصرام العمر حياةً، ما لم يكن عامراً بالحياة التي يريدّها الله للإنسان، والإعلاء من قيمة الحياة هو إعمارٌ للأرض، وقتلُ الحياة إفسادٌ فيها بالمقابل.

القصص القرآني مليء بالأمثلة على حالة الإنجاز الدنيوي الذي يمثل فساداً وإفساداً، كقصة قارون، والإنجاز الدنيوي الذي يمثل عمراناً وإصلاحاً، ومثاله قصة ذي القرنين.

غاية الحق من الخلق هي القيام بعبادة الله، وهذه هي الخلافة في الأرض. والتعبير الكلي عن المقصود بالعمران في الأرض هو العبادة.

2-الإقامة والسكنى والبناء في مكان محدد:

فالعمرانُ هو الاستقرار في مكان محدد والتوطن فيه، وإقامة حياةٍ حضرية تنشأ في الحواضر المستقرة من القرى والمدن، والتخلي عن الحياة البدوية المتنقلة. جاء في القرآن الكريم أن انتهاء عائلة يعقوب من حياة البدو كان فضلاً من الله وإحساناً: "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ"¹.

العُمران المادي:

العمرانُ المادي للأرض هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويكونُ إعمارُ الأرض بـ:

- استصلاحها، حتّى لا تبقى فيها مساحات معطلة من الإنتاج.
- البناء عليها.
- إعمار برّها وبحرها معاً، وتجنّب إفسادهما، وتجنّب تلويث الجو.

العُمران الثقافي والفكري:

وهذا النوع هو الجانب المعنوي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تطور خبرة الجماعات والشعوب في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية، فتنشأ الثقافات.

¹ سورة يوسف، الآية: 100.

إنَّ عمران البلاد وخرابها، إنّما هو نتيجة لأعمال الناس، فكم من أمة بلغت من العمران المادي والمعنوي شأواً بعيداً، ثم قضت سنة الله بهلاك أهلها بسبب ظلمهم: "بَكَائِسٍ مِّنْ فَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِيرٍ مُّعْطَلَةٍ وَفَصْرٍ مَّشِيدٍ"¹، والهلاك في هذه الآية أصاب الناس في حين سلّم العمران المادي. وما أشبه هذا بواقع مجتمعاتنا العربية والإسلامية اليوم: تتوقّر فيها مظاهر العمران، لكنها تعيش حالةً من "الهلاك" و"الخواء".

هذا عن ورود مصطلح العمران في القرآن الكريم، أما في لغة الحديث النبوي الشريف، فدلالات الجذر "عَمَرَ" الواردة في الحديث الشريف هي الدلالات نفسها التي وردت في القرآن، إلّا العمرى، وهي الهبة التي يمتلكها من أعمرت له. وهذه الدلالات هي²:

1. العُمُر بمعنى الزمن الذي يمضي من حياة الإنسان.
2. المدة الطويلة، وذلك في قولهم: مكثتُ معه عُمراً.
3. القسَم بالعمر، بمثل: لعمرك، ولعمر الله.
4. العمران هو ضد الخراب.
5. عمران الروح للجسد أو الحياة.
6. عمران القلوب والبيوت بالقرآن.
7. عمران المساجد، أي بناؤها المادي، وكثرة العبادة فيها.
8. السبيلُ العامر، هو: المألوف المطروق.
9. العوامر من الحيات "الأفاعي" التي تسكن مع الناس في بيوتهم.

¹ سورة الحج، الآية: 45.

² فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، مرجع سابق، ص 143 - 148.

10. البيت المعمور، وهو في السماء السابعة.

11. العمرة، هي قرينة الحج.

12. عَمَرَ أرضاً، وتولّى عمارتها، أي إصلاحها واستخدامها.

13. والله سبحانه استعمر الإنسان في الأرض.

14. العمرى، وهي الهبة والعطاء.

نخلصُ إذن إلى أن "العمران" مصطلحٌ أصيلٌ بدليل القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وإذا كان مصطلح "حضارة" يُحيل على تنظيمٍ محكمٍ لمناحي الحياة، ومصطلح "ثقافة" يُحيل على التراث الفكري اللامادي، ومصطلح "المدنية" يُحيل على التراث المادي الملموس؛ فإنّ مصطلح "العمران" يعني هذا كله، ممزوجاً مزجاً فنياً تكاملياً، ومُضافاً إليه جانب لم تُشِرْ إليه تلك المصطلحات مجتمعة، وهو الاهتمام بالجانب الغيبي، ونقصه به مصير الإنسان الساعي في الأرض إصلاحاً لا إفساداً، فإنّ نحن أردنا إعطاءً حدّ مُبسّطٍ جامعٍ مانعٍ للعمران، قلنا: إنّ العمران هو السعي في الأرض إصلاحاً لا إفساداً، بنية التقرب إلى الله تعالى ونيل رضاه سبحانه. ومما لا شك فيه أن أمة الإسلام قد قدمت أروع عمران عرفته البشرية، عمران أعطى كل ذي حق حقه امتثالاً لأمر الخالق سبحانه، وهو عمران يُعلي من شأن الفكرة ويحط من أمر الوثن، ويقدم من القيم الجمالية ما كان أخلاقياً نافعاً، يخدم الإنسان ويعمّر الأرض ويثري الحياة، ويعطيها معنىً يعز في غيره من الحضارات، التي تعلي من شأن جنسٍ أو لونٍ دون مَنْ سواهما. لقد قام العمران الإسلامي على الدين الحق، ولذلك كان التسامح والعدل أساساً أصيلاً فيه، فهو يحترم وجهات النظر، ويجعل للخلاف مجالاً، ولا يضيق به ذرعاً، ويحض على الحوار والاستماع للآخر، ويعترف بالخلاف المعترف ويحتفي به.

المطلب الثاني: حوار الحضارات والبحث عن المشترك الإنساني.

- في الغاية والبحث عن مقدمات للمشارك الإنساني

إن أهمية الحوار، بما هو مقدمة لتواصل الحضارات، وبما هو أرضية صلبة للعيش في إطار المشترك الإنساني لتعتمد، على أثافي السلم الاجتماعي والتعايش في مواجهة دعوات الصراع ونهاية التاريخ التي تؤسس لعهد جديد من العلاقات الدولية حالياً، فأهمية الحوار تكمن في تأسيس لغة التسامح على مستوى الأفراد والجماعات ومحاولة إيجاد القاسم المشترك الذي يُعبر عن المصالح التي لا تتعارض مع فكر الآخر، وهي أحد الشروط الضرورية للسلام الاجتماعي والتقدم والتطور، ليس هنالك بديل لتجنب الانزلاق الى الصراع الحضاري وما ينطوي عليه من خطر مادي يهدد البشرية بالفناء الشامل، وخطر معنوي يهدد بالقضاء على التعددية الثقافية والتنوع الحضاري؛ إلا الحوار الذي من خلاله يمكن الحد من تقليل الصراعات والمنازعات الدولية والمشاركة في مواجهة الأخطار المشتركة التي تحدق بالعالم.

من خلال الحوار يتم التغلب على لغة التعصب والتمييز والكراهية، لذلك يُعدُّ تثبيت قواعد الحرية في المحيط المجتمعي مهماً جداً من أجل تأسيس علاقات أكثر واقعية، تكسر الحاجز النفسي ونوازع الأنا الضيقة، وتقطع مع ممارسات إلغاء الآخر والتكفير، وتؤسس لحسن الاستماع وقبول الآخر، واحترام وجوده وقناعاته، فالكلمة السواء لا تتأجراً إلا بعقل حوار يثري مضمون الحرية على المستوى الإنساني والحضاري، مع تأكيد أن الاختلاف مظهر طبيعي في المجتمع الإنساني، وهو الوجه الآخر والنتيجة الحتمية لواقع التعدد، الذي لا بد أن يستدعي الاختلاف ويقتضيه، وكما تكون هذه الظاهرة بين الأفراد تكون كذلك بين الجماعات، وما ينسحب على الجماعات يكون بين الحضارات. ووفق هذا المنظور تبرز أهمية الحوار فهو يعكس الواقع الحضاري والثقافي للأمم والشعوب، حيث تعلو مرتبته وقيمه وفقاً للقيمة الإنسانية لهذه الحضارة أو تلك.

ففقّه المشترك الإنساني هو الذي يُعرف بالعلاقات الدولية، التي لم تعد اليوم مقتصرة على الدول المعترف بها، بل تعدّتها إلى المؤسسات، لا سيما المؤسسات الفاعلة دولياً، مثل: الفاو، اليونسكو...

وقد اتسع اليوم مفهوم العلاقات الدولية، وصار اتّساعه يفتل في حبل المشترك الإنساني، فقد صرنا نتحدث عن العلاقات الشعبية، والدبلوماسية الشعبية.

وإنّنا إذ نتحدث عن القيم، فإنّنا نتناولها باعتبارها تندرج ضمن المشترك الإنساني الذي يطرح جدلية المؤتلف والمختلف، فلا بد للأمم من حدٍّ مشترك بينها جامع "وهو المؤتلف، الذي يتشابه فيه الناس"، كما لا بد من تنوع "المختلف" للحديث عن المشترك الإنساني. ونحن في مبحث القيم نبحث عن المشترك الإنساني الذي يجمع الناس، ولا نبحث عن المختلف، وإن كان الوجود لا يستقيم إلّا بالشيء ونقيضه.

- الحوار النبوي من أجل بناء الإنسان وتأهيله.

إذن فما هي السبل لتأهيل الإنسان وبناء العمران الإنساني؟

1. تأهيل حقل الإعلام، دعامة أساسية للبحث عن المشترك الإنساني.

إن وسائل الإعلام تعد من أخطر المؤسسات المسهمة في خلق روح العداة لدى الإنسان الغربي تجاه الإسلام، وإن كان هذا العداة يتركز على ما أفرزته مصادر ومؤسسات أخرى، فالمؤسسات الإعلامية بما تمتلكه من قدرات وإمكانات وقدرة على التأثير تعمل على توجيه الخطاب الإعلامي، وجعله مادة جماهيرية، يتفاعل معها المشاهد أو المتلقي الغربي، فيتأثر بها، مما يخلق لديه انطباعات سلبية، وتصوراً خاطئاً عن الشرق الإسلامي.

إن جميع وسائل الإعلام الغربي قد اشتركت في صنع وترويج الصورة النمطية السيئة للعرب والمسلمين؛ لا فرق في ذلك بين الصحافة المكتوبة، والإذاعة المسموعة، والتلفزيون والسينما والإنترنت...

ولعل الدراسة التي قام بها الكاتب الأمريكي جاك شاهين، هي أوسع الدراسات في هذا الباب، حيث أخضع أكثر من 1000 فيلم أمريكي للدراسة، وخلص إلى أن صورة العرب في السينما الأمريكية لا تخرج عن كونهم: "شيوخ مترفون، ذووا كوفيات وقمصان تظهر جليا علامات الترف، والبذخ، وانتفاخ البطن، والسمنة المفرطة، وهم إرهابيون عديمو الضمائر، ذوو لحى طويلة، قاذفو قنابل، قتلة، ولا يتورعون عن قتل الأبرياء، وقد ترسخت هذه الصورة أعمق بعد أحداث الحادي عشر من شتبر 2011م"¹.

وهكذا فإن النشرات الإخبارية، والتقارير الصحفية، والأفلام الوثائقية، والفقرات الإعلانية... في القنوات الإذاعية والتلفزية في الغرب، تأتي مليئة بالأوهام والكاذب في حق الإسلام والمسلمين، فهؤلاء يبالغون في إظهار الإسلام بوصفه دين العنف والتطرف والإرهاب، وأن المسلمين غير جديرين بالثقة، "ونكتفي هنا بالإشارة إلى عناوين بعض الأفلام الوثائقية للدلالة على محتوياتها: " القنبلة الإسلامية "، " سيف الإسلام "، " الإسلام الملتهب "، " خنجر الإسلام "، " نار الإسلام "².

ولكي نفهم ما تُروّج له وسائل الإعلام الغربية تجاه الإعلام من حقدٍ وتشويهٍ، وزورٍ أحياناً، ينبغي أن نضع الآلة الإعلامية في سياقها التاريخي والواقعي؛ فمعلومٌ أنّ جل وسائل الإعلام اليوم تتحكّم فيها شريحة من الأشخاص النافذين، الذين لا تتوافق مصالحهم مع السلم العالمي وحوار الحضارات، ذلك أنهم إمّا اقتصاديون ينتعشون بتفاقم الحروب والنزاعات، عبر بيع الأسلحة والأسلحة المضادة، وعبر شبكات التجارات العالمية السوداء، التي تمتلئ ببيع الأجساد البشرية، وتهريب المخدرات... وإمّا سياسيون خاضعون لأجندات الاقتصاديين من جهة، ومؤسسين

¹ يامين بودهان، مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية، الصادرة عن دار هومة للنشر والتوزيع بالجزائر، العدد 12/ سنة

2006 م، ص: 49

² الخوف الإسلامي بين الحقيقة والتضليل، عطية فتحي الويشي، سلسلة دعوة الحق، منشورات رابطة العالم الإسلامي،

السنة: 23، العدد: 219. ص 136

لبرامجهم السياسية على أطروحات الصدام والصراع حفاظاً على كراسيهم من جهة ثانية. وعليه؛ نجدُ جل وسائل الإعلام ترعى -تابعةً في ذلك مواقف أصحابها- صراع وصدام الحضارات. وحتى نكون قاصدين في تأسيسنا للعمران الإنساني؛ فإننا لا نُعوّل على الجهات الرسمية في رعاية المشترك الإنساني وتبني أطروحة التقارب بين الحضارات، وإتّما المعوّل عليه هو الشعوب، ولهذا ما فتئنا في هذا البحث نُلحّ على فكرة التفاهم بين الشعوب، وأنه حتّى في المجتمع الغربي هناك أصوات حرة نزيهة ومُتعلّلة باتت تُنادي بحوار الحضارات.

- مأسسة الحوار: أو من عمل الأفراد إلى عمل المجموعات والمؤسسات.

الحوار بين الحضارات عبر مساحة شاسعة بحجم الكرة الأرضية يستلزم وجود ترتيب تنظيمي، يتولى الإشراف على مهام التحضير والتمويل والتنظيم ووضع السياسات والخطط والبرامج واقتراح الوسائل والأساليب المناسبة، وأيضاً إيجاد ترتيبات تنظيمية مناسبة للحوار الداخلي، أي الحوار بين الأنساق الفرعية للحضارة الواحدة، ثم إجراء الاتصالات الرسمية بكافة المستويات القطرية والإقليمية، أو إجراء اتصالات غير رسمية من خلال الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني من خلال مقاربات متعددة في كافة المجالات لمعرفة كيفية توظيفها في الحوار، بالإضافة إلى إنشاء مواقع على الشبكات الدولية للمعلومات باللغات الأجنبية كي تُسهم في الحوار، فمسؤولية تفعيل الحوار بين الحضارات مسؤولية جميع الأطراف بالتساوي والتوازي، لذا يمكن تصنيف الأطراف المشاركة في الحوار وفق المعايير التالية:

المعيار المؤسسي: إن نجاح أي حوار بين الحضارات يجب أن يكون الإسهام فيه واضحاً للدوائر والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية التي تنظمه، كذلك يمكن القول إن هنالك مؤسسات يجب أن تكون طرفاً أساسياً مثل:

1-التنظيمات الدولية: وتشمل هيئة الأمم المتحدة والأجهزة التابعة لها، وفي مقدمتها اليونسكو والإيسيسكو...

2- التجمعات الإقليمية: مثل جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمنظمة الدولية للفرانكفونية، والمؤسسة الأوروبية ومتوسطة أناليد (تصحيح الكلمة) للحوار، وغيرها.

3- الجامعات ومراكز البحث العلمي ومؤسسات المجتمع المدني الإقليمية والدولية.

4- المؤسسات الاقتصادية الكبرى مثل الشركات العابرة للقارات.

المعيار الإنمائي: هنالك اختلافات في مسألة التنمية والتطور الإنمائي بين الدول، غير أن هذه الدول تتساوى في حقها ومسؤولياتها في الحوار الحضاري، وطبقاً لهذا المعيار؛ فإن الشمال مطلوب منه نظرة أشمل للجنوب، وتقديم أي مساعدة ليس مُسَوِّغاً لهيمنة هذه الدول على الجنوب.

المعيار التخصصي: ويقصد به الأفراد المتخصصون والمؤثرون في عملية الحوار الحضاري العالمي، مثل علماء الدين البارزين والمفكرين السياسيين ورجال الثقافة والفنون والمال والعلماء والإعلاميين والرموز المجتمعية.

إنَّ العمران الحق، كما يُوضَّح الأستاذ ملكاوي¹، هو القائم على طاعة الله، ولن يدوم عمران يقوم على الظلم والفساد، كعمران أقوام: عاد وثمود وفرعون. ولكي تستعيد الأمة موقعها الحضاري اليوم، عليها القيام بدور التصحيح والترشيد، وتقديم رؤية جديدة تفتقد لها الحضارة المعاصرة؛ لا تقلل من شأن عالم الأشياء، ولا تسمح له أن يستبدَّ بحياة الإنسان والمجتمع، ويُسقط من حسابه عالم القيم التي تحقق التوازن، ودون ذلك أمران:

- بناء نماذج من التكوين الحضاري (العمراني) المتكامل والمتوازن.

- تولي مهمة التحاور في المصالح المشتركة، لتعين الأمة وتستعين.

يمكننا القول إنَّ حوار الحضارات ممكنٌ، بل ضروريٌّ، فهو الوسيلة الأمثل التي تُمكن عمران الإسلام والحضارات الأخرى من المضي قدماً في تَقَارُبٍ نقدي مثمر يَحْفَظُ لكل كيانه ماهيته.

¹ فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا، ص 158 - 165.

وهذا التقارب يتعين أن يتسم بمنهج الحوار النبوي في إيجاد حلول واقعية، ترتقي بها الشعوب للنهوض بمهمتها الحضارية المنوطة بها. آنذاك يمكننا أن ندعي أننا قد نزلنا على أرض الواقع المضمون السامي للرسالة القرآنية التي تلخص غاية الوجود الإنساني-العمراني مصداقا لقوله تعالى: "يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"¹

إن العمران في المصطلح القرآني هو عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية. فالإيمان أصل، والعمران بالنعيم الدنيوي والأخروي نتيجة. والعمران ربما يكون مدخلا مغريا لبعض النفوس، كي تدخل في حظيرة الإيمان².

¹ - سورة الحجرات، الآية: 13.

² فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم العليا، ص 165-167.

خاتمة:

إن كنوز التربية النبوية الحوارية تقتضي من رجال العلم والفكر والتربية عناية خاصة؛ فهماً مستوعباً، ودراسة تحليلية متأنية، وتنزيلاً رشيداً يؤمه ما تحصل من الفهم والدراسات.

حاولت أن أسهم في هذا المشروع العلمي التربوي لأطروحتي: " منهج الحوار من خلال السيرة النبوية" جامعاً فيها بين الأبعاد الوجدانية الروحية لمعاني المصطلح والقيم المرتبطة به، وتحليلاتها عبر مقامات تربية المصحب الأعظم صلى الله عليه وسلم لصحابته، ولأمتة من بعده. وأفقها في سياق الوفاء لأمانة التبليغ المستمرة في زمن الغربة، غربة العبد المسلم عن دينه وغربة الإنسان عامة عن أصله وأساس وجوده، فجاء هذا الموضوع ليلفت الانتباه لي خاصة وللعاملين في حقل الدعوة والعلم وللطالب الباحث عن حقيقته أولاً من هو؟ وإلى أين يصير؟ وبأي منهج عليه أن يسير؟ ليتحقق فيه قول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات "بلغوا عني ولو آية"¹

لذلك كيف يتأهل هذا الإنسان روحياً وفكرياً وعلمياً حتى يكون في مستوى مبلغ الرسالة النبوية وفي الخطوة التي كان عليها الصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين تأهلوا فكانوا أوفياء للأمانة.

لقد اتضح من خلال هذه الرسالة أن موضوع الحوار في الإسلام عموماً وفي السيرة النبوية خصوصاً موضوع يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب، ليس فقط لاكتشاف أساليبه ومناهجه، وأأسسه وآدابه، ولكن أيضاً من أجل استنباط قواعد كلية يمكن أن تكون مرتكزات في مجالات عدة مثل فقه الأسرة وما يتميز به من حساسية، وكيف تعامل معه الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك الحوار مع غير المسلمين والفروق بينه وبين الحوار مع من هو داخل الدائرة الإسلامية.

فالحوار الناجح لا مجال فيه للفرض والإرغام، أو الترهيب والإلزام. بل هو التزام ناتج عن اقتناع تام، يملئ الضمير، ويصل إليه القاصد بالحكمة وحسن الكلام. وهذا ما تشير إليه الآيات المتعددة.

¹ رواه الإمام البخاري في صحيحه: رقم: 3461.

إن نجاح أي تواصل يهدف إلى رَأْب الصدع بين الناس، ويؤسس لعيش مشترك وتواصل مثمر بين الأمم والشعوب، يقتضي توفر ما يلي:

أولاً: الإرادة الحقيقية لدى الجميع ورغبتهم الأكيدة في العيش المشترك.

ثانياً: تفادي نقط الاختلاف، لا سيما في بدايات الحوار والتواصل، والتركيز على القواسم المشتركة بين الشعوب والأقوام.

ثالثاً: الانطلاق من الحقوق الإنسانية العامة، وتفادي الخلافات أو الاختلافات الدينية والعرقية وغيرها.

رابعاً: إعادة الاعتبار والأولوية للقيم والفضائل الغائبة، كحق الإنسان في العيش الكريم، وسائر الحقوق التي تضمن إنسانيته.

خامساً: ينبغي أن يتصدى للحوار والتواصل من تتوفر فيه شروط الحوار والتواصل الفعال والمثمر، كالعلم الواسع بالمواضيع المتحاور حولها، والاتصاف بالاعتزان، والبعد عن التعصب والتطرف، والاقتناع بتعدد المشتركات بين الشعوب.

تاسعاً: ضرورة إعادة قراءة الكثير من المفاهيم الإسلامية والمصطلحات في علاقاتنا مع الآخر، على ضوء المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية.

ما يصل إليه بعض الباحثين من غلبة التناقض وعدم الاتفاق بين كتب الأديان السماوية يرجع في نظري إلى ثلاثة أسباب رئيسة، هي: التحريف الذي لحق بعض الكتب، ثم الأحكام المسبقة والنوايا غير الحسنة في تأويل تلك النصوص المقدسة، وعدم استقلال المؤسسات الدينية والثقافية عن التحكم السياسي، ولهذا نجد أنها تنخرط في نصرة المتغلب بدل تفرغها للإخلاص في إبراز حقيقة الدين وصفاء الأفكار.

إنّ من أكد أولويات العصر الراهن؛ التعاون بين أتباع الديانات السماوية في تعزيز الالتزام بالقيم الإنسانية منها التعايش وعدم الإكراه في الدين والسلام... لأنها تشكل إرثاً إنسانياً مشتركاً. ويشكل

الجهد العلمي والفكري في مجال ترسيخ القيم الدينية المشتركة من خلال الندوات والمحطات التواصلية محليا ودوليا عاملا مهما في تضيق هامش الأفكار المنافية للتسامح والتعاون بين أتباع الأديان السماوية. فالأزمات في حقيقتها سببها صراع المصالح، التي تولدها الأثرة، أما الأديان في أصلها فبريئة من ذلك، بدليل انعدام أي نص مصدري في أي كتاب سماوي، سواء كان معزواً لله سبحانه وتعالى أو لنبيٍّ من الأنبياء، يذكي الصراع بين الأديان والأنبياء، بل على العكس من ذلك تماماً؛ ما من كتاب سماوي إلا ويقرّ بوحدة الدين وأخوة الأنبياء. ولوسائل الإعلام دور محوري في تعزيز القيم الدينية التي تحقق التعايش السلمي وترسخ ثقافة الحوار، إن هي تحلت بالموضوعية والمصادقية والأمانة.

ليس المقصود من وراء خطاب القيم الجامعة ومطلب العيش المشترك تغيير الحق، والتشريع للباطل، والقبول بالمحرف مما ينسب للدين، وإنما المقصود التحلي بالحكمة والدعوة إلى الخير بالحسنى، يقول الله سبحانه وتعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"¹

هذه بعض الملاحظات حول الموضوع نضيف إليها بعض التوصيات نجملها في النقاط التالية:

✓ من أهم امتدادات هذا البحث؛ دراسة تجميعية للأحاديث الحوارية مقسمة على أبواب، أو على حسب الموضوع، ومن شأن هذا العمل أن يكون بمثابة معجم للأحاديث الحوارية على عادة المحدثين والفقهاء في جمع الأحاديث وتقسيمها لاعتبارات عدة، منها: إما تقسيم حسب الأبواب الفقهية، أو تقسيم حسب أهمية مواضيعها، أو تقسيم حسب العدد، أو غير ذلك من الاعتبارات. وهذا العمل سيفيد في جمع مادة غنية تُثري موضوع الحوار بمادة مصدريّة مهمة من السيرة النبوية والحديث الشريف.

✓ ينبغي إعادة الاعتبار لموضوع الحوار لكونه أنجع وسيلة في تبليغ رسالة الله للخلق، التي هي أمانة ملقاة على كل مسلم، فيجب نشر ثقافة الحوار وتعميمها والدعوة بالتي هي أحسن، سيرا على خطى

¹ سورة النحل، الآية: 125.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

✓ إن الاهتمام بالحوار يجب أن يكون مبدأ وقناعة راسخة، وليس خطة مرحلية تفرضها المتغيرات التي تعصف بالعالم الإسلامي والتحديات التي تواجه المسلمين اليوم؛ إذ هم الحلقة الأضعف في ساحة صراع عنيف. فالإسلام يقدم الحوار مبدأً ووسيلة ليتعامل بها الناس على اختلاف معتقداتهم وأوطانهم وثقافتهم، وليتواصلوا بأساليب حضارية سلمية بعيداً عن خطاب العنف والاستقطاب الذي نعيشه اليوم، ولا أدلّ على ذلك من رعاية الدول الإسلامية في مراحل قوتها للحوار مع الغير المخالف عقدياً وسياسياً.

✓ إن إبراز حوارات النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالفين في الدين سيساعد على الأقل في ردم الهوة بين المكونات المختلفة داخل المجتمعات الإسلامية، وهي حقيقة لا يمكن تجاهلها أو نفيها، فالاختلاف واقع وسيظل، والحل ليس في الإقصاء أو اللجوء لأساليب العنف، ولكن في التواصل والجلوس للحوار من أجل الاتفاق على ما يمكن الالتقاء عليه، ويعذر كل طرف الطرف الآخر فيما هو مختلف فيه ويصعب رفع الخلاف فيه.

✓ إن نشر ثقافة الاختلاف والحوار من أهم المداخل لإصلاح ما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من تناحراتٍ أرذلتها إلى أدنى دركات التقهقر والتخلف، ولابد من إيلاء هذه الثقافة ما تستحقه من عناية في الإعلام والمؤسسات التعليمية والمساجد ومختلف مؤسسات المجتمع المدني، فالحوار والإيمان به لا يمكن أن يتحصّل بقراءة كتاب أو مجلة، ولكن بتربية متواصلة وتدرّب مستمر حتى يكون قناعة راسخة.

✓ إن جرد طرق حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع مخالفه وحتى مع مَنْ ناصبوه العداء تفيد في اكتشاف المبادئ الإسلامية في التعامل مع الغير، فقد شكل اليهود وغيرهم مجتمعا متعدد الآراء والاعتقادات في الفترة المدنية، وشكلت وثيقة المدينة مثالا ناصعا لنظرة الإسلام إلى من يُطلق عليهم اليوم "أقليات"، فكانوا يتمتعون بكامل حرياتهم، لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات.

✓ لا بد للحوار أن يكون له من يمثله داخل المجتمع المسلم، وتكون له هيئات علمية تسعى للتواصل الدائم مع الآخرين، ويختار لهذه الهيئات من يجيد الحوار ويعبر عن رسالة الإسلام بأحسن وجه، فالجهود لقد أثبت التاريخ أنّ الأطروحات المادية المروّجة لثقافة الصدام والتناحر والصراح لم ولن تلقى آذاناً صاغية من طرف شعوب العالم الفردية مهما كانت ثمارها طيبة، فإنها تبقى محدودة، ولذلك يجب إنشاء مؤسسات حوارية بمعايير علمية دقيقة، يكون هدفها الأول إيصال صوت الإسلام للآخرين.

وختاماً؛ فبات أمام عقلاء العالم سبيل وحيد للخلاص من التوقع حول الذات وتجاوز الأنانية المستكبرة والمادية المرضية، هو سبيل مراجعة الذات والمسلّمات المنحطة، والانتقال إلى التفكير الجدي المتحرر ومد اليد للجميع، من أجل حياة قوامها التعارف والاحترام والرحمة للعالمين.

ولقد جسدت الحوارات النبوية هذا المبدأ أيام الاستضعاف وزمن التمكين على السواء، ومن ذلك؛ معاهداته، وحواراته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، ووثيقة المدينة التي عُدت بحق مثالا رائعا في بناء أسس العيش المشترك، والاحترام المتبادل.

وقد اقتدى بهدي النبوة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فاستحقوا بذلك شرف الرسالة، ووعد العزة والتمكين زمانا، يقول الحق سبحانه: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" ¹.

¹ سورة النور، الآية: 53.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن نافع.

1. الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عمر القيام، ج.2، مؤسسة الرسالة، ط.3، 1419هـ/1999م.
2. الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين، عبد الرحمن بن محمد بن الحسن، ابن منصور ابن عساكر الدمشقي الشافعي، المحقق: محمد مطيع الحافظ، غزوة بدير، دار الفكر، ط.1، دمشق، 1406 هـ.
3. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة، ط.1، بيروت، 1408 هـ - 1988 م.
4. أحكام القرآن ابن العربي، أبو بكر بن العربي المالكي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط.3، 1424هـ/2003م.
5. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، د.ط، 1417هـ - 1996م.
6. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، تحقيق محمد سعيد البدري، دار الفكر، بيروت، 1412هـ/1992م.
7. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، دار المصحف، د.ط، القاهرة، د.ت.
8. أسد الغابة في معرفة الصحابة، الإمام عز الدين أبي الحسن بن محمد الجرزي المعروف بابن الأثير، دار ابن حزم، ط.1، 1433هـ/2012م، رقم: 1842.

9. الإسلام والديمقراطية، سعيد بنسعيد العلوي.
10. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 1415 هـ.
11. أصول الحوار وآدابه في الإسلام، صالح بن عبد الله بن حميد، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط.1، مكرمة المكرمة، سنة 1994م.
12. أصولنا في حوار الحضارات، محمد خاقاني، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية-جامعة بغداد، ع.3، آذار- نيسان، 2007م.
13. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية، ت : طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، د.ط، بيروت، 1973م
14. تاج العروس من جواهر القاموس، محبّ الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، تحقيق علي شبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 2، 1424هـ.
15. تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، م.2، بيت الأفكار الدولية، د.ط، د.س.
16. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط.1، 1934م.
17. تاريخ العرب قبل الإسلام، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، ط.1، 1430هـ/2009م.
18. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، مطبعة بريل، ج.2، د.ط، ليدن، 1883م.
19. تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إسرائيل ولنفسون، مكتبة الاعتماد، د.ط، 1345هـ/1937م.

20. تجربة الحوار الثقافي مع الغرب قراءة تقويمية ونموذج مقترح، جبرون احمد، مطابع الشبانات الدولية، بيروت، ط. 1، 2014.
21. التحرير والتنوير، الإمام الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، د.ط، تونس، 1984.
22. تذكرة الحفاظ، الإمام شمس الدين محمد الذهبي: دائرة المعارف النظامية، ط.2، حيدر آباد، الهند، 1333هـ.
23. التربية الإسلامية وفلسفتها، الأبراشي، عطية. دار الفكر العربي، د.ط، القاهرة، 1976م.
24. التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، عبد الدايم، عبد الله. بيروت، دار العلم للملايين، ط.1، 1973م.
25. التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف. بيروت: دار الكتب العلمية، ط.1، 1403هـ/1983م.
26. تعليم المتعلم طريق التعلم، الزرنوجي، برهان الدين. الدار السودانية للطباعة والنشر، ط.1، 2009م.
27. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، د.ط، بيروت، 1401هـ.
28. تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانات، عطا محمد حسن زهرة: قطر: إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلسلة كتاب الأمة، العدد. 161، 2014م.
29. الثقافة الإسلامية تخصصاً ومادة وقسماً علمياً، عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، ط: 1، الرياض، 1417 هـ. 1996 م.

30. ثقافة الحوار في الإسلام، محمد الكتاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ط، المغرب، 2007م.
31. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الإمام الطبري، تحقيق: بشار عواد معروف - عصام فارس الحرساني، م.6، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1415هـ/1993م.
32. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية - القاهرة، ط.2، 1384هـ - 1964 م.
33. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه الإمام البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة "مصورة عن السلطانية" بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، 1422هـ.
34. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر - عبد العزيز بن إبراهيم العسكر - حمدان بن محمد، دار العاصمة، ط.2، 1419هـ/1999م.
35. الحدود الأنيفة، زكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، ط 1، بيروت، 1411هـ.
36. الحروف، الفاربي، أبو نصر، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، ط.1، بيروت، د.ت،
37. الحوار آدابه وضوابطه، يحيى الزمزمي، دار التراث والتربية، ط 1، 1441هـ.
38. حوار الأديان في الأندلس، القرطبي أبو العباس، تحقيق أحمد حجازي السقا، مدبولي الصغير، عربية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
39. الحوار الإسلامي المسيحي، بسام داود عجل، دار قتيبة، ط.1، 1418هـ.
40. حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، محسن بن محمد عبد الناظر، دار الدعوة للنشر والتوزيع، ط.1، لبنان، 1409هـ/1989م.

41. الحوار في السيرة النبوية، للسيد علي خضر، منشورات المركز العالمي للتعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم، د.ط، 1431هـ.
42. الحوار في القرآن: قواعده أساليبه معطياته، الشيخ محمد حسين فضل الله، دار الملاك للطباعة، ط: 2، بيروت، 1996م.
43. الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، دار المسلم، د.ط، 1414هـ.
44. الخواف الإسلامي بين الحقيقة والتضليل، عطية فتحي الويشي، سلسلة دعوة الحق، منشورات رابطة العالم الإسلامي، السنة 23، العدد 219.
45. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، م.3، دار الفكر، د.ط، بيروت، 1432هـ/2011.
46. دلائل النبوة، البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلنجي، ج.5، دار الكتب العلمية، د.ط، 1985م/1405هـ.
47. دليل المعلم العصري في التربية وطرق التدريس. الجقندي، عبد السلام. دمشق: دار قتيبة، ط.2، 1428 هـ / 2008 م.
48. الذات والآخر، عبد الستار الهيقي، الحوار: سلسلة كتاب الأمة، ع.99، وزارة الأوقاف، الدوحة، 2004م.
49. الرحيق المختوم، صفى الدين المباركفوري، دار الهلال - بيروت، ط: 1.
50. رسالة التوحيد، الشيخ محمد عبده، دار الشروق، ط.1، 1414هـ/1994م.
51. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، الحافظ السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1412 هـ، ج: 4، ص: 134-135.
52. الروض الداني "المعجم الصغير"، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ت: محمد شكور محمود الحاج أمير، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار، ط.1، بيروت، عمان، 1405 هـ / 1985م.

53. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط.2، 200م/1423هـ.
54. سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ج.11، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط.1، 1414 هـ - 1993،
55. سلسلة المنظومة التربوية في المغرب، حلیم، سعيد. المرجع في كيفية التعليم، عدد.2، 2009م.
56. سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - فيصل عيسى البابي الحلبي، ج.2، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت.
57. سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، ط: 1، المملكة العربية السعودية، 1412 هـ - 2000 م.
58. سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1421هـ/2001م.
59. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج.2، مؤسسة الرسالة، ط.2، 1402هـ/1982م.
60. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، ج. 1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط.2، 1375هـ.
61. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان، تحقيق: الحافظ السيد عزيز بك، ج.1، الكتب الثقافية، ط.3، بيروت، 1417هـ.

62. شرح الأربعين حديثاً النووية للإمام النووي، ابن دقيق العيد، المكتبة الفيصلية، مكة، د.ط، د.ت.
63. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، ج.8، دار طيبة - السعودية، ط.8، 1423هـ / 2003م.
64. شرح صحيح البخاري، ابن بطلال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ط.2، الرياض، 1423هـ.
65. الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّي البغدادي، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، ط.2، الرياض - السعودية، 1420 هـ - 1999 م.
66. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج. 4-6، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1407هـ / 1987م.
67. صفة الصفوة، ابن الجوزي، ت عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1423هـ/2003م.
68. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، د ط ، 1414 هـ . 1993 م.
69. الطبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1990 م.
70. طرائق التعليم المعاصرة، الربيعي، محمود داوود سليمان، عالم الكتب الحديث، د.ط الأردن، 2006م.
71. الطفل والعلاقات الأسرية، لأحمد أوزي.

72. العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، دار القلم، د.ط، دمشق، د.ت،
73. العهد القديم العبري، ترجمة بُولس الفعّالي وأنطوان عَوكر، الجامعة الأنطونية، ط 1، 2007،
74. العيال، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف، م.2، دار ابن القيم، ط.1، -السعودية - الدمام، 1410هـ - 1990م.
75. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي - محب الدين الخطيب، دار الكتب السلفية، ط.1.
76. فتح القدير، محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، ط.1، دمشق، 1414هـ.
77. الفقه الأكبر، أبو حنيفة، مكتبة الفرقان، ط.1، الإمارات العربية، 1419هـ - 1999م.
78. فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، ط.10، بيروت، 1411هـ/1991م.
79. فوائد ابن أخي ميمي الدقاق، أبو الحسين محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن هارون البغدادي الدقاق، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار، دار أضواء السلف، الرياض "ضمن سلسلة مجاميع الأجزاء الحديثية 5"، ط.1، 1426 هـ / 2005 م.
80. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط.17، 1412هـ.
81. قطوف حافية من الرحمة النبوية ذ. محمد باعسو، مطبوعات الهلال، ط.1، 2000 م.

82. الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، أحمد الريسوني، مطبعة النجاح الجديدة، د.ط، 1999م.
83. الكافي في امتحانات الكفاءة المهنية، إحمدي، محمد، وبوفوس، محمد. الدار البيضاء "المغرب": مكتبة التراث العربي، د.ط، د.ت.
84. كتاب الفضائل، مصنف بن أبي شيبة، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد-الرياض، ط.1، 1409، رقم الحديث: 32191.
85. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع د.ط، د. ت.
86. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، المكتبة الفيصلية، د.ط، مكة المكرمة د.ت.
87. الكليات معجم في اصطلاحات الفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، بيروت، 1419هـ/ 1998م.
88. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر بيروت، ط.1، د.ت.
89. مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس، ط.1، جامعة الملك سعود، 1402هـ، 1982م.
90. مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية، يامين بودهان، دار هومة للنشر والتوزيع بالجزائر، العدد.12، سنة 2006 م.
91. المرجع في تدريس علوم الشريعة، صالح، عبد الله عبد الرحمن. عمان: دار وائل للنشر، ط.2، 1425هـ/ 2005م.

92. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج.4، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 1411هـ - 1990م.
93. المسند الجامع لأحاديث الكتب الستة ومؤلفات أصحابها الأخرى بشار عواد معروف- السيد أبو المعاطي النوري- أحمد عبد الرزاق عيد، دار الجيل، د.ط، 1413هـ/1993م.
94. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1421 هـ - 2001 م.
95. المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط، د.ت.
96. المسيحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، منشورات الشريف الرضي، د.ط، 1380هـ.
97. المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط.1، 1432هـ/2011م.
98. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، ط.5، بيروت، 1985م.
99. المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط، د.ت.
100. المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني، مؤسسة الرسالة، ط.3، بيروت، 1995.

101. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط.2، 1399هـ/1979م.
102. المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة، خليل إبراهيم السامرائي، منشورات مكتبة البسام، ط.1، الموصل، 1984.
103. معالم التنزيل، الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: سليمان مسلم الحرش - عثمان جمعة خميرية - محمد عبد الله النمر، دار طيبة، ط.1، الرياض، 1409هـ/1989م.
104. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د. سعد بن عبد الله الحميد و د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ط.1، 1427هـ - 2006 م.
105. معجم المصطلحات التربوية في المناهج وطرق التدريس، اللقاني، حسين، والجمل، علي. القاهرة: عالم الكتب، د.ط، 1999م.
106. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط.4، 1425هـ/2004م.
107. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 1401هـ - 1981م.
108. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: 1 - 1412 هـ.
109. المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية.
110. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 1979م.
111. المقدمة، ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا، د.ط، بيروت، 2012م.

112. من آدب الإسلام، أبو غدة عبد الفتاح، دار البشائر الإسلامية، ط.2، بيروت: لبنان، 1413هـ.
113. من أجل حوار بين الحضارات، روجيه غارودي، دار النفائس، د.ط، لبنان، 2007؛ روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، عويدات للطباعة والنشر، د.ط، 2003م.
114. المناهج التربوية الحديثة مفاهيمها وعناصرها وأسسها وعملياتها، مرعي توفيق أحمد والحيلة، محمد محمود، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط.9، عمان، 2011م .
115. مناهج الجدل في القرآن الكريم، زاهر عوض الأملعي، دار المكتبة، ط.1، 1399هـ.
116. المناهج المدرسية بين النظرية والتطبيق، شحاته حسن، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط.3، القاهرة، 2003م.
117. منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات الأمريكية المتحدة، ط.1، 1434هـ/ 2013م.
118. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، ط.2، بيروت، 1392.
119. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط.13، 1412هـ/ 1992م.
120. منهج التربية النبوية للطفل، تأليف: محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، اتحاد الناشرين السوريين دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 1430 هـ – 2009م.
121. من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، ط.2، بيروت، 1419هـ/ 1998م
122. مهارات الاتصال، راشد علي عيسى، وزارة الشؤون والأوقاف الإسلامية، د.ط، الدوحة، 2004.
123. الموافقات، الشاطبي، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط.1، 1417 هـ/ 1997م.

124. المواقف والعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين خلال فترة صدر الإسلام، إياد محمد إسماعيل أبو ربيع، "40ق.ب-40هـ/570-660م"، برنامج التاريخ العربي الإسلامي، د.ط، جامعة بيرزيت، 2013.
125. موقف النبي صلى الله عليه وسلم من يهود الحجاز دراسة منهجية، خالدة عبد اللطيف حسن ياسين دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، 2009.
126. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار، ط.4، 1416 هـ.
127. النشاط الاقتصادي لليهود بالحجاز في الجاهلية وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، رياض مصطفى أحمد شاهين، مجلة الجامعة الإسلامية "سلسلة الدراسات الإنسانية" م.12، العدد.2، 2004م.
128. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط: 4، جدة.
129. نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرانسيس فوكوياما، ترجمة فؤاد شاهين وجميل قاسم ورضا الشايب، مركز الإنماء القومي، د.ط، بيروت، 1993م.
130. وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد قائد الشعيبي، سلسلة كتاب الأمة، س:25، ع.110، وزارة الأوقاف والشؤون القطرية، قطر، 1426هـ، ص: 58-59.
131. ومضات من القرآن الكريم، غازي صبحي، آيات قرآنية: دار الفكر، د.ط، دمشق، د.ت،
132. يهود أسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، علاء بكر، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، ع.24، ط.1، 1430هـ/2009م.

فهرس الموضوعات

3	شكر وتقدير.....
4	الإهداء
5	المقدمة.....
17	الباب الأول:.....
17	الأسس الروحية السلوكية للحوار النبوي.....
22	الفصل الأول:.....
22	مفهوم الحوار وأسس الروحية والسلوكية.....
23	المبحث الأول: الحوار وتمييزه عن مصطلحات مشابهة.....
35	المبحث الثاني: الأسس الروحية للحوار النبوي.....
47	المبحث الثالث: الأسس السلوكية للحوار النبوي.....
60	الفصل الثاني:.....
60	الخطاب القرآني مؤسس لمنهج الحوار النبوي.....
62	المبحث الأول: الأساليب الحوارية في القرآن الكريم.....
81	المبحث الثاني: مبادئ التوجيه القرآني للحوار النبوي.....
85	المبحث الثالث: شواهد قرآنية للحوارات النبوية.....
94	الفصل الثالث:.....
94	الأسس الأثافي للحوار النبوي.....
95	المبحث الأول: الأسس العقدية للحوار النبوي.....

المبحث الثاني: الأسس التربوية للحوار النبوي.....	118
المبحث الثالث: الأسس التعليمية التوجيهية للحوار النبوي.....	128
الفصل الرابع:.....	138
أسس الحوار النبوي في المجال التربوي والتعليمي.....	138
المبحث الأول: الحوار النبوي في المجال التربوي.....	139
المبحث الثاني: الحوار النبوي في المجال التعليمي.....	148
المبحث الثالث: الحوار مدخلا لفتح المهارات في محافل العلم.....	157
الباب الثاني:.....	165
أبعاد الحوار النبوي الاجتماعية والسياسية والإنسانية.....	165
الفصل الأول:.....	166
الحوار النبوي وبناء الإنسان والأسرة.....	166
المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأزواج.....	167
المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأبناء والأحفاد.....	184
المبحث الثالث: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الخدم.....	196
الفصل الثاني:.....	214
الحوار النبوي مع الأصحاب والصحابيات وأبنائهم.....	214
المبحث الأول: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأصحاب.....	215
المبحث الثاني: حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابيات.....	232
المبحث الثالث: حوار صلى الله عليه وسلم مع أبناء الصحابة.....	244

253	الفصل الثالث:
253	الحوار مع الملوك والقادة وأهل الديانات السماوية.
254	المبحث الأول: الحوار مع الملوك والقادة.
270	المبحث الثاني: حوار مع أهل الديانة اليهودية.
289	المبحث الثالث: الحوار مع أهل الديانة النصرانية.
305	الفصل الرابع:
305	الحوار النبوي في بناء المشترك والعمران الإنساني.
306	المبحث الأول: القيم في الحوار النبوي من أجل بناء مشترك إنساني.
330	المبحث الثاني: مقاصد الحوار النبوي في بناء المشترك الإنساني.
351	المبحث الثالث: منهج الحوار النبوي وبناء العمران الإنساني.
369	المصادر والمراجع.
382	فهرس الموضوعات.